
جورج أمادو
مكتبة بغداد
باهيا
رواية
ترجمة محمد عيتاني
والدكتور عفيف دمشقية
دار الآداب

جُورج أمادُو



ترجمة محمّد عيتاني
والدكتور عفيف دمشقيّة

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨٨

عن المؤلف

ولد جوورج أمادو في عام ١٩١٢ في مزرعة كاكاو بمقاطعة باهيا البرازيلية،وفي باهيا تلقى دراسته الأولى، لكنه وهو في الثالثة عشرة من عمره فرّ من إحدى المدارس الدينية ليرتاد الريف، وبعد عامين كان يعمل في إحدى الصحف.

ثم ذهب إلى مدينة ريـودي جانيرو حيث نشر، وهو في التاسعة عشرة عن عمره، روايته الأولى وهي «بلد الكرنفال». وبعد ذلـك بعام أصدر رواية «كاكاو[1]» التي صنّفته بين الكتاب الأكثر شعبية في البرازيل... وفي عام ١٩٣٥ (بعد أن أصبح دكتوراً في الحقوق) أصدر رواية «جوبيابا» التي ترجمتها دار «المجلة الفرنسية الجديدة» N.R.F تحت عنوان «باهيا جميع القدّيسين»، والذي فضلنا عليه، في ترجمتنا العربية هذه، عنوان «باهيا، الحب والجهال...»، وفي عام ١٩٣٦، حصل على «جـائـزة غـراسـا أرانها» (Graça Aranha)، (وهي «الغونكور» البرازيلية) وذلك عـن روايتـه «مـارمـورتـو» «البحر الميت (Mar Morto). وبروايتـه «قباطنة الرمـال[2]» أقفـل

(١) ترجمت إلى العربية مباشرة عن اللغة البرتغالية بعنوان «أرض ثمارها من ذهب» وقام بالترجمة عوض شعبان. (هـ. م).

(١) ترجمناها إلى اللغة العربية تحت عنوان «فارس الرمال» ـ نسبة إلى بطلها الغلام «بيدرو بالا» (هـ. م).

في عام ١٩٣٧ ثلاثيته الروائية عن مقاطعة « باهيا »، حيث روى على التوالي حياة الزنوج، وحياة شغّيلة البحر الصيادين على مراكبهم الشراعية، وأخيراً روى حياة الأولاد المتشردين المنظّمين في عصابة.

وهو، كمناضل في « الجبهة الشعبيّة البرازيلية »، عرف السجن مراراً، وكانت كتبه تصادر وتُحرَق، وتُخطَّر في جميع البلدان ذات اللغة البرتغالية. وقد أجبر أخيراً هو ذاته في عام ١٩٤١ على النفي إلى الأرجنتين ـ لكن أمادو، في عام ١٩٤٣، حين انضمت البرازيل إلى الحلفاء ضدّ المحور، عاد إلى باهيا واستعاد فيها نشاطه السياسي والأدبي. وفي عام ١٩٤٥، وكان قد أصبح عضواً في الحزب الشيوعي، انتخب نائباً وطنيّاً عن ساوبالو.

إن سيرة للشاعر البرازيلي «كاسترو ألفيس»، وسيرة أخرى للويس كارلوس بريستيس[1]، ومسرحيتين، ومجموعة من الروايات يعود فيها إلى عالم الكاكاو الموصوف والمحلل على الصعيد الريفي وعلى الصعيد المديني، تكمل حتى اليوم عمل أمادو الذي هو بكلّ تأكيد، أحد أعظم روائيي البرازيل وأميركا اللاتينية والعالم.

★ ★ ★

(١) ترجمها إلى العربية الاستاذ أحمد غربية تحت عنوان « فارس الأمل » (هـ. م).

ملاكمة

نهض الجمهور نهوض رجل واحد. وساد صمت مقدّس.

عَدّ الحكم حتى ستة. ولكن قبل أن يعد: سبعة... نهض الرجل الأشقر على إحدى ذراعيه، وباستجماعه كلّ طاقته، استقام على قدميه. وهجم الزنجي بغضب مسعور، فارتفعت صيحات، واشتبك الخصمان بالأيدي في وسط الحلبة. كان الجمهور يصرخ:

- اقضِ عليه! اقضِ عليه!

كانت ساحة الكاتدرائيه في ذلك المساء سوداء من زحام الناس. وكان بعضهم يسحق بعضاً على المقاعد، ويكدّهم العرق، وعيونهم جاحظة نحو الحلبة المنارة بضوء ضعيف، حيث كان أنطونيو بالدوينو يقيس قوته على قوة إرجين، الألماني. كان ظل الكنيسة الدهرية يمتدّ على جمهور الرعاع. وكان جنود، وبحارة، وطلبة، وعمال، وكل ما كانوا يرتدونه هو بنطال وقميص، يتابعون بحرارة تطورات المعركة. أما الزنوج، والخلاسيون والرجال البيض، فقد كانوا جميعاً إلى جانب الزنجي انطونيو بالدوينو، الذي كان خصمه قد عضّ التراب مرتين.

في المرة الثانية، كان يمكن القول تماماً إنّ الأبيض لن يعاود النهوض. لكنَّ الحكم لم يصل في عدّه إلى: سبعة... حتى كان الألماني

يقف ويستأنف الصراع. وسرت في الجمهور رعشة إعجاب، وهمس أحدهم:

ـ هذا الالماني، رغم كل شيء، هو فحل...

ومع ذلك، استمر إعداق التشجيعات على الزنجي الطويل القامة، البطل الباهياني[1] للوزن الثقيل في الملاكمة. والآن كان الجمهور يصيح دون استعادة أنفاسه، لأجل التعجيل بالنهاية، أي هزيمة **الألماني**.

كان ثمة رجل نحيف، ذو بشرة بلون الورق الممضوغ، يعضعض عقب سيجارة منطفئة.

ـ اقضِ عليه! اقضِ عليه!

وكان الحضور يضربون بأرجلهم، ويطلقون صرخات تسمع من ساحة كاسترو ألفيس.

ولكنْ ها هو **الأبيض** قد انتقل في الجولة التالية بغضب إلى الهجوم ملقياً آلزنجي في الحبال. ولم يكن الجمهور قلقاً البتة: كان ينتظر ردّ فعل الزنجي.

وفعلاً، فقد كان بالدوينو يستهدف وجه الالماني المدمّى. لكنّ إيرجني تلافى الهجمة، وسدّد ضربة شديدة إلى وجه الزنجي بلغت من الشدة أنها حولت محجر عينه إلى قطعة لحم نازفة للدم. وبدفعة واحدة أصبح الالماني هائل الحجم. وكان يسيطر مثل عملاق على

---

(١) الباهياني نسبة إلى مقاطعة باهيا البرازيلية، وهي المقاطعة التي تجري فيها أحداث هذه الرواية والعديد غيرها من روايات أمادو (هـ. م).

الزنجي، الذي كان يكتفي بتلقي الضربات على وجهه، وصدره، ومعدته. وعاد بالدوينو إلى الحبال؛ كان يتعلق بها، وظلّ هنـاك بلا ردّ فعل، سلبيّ الموقف. لم يكن لديه سوى فكرة واحدة: تلافي السقوط، بأيّ ثمن، وكان يتشبّث بالحبال بكل قواه. بيد أن الالماني الهائج كان يدق وجه خصمه كأنما بمطرقة. وراح أنف بالدوينو ينزف دماً! وكانت عينه اليمنى مغمضة، وهناك تمزّق في أسفل الأذن، وكان يرى بصورة مُوئسة، الأبيض مهتاجاً، وكان يسمع بعيداً بعيداً جداً ضوضاء الجمهور. كانوا يصفرون. فهل سيرون البطل مطروحاً على الأرض؟ وكانوا يزعقون:

- هيّا، يا زنجي! ادخل فيه!

لكنّ الجمهور صمت بعد قليل، مذعوراً لمشهد بطله بلا دفاع. حينئذ انفجرت صيحات السخرية والاحتجاج:

- يا لَلزنجي الأنثى! امرأة في بنطال!... وأنت، يا أشقر، هيا، الكمه بشدّة!...

كانوا هائجين غضباً لرؤية الزنجي يستسلم لضربات خصمه. لقد دفع كل منهم ثلاثة ميلريسات رسم دخول لحضور انتصار البطل الباهياني على هذا الأبيض الذي كان يسمّي نفسه بطل أوروبا الوسطى. وها هم يشهـدون سحـق الزنجي. كـانـوا يحسّـون بـأنهم مسروقون، ولم يعودوا يستقرون على مقاعدهم، ولم يعودوا يعرفون ما إذا كان عليهم أن يصفّقوا للرجل الأبيض أم أن يسخروا منه. وأخيراً أطلقوا تَنَهُّـدة ارتياح حين رنّ قرع الصنج إشارة إلى انتهاء الجولة.

كان أنطونيو بالدوينو بإحدى زوايا الحلبة، مستنداً إلى الحبال.

حينئذ بصق جهاراً الرجل النحيف ذو عقب السيجارة، وصاح:

ـ أين هو هذا الزنجي بالدوينو، صارع البيض؟

سمع أنطونيو بالدوينو هذه المرة. فاحتسى جرعةمنالخمرة من فم الزجاجة التي مدّها نحو «الضخم» (وهو الحكم)، واستدار نحو الجمهور، باحثاً عن مصدر الصوت.

وارتفع هذا الصوت، مرة أخرى، برنين معدني:

ـ أين هو هذا، قاهر البيض؟

وتجاوب معه شطر من الحضور:

ـ أين هو؟ أين هو الآن؟...

أحسّ بالدوينو بمثل لذعة سوط. كان لا يحسّ بلكمات قبضة الأبيض، لكنه كان بالتأكيد يشعر بألوان التأنيب التي يوجّهها إليه أنصاره.

ـ حين ستنتهي المباراة، سأدمّر هذا الفتى. وأنت، حدّد موضعه.

حين أعلن قرع الصنج استئناف الصراع، اندفع الزنجي نحو إيرجين. وسدّد له لكمة مباشرة على الفم، وأخرى في البطن.

وعاد الجمهور يلتقي بطله. ويصيح:

ـ هيا بسرعة، يا انطونيو بالدوينو! هيا، يا بالدو! اصرعْه!...

عاد الزنجي المسخ[1] يضرب على ركبتيه. كان الرجل النحيف يبتسم.

وكان بالدو مستمراً في الصراع، يسيطر عليه غضب هائل مسعور.

حينئذ قام **الالماني** بهجوم مضاد، وسدّد لكمة إلى عين خصمه السليمة... لكنَّ الزنجي احتمى بحركة سريعة، ومثل نابضٍ يتمدّد، سدّد بالدوينو لكمة مباشرة إلى تحت ذقن ايرجين، **الالماني**. ورسم بطل **أوروبا الوسطى** في قطع مكافىء،[1] وارتمى على أرض الحلبة كتلة واحدة.

كان الجمهور يهمهم ابتهاجاً.

ـ بالدو! بالدو!... بالدو!...

أخذ الحكم يعدّ: ستة، سبعة، ثمانية...

كان بالدوينو المبتهج في رضى، ينظر إلى الرجل الأبيض الثاوي عند قدميه. ثم أجال عينيه المتفرّستيْن على الجمهور الذي كان يهتف له، باحثاً عن ذلك الذي تجاسر على القول إنه ليس قاهر البيض. ونظراً لأنه لم يعثر عليه، فقد راح يبتسم لـ «الضخم» (وهو الحكم). وكان هذا يعدّ:

ـ ... تسعة... عشرة...

ورفع ذراع بالدو. وكان الجمهور يزمجر. لكن الزنجيّ لم يسمع

---

(١) المقصود أحد الحضور، وهو الذي استاء منه بالدوينو قبل قليل (هـ. م).

سوى صوت معدنيّ، وكان هذه المرة يقول:

ـ هذا جيّد. أيها الزنجي. ما زلت قاهر البيض...

خرج البعض من البوابة الصدئـة، لكن العدد الأكبر من الحضور اندفع نحو المربّع الضوئي الذي كان يؤطّر الحلبة، لكي يحملوا المنتصر على الأعناق تمجيداً له. وأمسك عامل ميناء وطالب بساقه، وتناول خلاسيّان الساق الأخرى. وهكذا حملوا الزنجي ووصلوا به إلى المبولة العامة، التي كانت تستخدم كغرفة ثياب للمتصارعين.

لبس أنطونيو بالدوينو البذلة الزرقاء، وشرب جرعة من الخمرة، وتلقى المئة مايرليس التي استحقها، وقال للمعجبين به:

ـ الأبيض لا يستطيع الصمـود... لا يـوجـد أبيـض يستطيـع الصمود أمام أنطونيو بالدوينـو... الزنجيّ، كما أقـول لكـم هـو فحل...

ابتسم، وشدّ الورقة النقدية في جيب بنطاله، ثم اتّجه نحو نزل زارا، حيثُ تقطن زيفا، وهي فتاة خلاسية مبرودة الاسنان، كانت قد وصلت من المارانيون[1].

---

(١) منطقة في البيرو يجتازها نهر مارانيون (هـ. م).

الطفولة الأولى

كان أنطونيو بالدوينو يتأخّر في مكوثه على قمة الجبل الصغير وهو ينظر إلى هذا الخطّ من الأنوار، في أسفل، والذي كان هو المدينة. كانت أنغام قيثار تسترسل على الجبل الصغير، منذ بزوغ القمر. وكانت أصوات تغنّي ألحاناً حزينة. وكان حانوت **لورانسو، الإسباني**، يمتلىء بالرجال الذين يأتون إليه ليتحادثوا ودّياً وليقرأوا الصحيفة التي كان صاحب المحل يخصّ بها شاربي الروم الأبيض.

كان أنطونيو بالدوينو، المرتدي قميصاً طويلاً ملطّخاً دائماً أترابـه، يقضي حياته وهو يجري في طرقات الجبل ودروبه، مع أتراب الغلمان، رفاقه في اللعب.

إن أعوامه الثمانية، وقد بلغها بالضبط، لم تكن تمنعه من أن يكون قائداً لعصابات من الغلمان الذين كانوا يتسكّعون على جبل الزنجي ـ الخصي الصغير، وعلى التلال المحيطة به. ولكنْ في المساء، لم يكن أيّ لعب يمكن أن ينتزعه من تأمّل الأنوار التي كانت تشتعل في المدينة القريبة جداً والبعيدة جداً. وكان يجلس دائماً على هذا المنحدر في ساعة الغروب، وكان ينتظر بقلق عاشق ظهور الأنوار. كانت ثمة رغبة أو حتى شهوة في هذا الانتظار؛ وكأنما هو ذَكَر ينتظر أنثاه. كان يجلس هناك وعيناه مثبتتان في اتجاه المدينة، مترقباً. كان قلبه ينبض بقوة أكبر، في حين كانت الظلمة تجتاح مجموعة المنازل، وتغطي

الشوارع، ومنحدر الجبل الصغير، وتبتعث من المدينة ضجة غريبة من الناس العائدين إلى بيوتهم، ورجال يعلقون على شؤون اليوم، وعلى جريمة الليلة السابقة.

كان أنطونيو بالدوينو، الذي لم يكن قد ذهب إلى المدينة إلاّ نادراً، وفي كل مرة على عجل، تجرّه دائماً عمّته، يتصل في هذه الساعة بكل حياة الحاضرة. فمن الأسفل كانت تأتي ضجّة. وهو كان يبقى هنا، مصغياً إلى هذه الضجّات الغامضة، التي كان موجها يصعد عبر المنحدرات الزلقة للجبل الصغير. وكان الغلام بالدوينو يحسّ في أعصابه باهتزاز كلّ هذه الضجات، التي تذكّر بالحياة والصراع.

كان يتصور نفسه وقد أصبح رجلاً، يعيش حياة الرجال المتعجّلة، المناضلين نضال كل يوم. وكانت عيناه الصغيرتان تلمعان، وقد أحسّ أكثر من مرة بالميل إلى ترك جسمه ينزلق حتى أسفل المنحدر، في هذه الساعة الغائمة. ومن المؤكد تماماً أنه سيفقد في ذلك عشاءه، ويكسب، في المقابل، ضرباً قوياً بالقضيب. ولكن لم يكن هذا هو ما يمنعه من الذهاب ليرى عن كثب المدينة المدندنة لدى خروج الناس من العمل. وما كان لا يريد أن يخسره، هو ظهور الأنوار: هذا الكشف الذي كان دائماً بالنسبة له جديداً ودائماً جميلاً.

ها هي المدينة غارقة كلها تقريباً في الظلمات. ولم يعد أنطونيو بالدوينو يتميّز أيّ شيء.

كان هواء بارد يصعد مع الظلمة. وهو لم يكن يحسّه، إنه يتمتع

بهذه الضجّات، وبهذه الضوضاء المتزايدة باستمرار. ولم يكن يفوته شيء. كان يتميّز الضحكات، والصيحات، وأصوات السكارى، والأحاديث السياسية، وصوت العميان البطيء، الذين يطلبون صدقة لوجه الله، وتُرقِصُه حافلات الترام التي تعجّ بالناس على مرقاتها. إنه يتذوّق بجرعات صغيرة حياة الحاضرة.

في أحد الأيام، انتابه انفعال هائل، جعله يرتعش بكل جسمه. فوثب على قدميه مرتعشاً من اللذة. ذلك لأنه تميّز أصوات بكاء، بكاء امرأة وأصواتاً تُهتدِّيءُ وتواسي. هذا الشيء في داخله كان يتصاعد مثل جمهور من الناس، جارّاً إياه في دوار من المتعة. إن أحد الناس، وهو امرأة،كانت تبكي في المدينة التي كان يسودها الظلام. وقد أعار أنطونيو بالدوينو أذنه لهذا النحيب إلى أن اختنق في قرقعة خطّ حديدي لحافلة ترام كانت تمرّ. وانتظر طويلاً، حابساً انفاسه، ليرى إن كان سيستطيع أن يسمع المزيد. ولكن كان لا بدّ أنهم أخذوا المرأة بعيداً عن الشارع، ولم يعد يسمع أيّ شيء. في ذلك المساء، لم يشأ أن يتعشى، ولا أن يرتاد الطرقات مع رفاقه. وكانت عمته تقول:

ـ لا بدّ وأن هذا الولد قد رأى شيئاً ما.... إنه ماكر جداً...

أيام جيّدة أيضاً، تلك الأيام التي كان يسمع فيها جرس عربات الإسعاف، يرنّ عبر المدينة. كان هذا يعني أن ثمة ألماً في أسفل، وأنطونيو بالدوينو، الغلام في سنّ الثامنة، كان يتمتّع بقطع الألم هذه كما يتمتّع رجل بامرأة.

لكن ظهور الأنوار كان ينقّي كل شيء. كان أنطونيو بالدوينو

يضيع في تأمل صفوف المرايا العاكسة، ويغرق عينيه الحادّتين في الألق، ويحسّ بالرغبة بأن يكون لطيفاً مع الزنوج الصغار الآخرين في الجبل الصغير. ولو أن أحدهم اقترب منه في هذه اللحظة، فإنه كان بلا شكّ سيقبله، وما كان ليستقبله بالقرصات المعتادة، وما كان ليتلفظ بالكلمات البذيئة جداً التي كان قد عرفها فعلاً. وكان بلا شكّ سيمرّ بيده على شعر صاحبه، الكثّ العصيّ، مسنداً صدره إلى صدر الصديق. بل وربما كان سيبتسم. لكن الغلمان كانوا يركضون على الجبل الصغير ولا يهتمّون به. كان يواصل النظر إلى الأنوار. وكان يتميّز أشباح المارّة، الرجال والنساء الذين كان يبدو أنهم يتنزّهون. ووراءه، على الجبل الصغير، كانت تسمع نقرات القيثار والزنوج الذين كانوا يثرثرون. وكانت لويزا العجوز تصيح:

ـ بالدو، تعال إلى العشاء... إنه مستحيل، هذا الغلام...

لقد حلت عمته لويزا محل أبيه وأمه. وعن والده، لم يكن يعرف شيئاً كثيراً: كان يدعى فالنتان، وكان، وهو في سنّ الرجال تقريباً، أحد المؤمنين بـ أنطونيو كونسيلهيرو[1]، وما كان فالنتان يخطو خطوة إلاّ وتسقط امرأة بين ذراعيه، وكان كثير الشرب، وقد انتهى به الأمر مسحوقاً في مساء أحد الأيام تحت حافلة بعد وليمة شراب وقصف صاخبة. هذه الحكايات، كان بالدو يأخذها عن

(١) انطونيو كونسيلهيرو: رجل صاحب رؤيا، صانع معجزات أو مدّعيها، قاوم، في نهاية القرن الماضي، مع المؤمنين به أربع حملات للثأر منه، في مجاهل السيارا (إحدى المناطق الجبلية). وكان موضوع الحديث في كتاب أوقليدس الرائع: «أوس سيرتويس» (هـ. م).

عمته حين كانت تتحدّث عن المرحوم أخيها مع الجيران؛ وكانت تخلص دائماً إلى القول:

ـ كان فتى وسيماً بحيث يسيل من أجله اللعاب. ولكن يا عزيزتي، لم يكن له نظير في القتال وفي حب الخمرة.

كان أنطونيو بالدوينو يصغي في صمت ويجعل من والده بطلاً. ومن المؤكد تماماً أن أباه قد عاش حياة الحاضرة في ساعة اشتعال الأضواء. وأحياناً كان انطونيو يحاول إعادة بناء حياة أبيه مع بقايا المغامرات التي كان الغلام يسمع عمته لويزا العجوز ترويها. وكان يستغرق حينئذ في الخيال وهو يبتكر أعمال بطولة. كان يتأمل النار، ويجهد ليتصور كيف كان يمكن أن يكون والده. وفي كل مرة كان يسمع رواية شيء فيه مغامرة بطولية مفرطة، كان يقرّر أن أباه لا بدّ وأنه فعل مثل ذلك، أو فعل ما هو أفضل. وحين كان الغلام يلعب لعبة اللص مع الأولاد الزنوج الآخرين، في الجبل الصغير، وحين كان **يُسأل** ماذا يريد أن يكون فيما بعد، هو، الذي لم يكن بعد قد إرتاد السينما، لم يكن يجيب: هل يريد أن يكون إيدي بولو، أو ايلمو، أو ما سيست[1]. بل كان يقول:

ـ أريد أن أكون أبي.

كان الآخرون يهزأون به.

ـ ماذا فعل، أبوك؟

ـ كثيراً من الأشياء.

---

(١) أبطال رياضة وسينما. (هـ. م).

ـ باه! إنه على كل حال لم يرفع سيارة بساعد واحد، مثل ماسيست.

ـ لقد رفع شاحنة في الهواء.

ـ شاحنة؟

ـ أجل، ومحمّلة أيضاً...

ـ ومن الذي رآه يفعل ذلك، يا بالدو؟

ـ عمتي رأته. اسألها. وإذا كان هذا لا يعجبك، قل ذلك، أو اذهب من هنا.

وهكذا، مراراً كثيرة، قاتل من أجل الذكرى البطولية لهذا الوالد الذي لم يعرفه.

عن والدته لم يكن أنطونيو يعرف أي شيء.

كان يهيم في حرية على الجبل الصغير، وكان لا يزال يجهل البغضاء والحب. وهو، النقي مثل حيوان، لم يكن له قوانين سوى غرائزه. كان يهبط على منحدرات الجبل الصغير بأقصى سرعة، وكان يمتطي مقابض المكانس، وهو قليل الكلام، لكن ابتسامته كانت متفتحة.

ومنذ سن مبكِّرة، كان يقود غلمان الجبل الصغير، أو حتى أولئك الصبيان الأكبر منه سناً. كان واسع الخيال، وأكثر شجاعة من الجميع. وكان مقلاعه جيّد التسديد، وصائباً، وكانت عيناه تقدحان شرراً في المعارك. وكان الغلمان يلعبون لعبة قاطعي الطرق، فكان هو دائماً رئيس العصابة. وفي كثير من الأحيان كان ينسى أن ذلك كان لعباً، ويقاتل بصورة جدِّية. وكان يعرف كل الكلمات البذيئة،

ويردِّدها باستمرار.

كان يساعد لويزا العجوز في صنع **المانغونسا**[1]، وحساء المنيهوت المخمر، الذي كانت تذهب لبيعه مساء في ساحة **تيريرو**. وكان يغسل القدر المعدنية، ويحمل الأواعي، وكان يعرف أن يفعل كل شيء، ما عدا برش جوز الهند. في البدء، كان يهزأ منه الأولاد الآخرون ويسمّونه الطباخ، ولكن منذ أن شجَّ أنطونيو بالدوينو رأس زيبيديه بضربة حجر، كفّ الأولاد عن السخرية منه. وفي هذه المرة تعرض لضربات القضيب من عمته، ولم يتوصل لمعرفة لماذا كان ذلك. لكنه كان سرعان ما يغفر للعجوز الضربات التي كانت توجهها له. وعلى كل حال، فإن ضربات السوط كثيراً ما كانت لا تصيبه، ذلك لأنه كان رشيقاً سريع الحركة، وكان ينزلق مثل سمكة بين يدي عمته تهرباً من السوط. بل إن ذلك قد أصبح تسلية ممتعة له، وكان يضحك كثيراً لأنه قد نجا، في نهاية المطاف، بدون خسارة كبيرة. كل هذا لم يكن يحول دون أن تقول عمته:

ـ إنه هو، رجل البيت.

كانت العجوز تُحسِنُ الثرثرة، وتستأثر بانتباه الناس. كان الجيران يأتون للتحدث معها، ولسماع القصص التي كانت ترويها، وهي قصص أشباح، وحكايات جنّيات وذكريات من عهد الرق. وأحياناً كانت تروي قصصاً شعرية. وكان ثمة حكاية تبدأ هكذا:

أيها القراء، يا لَهذه المغامرة المخيفة التي سأرويها اليوم لكم!

---

(١) طعام برازيلي على حلوى. (هـ. م.).

جسمي يرتعش كله وشعر رأسي يقف من الهول، إذ أنني ما ظننت أبداً أنه يمكن أن يوجد في هذا العالم مسخ قادر على أن يقتل أمه وأباه! كانت تلك هي قصة «البنت الملعونة»، وهي مسألة روتها الصحف مع عناوين كبيرة وقد نظمها شاعر شعبي شعراً لبيع النسخة بأربعة فلوس في السوق.

كان أنطونيو بالدوينو يحب كثيراً هذه القصة. وكان يلحّ على العجوز لكي ترويها مرة ثانية. ويأخذ في الصراخ إذا رفضت ذلك. وكان يحب أيضاً سماع القصص التي يرويها الرجال عن **انطونيو سيلفينو ولوكاس دافيرا**. وفي تلك الأمسيات، لم يكن يذهب إلى اللعب. وحين سئل مرة: «عندماستكبر، ماذا تريد أن تصبح فيما بعد؟» أجاب بدون تردد: «قاطع طريق». ولم يكن يعرف مهنة أجمل، ولا تتطلب سوى مزيتين: معرفة إطلاق النار، وأن يكون شجاعاً.

وكان يقال له: ـ عليك على الأخص الذهاب إلى المدرسة.

كان يتساءل بالضبط لماذا. إنه لم يسمع أبداً أن قاطع طريق كان يعرف القراءة. إن «العلماء» الذين كانوا يعرفون القراءة، كانوا أشخاصاً مساكين. كان يعرف الدكتور (العالم) أوليمبيو، وهو طبيب بلا زبائن، كان يصعد من حين إلى آخر إلى الجبل الصغير بحثاً عن زبائن إشكاليين؛ وكان الدكتور أوليمبيو شخصاً نحيفاً سيّىء الطلعة، عاجزاً عن مقاومة هجمة جيّدة.

كما أن عمته لم تكن تعرف القراءة، ومع ذلك فالجبل الصغير كله كان يحترمها، ولم يكن أحد يحدث لها مشاكل، ومامن أحد كان

يذمّها. وحين كان ينتابها وجع الرأس، فمن الذي كان يجازف ويخاطب العجوز لويزا؟ إن أوجاع الرأس هذه للزنجية العجوز كانت ترعب أنطونيو بالدوينو. كانت تنتاب عمته نوبة بين حين وآخر، فكانت تصبح كمجنونة، وكانت تزمجر، ويخفّ الجيران لإغاثتها، لكنها كانت تطردهم قائلة إنها لا تريد أبالسة في منزلها، وليذهبوا جميعاً إلى الشيطان!

في أحد الأيام سمع أنطونيو جارتين تتحادثان، في حين كانت العجوز لويزا مصابة بنوبة. كانت زنجية عجوز تقول:

ـ إن حملها كل مساء هذه الأواني الساخنة جداً هو الذي يسبب مرضها. إن الأواني الساخنة تسخن الرأس.

ـ كلا، يا ست روزا! ألا ترين أن في المسألة روحاً خفياً؟ رغم أنه روح خير. أنت تعلمين أن الذين يبحثون عن طريقهم، دون أن يعلموا أنهم موتى، يركضون في كل مكان، ويلزم لهم جسم حيّ لكي يدخلوا إليه. وهذا الروح الذي حلّ في العجوز لويزا، هو روح شخص ملعون، وليسامحني يسوع الطيّب!

كانت الجارات الأخريات يوافقن على قول الجارة الزنجية. وكان أنطونيو يظلّ متردداً وخائفاً جداً. كان يخاف من أرواح العالم الآخر. لكنه لم يفهم لماذا تأتي هذه الأرواح لتسكن رأس عمته.

في تلك الأيام، كان جوبيابا يأتي إلى المنزل. وكان أنطونيو بالدوينو يذهب لاستدعائه، مبعوثاً من لويزا. وكان انطونيو يصل إلى أمام الباب الصغير للمنزل المنخفض، ويدقّ الباب. كان الصوت يأتي من الداخل، سائلاً: «من هناك؟».

ـ إنها العمة لويزا التي تطلب أن يأتي الأب جوبيابا إلى عندنا، لأن النوبة قد أصابتها.

ثم كان انطونيو يفرّ راكضاً ،ذلك لأنه كان يحسّ بخوف مجنون من جوبيابا.

وكان يختبىء وراء الباب، وينظر من الشقّ إلى مجيء الساحر الذي كان يتقدّم بخطى صغيرة، وشعره أبيض تماماً، وجسمه جافّ ومحدودب، يستند إلى عصا. وكان الناس يتوقفون لتحيّته.

ـ نهارك سعيد، أيها الأب جوبيابا.
ـ حياكم الله وجعل يومكم سعيداً.

كان يبارك وهو يمرّ. وحتى البقال كان يحني رأسه ويتقبّل المباركة. وكان الغلمان يختفون من الشارع منذ أن يروا ظهور وجه **الساحر** المئوي. وكانوا يهمسون: «ها هو **جوبيابا**» وينطلقون بأقصى السرعة للاختباء في المنازل.

كان جوبيابا يحمل دائماً غصناً صغيراً مورقاً، يهزّه الهواء، وهو يدمدم بأقوال بلهجة الـ «**ناغو**». كان يسير وهو يحدّث نفسه، مباركاً، مرتدياً بنطالاً عتيقاً، وفوقه كان **قميص** مطرّز معرضاً لتقلّبات الهواء مثل راية.

وحين كان **جوبيابا** يدخل إلى منزل العجوز لويزا، ليعزّمها [1]، كان أنطونيو بالدوينو يفرّ إلى الشارع. لكنه كان يعرف مسبّقاً أن أوجاع الرأس لدى العجوز سوف تشفى.

---

(١) عزَّم: طرد الأرواح الشريرة من شخص (هـ. م.).

لم يكن أنطونيو بالدوينو يعرف تماماً كيف يفكر في جوبيابا. كان يحترمه، ولكن كان في احترامه لون مختلف عن الاحترام الذي يكنّه للكاهن سيلفينو، ولعمته لويزا، ولـ لورانسو البقال، ولـ زيه - الاربيان، وحتى للوجهين الاسطوريّين، وجه لامبيون[1] ووجه إيدي - بولو. كان **جوبيابا** يتجوّل بخطى مرتبكة عبر دروب الجبل الصغير، الرجال يصغون إليه باحترام، والجميع يحيّونه، وكانت سيارات فخمة تتوقف بين حين وآخر أمام بابه. في أحد الأيام قال صبي لبالدوينو إن جوبيابا كان يصبح غولاً ذئبياً[1]. وكان ولد آخر يؤكد أن جوبيابا يمسك بالشيطان سجيناً في قنينة.

في بعض الليالي، كانت تصدر عن دار جوبيابا أصوات غريبة لموسيقى غريبة. وكان أنطونيو يتحرّك بهياج على حصيره. ثمة موسيقى تام-تام، وألحان راقصة، وأصوات متغيّرة تماماً وغامضة. ولا بدّ أن لويزا كانت هناك، مرتدية تنورة حمراء من النسيج الهندي الأحمر. في تلك الليالي، لم يكن أنطونيو بالدوينو ينام. وفي طفولته الصحيّة والحرة، كان جوبيابا يمثل السرّ.

كم كانت طيبّة الليالي على جبل خصي - الزنجي الصغير! لقد علّمت الغلام أشياء كثيرة، وعلى الأخص قصصاً كثيرة. إنها قصص كان الرجال والنساء يروونها وهم مجتمعون أمام الأبواب أثناء

---

(١) الاسم الحربي لأشهر قاطع طريق معاصر يجتاح منذ عشرين عاماً مقاطعات الشمال - الشرقي البرازيلي، دون أن يمكن القبض عليه إطلاقاً، والذي اتخذ أبعاد شخصيةٍ أسطورية. (هـ. م.).

(١) الغول الذئبي ساحر يجول ليلاً متنكراً بهيئة ذئب (هـ. م.).

الأحاديث الودّية الطويلة في أمسيات القمر البدر. وفي أيام الآحاد مساء، حين لا تكون ثمة جلسات سحرية عند جوبيابا، كان كثيرون يأتون إلى عتبة لويزا العجوز، التي كانت تحترم عطلة يوم الأحد، فلا تذهب لبيع مآكلها في السوق ذلك اليوم. وأمام الأبواب الأخرى، كانت جماعات أخرى تتحادث، أو أنهم كانوا يعزفون على القيثار، ويغنّون، ويحتسون جرعة من الخمر ـ كان ثمة خمر دائماً لأجل الجيران ـ ولكن لم تكن ثمة جماعة أكبر عدداً من تلك التي كانت تجتمع أمام باب العجوز لويزا. وكان جوبيابا هو نفسه يظهر في بعض الأيام ويروي بدوره قصصاً قديمة حدثت منذ زمن طويل، مازجاً سرده بكلمات من لهجة الـ «نغو»، من الحكم والنصائح. وكان هو، بصورة ما، الأب الروحي لهذه الجماعة من الزنوج والخلاسيّين الذين يقطنون في جبل خصي ـ الزنجي الصغير، في منازل من اللِبْن، المسقوفة بتنك الصفائح المموّج. وكان الجميع يصغون إليه بانتباه حين يتكلم، ويوافقونه بهز الرؤوس صامتين احتراماً. في تلك الليالي، كان أنطونيو بالدوينو يترك رفاقه في اللعب والسباق معهم ويجلس للاصغاء. وكان مستعداً لمنح حياته لقاء قصة، على الأخص إذا كانت قصة شعرية.

ولهذا السبب كان أنطونيو يحب زيه ـ الاربيان، وهو شخص شرّير لم يسبق له أبداً أن عمل عملاً، بل كان له ملفّ عند الشرطة. وكان أنطونيو بالدوينو يقرّ له بفضيلتين كبريين: كان شجاعاً وكان يغنّي مع العزف على القيثار أغاني عن قطّاع الطرق المشهورين. وكان يعزف أيضاً ألحاناً حزينة، وأنغاماً راقصة وأغاني، في أعياد الفقراء التي كانت تقام على الجبل الصغير. كان زيه ـ الأربيان

خلاسياً طويل القامة، ذا بشرة مصفرّة، وكان يبدو دائماً كأنه يترنّح. وهو قد نال شهرة منذ أن جرَّد من السلاح بحّارين مستعملاً السيف في مهاجمتهما. كان ثمة أشخاص كثيرون لا يحبونه، وكانوا ينظرون إليه نظرة سيّئة؛ بيد أن زيه ـ الاربيان كان يقضي ساعات بكاملها وهو يعلّم الأولاد فن المسايفة بصبر لامُتناهٍ. كان يتمرّغ على الأرض معهم، ويبيّن لهم كيف يطبّقون طعنة «ذيل السمكة» وكيف ينتزع الخنجر من يد الخصم. كان الغلمان يحبّونه كثيراً، وكان وثنهم المعبود. وكان أنطونيو بالدوينو يحبّ مرافقته، وسماعه وهو يروي أحداثاً من حياته كقاطع طريق. ونظراً لأن أنطونيو كان تلميذه في المسايفة، فقد كان يـريـد أن يتعلّم أيضـاً العـزف على القيثار.

ـ سوف تعلّمني، أليس كذلك يا زيه ـ الاربيان؟

ـ بالتأكيد سوف أعلمك...

وكان أنطونيو يحمل رسائل الحبّ إلى صديقاته الطيّبات، وكان يدافع عنه حين يساء الكلام عنه:

ـ إنه صديقي، لماذا لا تذهب وتقول له هذا الشيء بنفسك؟ أنت خائف، أليس كذلك؟ ولأجل هذا...

كان زيه ـ الاربيان من المعتادين على حضور الاجتماعات أمام باب لويزا العجوز. وكان يصل مترنّحاً بمشيته السوقيّة ويجلس مقعياً، وهو يسحب أنفاساً من سيجارة من القشّ. ولكن حين كانت تروى قصة مؤثّرة في المستمعين، كـان زيه يضـع سيجـارتـه وراء أذنـه، ويقول:

ـ باه! باه! هذا لا شيء، واسمعوا بالأصحّ قصة حدثت لي أنا شخصياً...

وهنا كانت تبدأ قصة لمغامرة، قصة محشوّة بتفاصيل لا يشكّك أحد في صحّتها. وحين كان يقرأ الشكّ في عيون الحضور، لم يكن الخلاسي يتراجع.

ـ إذا كنت لا تصدقني، يا صاحبي، فاسأل زيه فورتوناتو، الذي كان في هذه القصة معي.

كان يعثر دائماً على شخص «كان موجوداً معه»، على شاهد عيان لم يكن يكذبه. وحسب كلامه فقد كان متدخلاً في جميع حوادث المدينة. وإذا جرى الحديث عن جريمة ما، كان يقاطع المتحدث قائلاً:

إن هذا يخصّني، ولم أكن بعيداً جداً عن ذلك المكان.

كان يعطي روايته، التي كان يلعب دائماً فيها دوراً من المرتبة الأولى. ولكن عند اللزوم، كان يقاتل بالفعل. وقد كان لورانسو، صاحب محل البقالة، يعرف شيئاً ما عن ذلك؛ وبقيت له من ذلك ندبتان على وجهه. ألم يحاول، هذا الاسباني الخنزير، أن يطرد من حانوته زيه ـ الأربيان؟ كانت الفتيات اللواتي يسمعن غناء زيه، يثبتن عليه أنظارهن. كن يحببن حركاته كفتى شرّير، وشهرته في ادّعاء الشجاعة، وطريقته البارعة في رواية قصة ما، وهو يزيّنها بمقارنات معهنّ، مع ابتسامتهن، وعيونهن، وثغورهن القرمزيّة، لكنهن كنّ يحببن أكثر من كل شيء، سماعه وهو يغني مع القيثار بصوته المليء. وفي وسط الحديث، حين يكون أحد الحضور قد روى

قصة ما، والجميع صامتون، كانت ثمة دائماً فتاة تقول:

ـ غَنِّ لنا أغنية، يا زيه.

ـ لا يا جميلتي، فتبادل الحديث شيء ممتع جداً، هكذا كان يجيب، متظاهراً بالتواضع.

ـ لا تمانع، يا زيه، غَنِّ...

ـ لكنني نسيت قيثارتي في منزلي.

ـ لا يهم... بالدو سيذهب لإحضارها.

وهكذا ينطلق أنطونيو بالدوينو على الطريق نحو الكوخ الذي يسكنه زيه ـ الاربيان. لكن هذا كان يتابع تمنّعه.

ـ أنا اليوم غير قادر على الغناء. أرجو منكم المعذرة.

والآن كان الجميع يتوسّلون إليه في صوت واحد:

ـ غَنِّ لنا، يا زيه ـ الأربيان.

ـ حسناً، سأغني، ولكن أغنية واحدة فقط...

وغنى طائفة من الأغنيات، على ألحان **التيرانا، والكوكو، والسامبا،** وهي أغان حزينة، ذات أسى يُدْمِع العيون، كما روى حكايات عن مغامرات.

كان أنطونيو بالدوينو يسمع ويتعلم. تلك كانت هي الدروس التي كان يستفيد منها، والمدرسة الوحيدة التي عرفها وكذلك الأولاد الآخرون في الجبل الصغير. وهكذا كانوا يتربّون ويختارون مهنة.

وجاء يوماً رجل من الخارج فنزل عند دونا داريا، وهي خلاسية ضخمة الجسم كان يقال عنها إنها أخذت تجمع ثروة على حساب

زبائن جوبيابا. وكان ذلك الرجل قد جاء لاستشارة الساحر حول ألم قديم ما زال يحسّه في ساقه اليسرى التي كانت تؤلمه وتعذّبه كثيراً. وكان الأطباء قد تخلّوا عنه منذ زمن طويل. وكانوا يتلفظون بكلمات معقدة ويعيّنون له أدوية مكلفة. وكان ألمه يتفاقم ويزداد خطورة، وكانت ساقه تمضي من سيّىء إلى أسوأ، ولم يعد بوسعه العمل بسبب آلامه.

حينئذ قرّر أن يقوم بالرحلة وذلك فقط لاستشارة الأب مار جوبيابا، الذي كان يشفي جميع المرضى في كوخه في جبل خصي ـ الزنجي الصغير. كان الرجل قادماً من إلهيوس، مدينة الكاكاو الغنية، وكاد ينزل زيه ـ الأربيان عن عرشه في التقدير من قبل أنطونيو بالدوينو. وذلك الرجل، الذي كان قد شفي كلياً بعد جلستين في منزل جوبيابا، جاء في يوم الأحد التالي للمشاركة في الأحاديث عند باب العجوز لويزا.. وكان الجميع يعاملونه باحترام كبير، ذلك لأنه كان يقال إن لديه مالاً كثيراً، وأنه حقق ثروة **في جنوب الولاية** وأنه أعطى مبلغاً كبيراً لجوبيابا! كانت ملابس الرجل من القماش الجيّد، بل وقد جيء له برسالة ليقرأها، وكانت قد وصلت إلى السيدة ريكاردينا. لكنه أجاب:

ـ لا أعرف القراءة.

والحال، فقد كانت الرسالة تبلغ ريكاردينا أن أحد أشقّائها كان يموت جوعاً في مقاطعة **أمازونيا**. وأعطى رجل إيلهيوس مئة ميلريس. لذلك لم يقل أحد شيئاً حين اقترب الرجل من الجماعة المجتمعين قرب باب لويزا. بل إن هذه قد قدمت له كرسياً من القش مثقوباً.

ـ اجلس براحتك، يا سيد جيريمي.

ـ شكراً.

ولما امتدّ الصمت:

ـ عم كنتم تتحدثون؟

أجاب **لويس الاسكافي**: لكي أقول الحقيقة، فقد كنا نتحدث عن المال الذي لديكم، وعن كل النقود التي يمكن كسبها هناك.

خفض الرجل رأسه. وحينئذ فقط لاحظ الحضور أن شعره كان أبيض تقريباً، وأن وجهه مغضّن بتجاعيد كبيرة.

ـ ليس بمقدار ما قلت أنت... يجب العمل بمشقّة لأجل كسب القليل...

ـ ولكن أنت ذاتك، أليس لديك مال كثير؟

ـ أرجوك، لا! إن لديّ مزرعة صغيرة وأنا أعمل في ذلك البلد منذ ثلاثين عاماً. هذا بالإضافة إلى أنني تعرّضت لإطلاق النار عليّ ثلاث مرات. ولا أحد هناك بمنجاة من ضربة قذرة..

ـ هل أن ذلك لأن الرجال هناك شجعان؟

هكذا سأل أنطونيو بالدوينو. ولكن لم يسمع أحد سؤاله.

ـ اعلم أن ثمة الكثيرين هنا يريدون الذهاب معك.

ـ قل لنا، هل الرجال شجعان هناك؟ سأل انطونيو بالدوينو بإلحاح.

أمرّ الرجل يده على رأس الزنجي الصغير وقال للآخرين:

ـ إنه بلد خطر... الموت... والطلقات النارية.

كان أنطونيو ينظر إلى الرجل نظرة ثابتة، منتظراً قصصاً عن ذلك البلد.

ـ هناك، يقتلون للقيام بِرِهان... ويراهنون لكي يعرفوا كيف يسقط المسافر: إلى الجانب الأيمن أو إلى الجانب الأيسر... ويضع كل شخص نقوده... ويطلقون النار، فقط لرؤية من الذي سيربح.

أجال نظرته على الحضور، ليحكم على الأثر المحقق. ثم تابع قائلاً وهو يخفض رأسه:

ـ هناك زنجي قام بالطلقات الأربعمئة. وهو يسمى جوزيه إيستيك. شجاع إلى درجة لا تصدَّق. إنه الشجاعة مشخّصة في لحم وعظام. ولكن لا يوجد أشدّ منه خبثاً وشراً، أيضاً إنه آفة حقيقية.

ـ أهو قاطع طريقٍ؟

ـ كلا، إنه ليس قاطع طريق، لأنه صاحب مزرعة، وغنيّ. إن زيه إيستيك له مجموعة مزارع، وأشجار كاكاو لا تحصى. ولكنّ هناك عدداً من القتلى في ذمته أكثر من ذلك.

ـ ألم يتمَّ اعتقاله أبداً؟

غمز الرجل بعينه. وقال مبتسماً:

ـ اعتقاله؟ إنه غنيّ، أقول لكم.

كانت ابتسامته تعليقاً ساخراً. وراح الآخرون يتبادلون النظرات باندهاش. لكنهم فهموا بسرعة كبيرة، وظلّوا يصغون في صمت إلى رجل إيليهيوس.

ـ أتعلمون ماذا يفعل؟ إنه يصل على جواده إلى ايتابوناس.

وحين يرى مرور شخص مهم، يقفز إلى الأرض ويقول له: **افتح** جيبك، إنني أرغب في أن أتغوّط بداخله. ويطيع الآخر. حقاً، إن إيستيك هو رامٍ جيد.

في أحد الأيام كان داخلاً إلى **ايتابوناس**، حين التقى بشابة بيضاء، هي ابنة رئيس البلدية.

هل تعلمون ماذا فعل ايستيك؟

ـ خذي يا صغيرتي، أنا بحاجة لأن أبول... وكان يريد أن تمسك بما تعلمون.

ـ وهل أمسكت به؟ كان زيه ـ الاربيان يقهقه ضاحكاً.

ـ لقد كشّرت تكشيرة فظيعة. الطفلة المسكينة...

الآن كان جميع الرجال يضحكون، ويتعاطفون مع زيه ايستيك. وكانت الفتيات يخفضن رؤوسهن، وقد احمرّت وجوههن جميعاً من الخجل.

ـ لقد قَتلَ جماعة من الفتيات أو أساء إليهن. إنه رجل ماكر ومقدام.

ـ وماذا، هل مات؟

ـ لقد مات، على يد شخض أجنبي، نحيف الجسم...

ـ وكيف كان ذلك؟

ـ في أحد الأيام، جاء إلى ذلك البلد غرينغو [1] يقوم بتقليم

---

(١) الغرينغو Gringo، لقب يطلقه أهل المكسيك وأميركا اللاتينية على الأميركي الشمالي من الولايات المتحدة (هـ. م.).

شجيرات الكاكاو. وقبله لم يكن أحد يمارس التقليم. وقد كسب مالاً، واشترى مزرعة صغيرة. في ذلك الحين رحل مجدداً إلى بلده، لكنه رحل لكي يتزوّج هناك. وقد عاد مع امرأة بيضاء ـ تشبه تماماً دمية من الصيني الأبيض (البورسلان). وكـانـت أرض الغـرينغـو ملاصقة لمزرعة زيه إيستيك. وفي أحد الأيام، لدى مروره من هناك شاهد إيستيك المرأة وهي تنشر الغسيل. حينئذ قال لنيقولا:

ـ من هذه، يا نيقولا؟

ـ هذه زوجة الغرينغو.

فقال له إيستيك:

ـ أبق لي هذه الدمية هنا. وسآتي لأخذها هذا المساء.

أحس الآخر بالخوف، فذهب يروي القصة لأحد الجيران. فقال له الجار إنه يجب الرضوخ لذلك أو الموت، لأن «زيه ايستيك» ينفذ دائماً كلامه.

لقد قال إنه سيأتي لأخذها، وهو سيأتي بالتأكيد. الفرار؟ لم يعد ثمة وقت لذلك، ثم، إلى أين يذهبان، الغرينغو وزوجته؟

وكان الغرينغو نافد الصبر حين عاد إلى منزله. لم يكن يريد أن يتخلّى عن هذه المرأة الفائقة الجمال، التي ذهب وأحضرها من بلده. ولكن كان هذا يعني الموت المؤكّد، وفوق ذلك سيكون مصير زوجته بيد زيه إيستيك...

لم يعد الحضور يتمالكون أنفسهم، وكان زيه ـ الأربيان وحده يبتسم وكأنه كان يعرف قصة أكثر تأثيراً من قصة رجل إيلهيوس.

ـ إذاً، ماذا فعل؟

ـ في الليل، جاء زيه إيستيك... ترجّل عن جواده وبدلاً من أن يجد المرأة، وجد شيئاً آخر: كان **الغرينغو** مختبئاً وراء حاجز ومعه فأس كبيرة هكـذا... وانفلـق رأس الزنجي (المقصـود إيستيـك) قسمين... إنها نهاية قذرة.

ـ عمل جيد! إنه لم يسرقه.

ورسمت امرأة أخرى شارة الصليب؛ وقد ألمّ بها الخوف. وظلّ رجل إيلهيوس حتى ساعة متأخرة من الليل يروي قصصاً، وقصصاً أخرى عن عمليات قتل وطلقات نارية لكي يتحدث عن أرضه البطولية. وحين انصرف، وقد شفي تماماً، أحسّ الغلام انطونيو بالدوينو بالأسى. ذلك لأن الصبي كان يصغي إلى هذه القصص، في أمسيات جبل «الخصي الزنجي» الصغير ويتعلم أشياء عديدة. وقبل أن يبلغ العاشرة من عمره، أقسم في دخيلته على أنه سوف يتغنّى الشعراء باسمه في قصائدهم الشعبية، وأن مغامراته سوف تُروْى وتُسمع بإعجاب من قبل رجال آخرين، وعلى جبال صغيرة أخرى.

كانت شاقّة، هي الحياة التي يحياها أهل الجبل الصغير «الخصي ـ الزنجي». كان جميع أولئك الرجال يعملون بمشقة، البعض في المرفأ، يشحنون السفن ويفرغونها، أو يحملون صناديق الأمتعة على أعناقهم وأكتافهم، وآخرون يعملون في مصانع بعيدة جداً، أو في مهن صغيرة دون ربح كبير: اسكافيين، أو خياطين، أو حلاقين. وكانت الزنجيات يبعن **قطع الحلوى بالأرز**، ويأكلن **المانغنسا والساراباتيل والأكاراجيه**[1] في طرقات المدينة، الملتوية، أو كنّ يغسلن الغسيل،

(١) ثلاثة مآكل من الحلوى البرازيلية الخاصة بالبلد.

أو أنهن يعملن طباخات في دور الأغنياء بالأحياء الفخمة. وكان أغلب الأولاد يعملون هم أيضاً، كانوا مـاسحي الاحذية، أو خدماً، أو بائعي صحف. وكان البعض يذهب إلى منازل جميلة حيث تربيهم عائلات غنية. وكان الباقون ينتشرون على منحدرات الجبل الصغير، يلعبون ويتسابقون في الجري، أو يتعاركون، وهؤلاء، كانوا هم الأولاد الأفتى سناً. وكانوا يعرفون منذ وقت مبكّر ماذا سيكون مصيرهم: سيكبرون، ويذهبون إلى المرفأ حيث ستنحني ظهورهم تحت ثقل أكياس الكاكاو، أو لكسب معيشتهم في المصانع الضخمة. ولم يكونوا يتمرّدون، لأن الأمر هو كذلك منذ زمن بعيد. أما أولاد الشوارع الجميلة المزروعة بالشجر، فسيكونون أطباء، ومحامين، ومهندسين وتجاراً أغنياء، وهم، أي أولاد الفقراء يشتغلون أرقاء عبيداً لأولئك الرجال. ولأجل هذا كان يوجد جبل صغير مع سكانه. هذا ما عرفه الزنجي الصغير أنطونيـو بـالـدوينـو في وقـت مبكّر، بمثال الأولاد الذين يكبرونه سناً. وكما أنه يوجد في منازل الأغنياء تقاليد ترقى إلى العم والأب أو إلى الجد، المهندس الشهير، أو الخطيب الناجح، أو السياسي، كذلك ففي الجبل الصغير الذي يسكنه زنوج وخلاسيون، توجد تقاليد الرّق تحت سيطرة السيد الأبيض والغني. كانت هذه هي تقاليدهم الوحيدة. أما التقاليد الأخرى، تقاليد حريتهم في غابات افريقيا، فقد نسوها، أو أن هناك القليلين جداً الذين كانوا يتذكرونها، وهؤلاء كانوا يتعرّضون للإبادة أو للاضطهاد. وفي الجبل الصغير، كان جوبيابا وحده هو الذي يحتفظ بتلك التقاليد. وكانوا نادريـن، الرجـال الأحـرار في الجبل الصغير: جوبيابا، وزيه ـ الأربيان. وكـان الاثنـان مـوضـع

اضطهاد: أحدهما بصفته ساحراً، والآخر بصفته متشرداً. لقد تعلم أنطونيو بالدوينو أشياء كثيرة في قصص البطولة التي كان جوبيابا وزيه - الأربيان يرويانها لشعب «الجبل الصغير»، ونسي تقاليد العبودية. وقد قرر أن يكون في عداد الرجال الأحرار، أولئك الذين سوف يغنّي الشعراء بطولاتهم، والذين سيكونون مثلاً وقدوة للرجال، السود والبيض والخلاسيين، الغارقين في عبوديتهم التي لا علاج لها. وعلى الجبل الصغير الخصي - الزنجي قرر انطونيو بالدوينو النضال. وكل ما فعله فيما بعد، كان بسبب القصص التي كان يسمعها في أماسي القمر البدر عند باب عمته.

الغول الذئبي

كان ثمة امرأة تدعى أوغستا ـ الدانتيلا تسكن على الجبل الصغير قرب منزل لويزا. وكانت تسمى كذلك لأنها كانت تقضي نهارها وهي تصنع قطع الدانتيلا وتبيعها يوم السبت في السوق. وكان لها على كل حال زبائن كثيرون، لأنها كانت تعمل عملاً متقناً إلى درجة الكمال. كان نظر أوغستا شارداً. وكان يُظَنّ بأنها تثبت نظرها على شيء ما، ولكن لم يكن ذلك صحيحاً: بل كانت تبحث بعينيها في السماء عن شيء غير مرئي. لقد كانت معتادة على ارتياد حفلات السحر التي كان يقيمها جوبيابا، ومع أنها كانت بيضاء، لكنها كانت تتمتع بمهابة كبيرة لدى «الأب القديس». وكانت تعطي أنطونيو بالدوينو دراهم يستخدمها لشراء الكاراميل، أو أنه يعقد صفقة مع زيبيديه، لشراء علبة من السجائر الرديئة.

ونظراً لأنها وصلت في أحد الأيام إلى الجبل الصغير دون أن تقول من أين جاءت، ولا إلى أين هي ذاهبة، فقد كانت تبتكر قصصاً في صددها. واستقرّت في الجبل الصغير. ولم يكن أحد يعلم أي شيء عن حياتها، لكنّ نظرتها الشاردة وضحكتها الحزينة قد ولدت قصصاً حول حظوظ سيئة وغراميات فاشلة. وحين كانت تُطرَح عليها أسئلة، كانت تكتفي بالإجابة:

ـ إنها رواية حقيقية... حياتي. ويجب أن تُكْتَب.

وكان يحدث لها في كثير من الأحيان أن ترتبك حين كانت تقيس الدانتيلا (بطريقة بدائية على كل حال: كانت تضع يدها اليمنى التي تمسك بالقماشة تحت ذقنها، وتمدّ ذراعها اليسرى، وكانت تعد «واحد، اثنان، ثلاثة» ثم تتوقف، غاضبة ومضطربة: «ولكن لا، ليس عشرون. من الذي قال «عشرون؟» لقد وصلت في العد إلى «ثلاثة فقط». وكانت تنظر إلى الزبونة موضحة:

ـ لقد تشوّشت، ولا تستطيعين أن تفهمي المسألة. أكون آخذة في العد، حسناً، إنه يأخذ في العد هو أيضاً قرب أذني بسرعة كبيرة، بحيث يثير الخوف. وأكون عند الرقم ثلاثة، ويكون هو عند الـ «عشرين»، وما من حيلة معه.

وتأخذ في التوسل:

ـ اذهب عني، إنني أريد أن أبيع مخرّماتي كما ينبغي...

ـ لمن تقولين هذا، يا سيدة أوغستا؟

ـ أجل حسناً. من يمكن أن يكون؟ إنه هذا النذل الذي لا يتركني وشأني. وحتى بعد موتي سيظل يضايقني ويزعجني.

وفي مرات أخرى، كان الروح يقرر اللهو، ويضع خيطاناً بين ساقيها. وكانت تقف وسط الشارع وبصبر لامتناه، تأخذ في إزالة الخيوط واحداً واحداً.

ـ ماذا تفعلين، يا سيدة أوغستا؟ كان الناس يسألونها.

ـ أفلا ترون؟ إنني أنزع الخيطان التي يضعها هذا اللعين بين ساقي بحيث لا أستطيع السير ولا بيع مخرّماتي. إنه يريد أن يميتني جوعاً.

كانت تواصل سحب الخيطان غير المرئية. ولكن إذا ما سئلت

من هو الروح المعني، كانت أوغستا تلزم الصمت، شاردة النظرات، وتبتسم ابتسامتها الحزينة. وكانت النساء يقلن:

- إن أوغستا مختلّة العقل لأنها تألّمت كثيراً. وليست حياتها مبهجة.

- ولكن ماذا حدث لها.

- صه... لكل مشاكله.

إن أوغستا هي أول من التقى **بالغول الذئبي. ففي** ليلة المحاق، كان الظلام سائداً على الدروب الموحلة **للجبل الصغير**، وكانت مصابيح صغيرة وقليلة جداً تلمع وحدها في المنازل. إنه ليل مسكون، ملائم للصوص والقتلة. وكانت أوغستا تصعد على منحدر الجبل الصغير حين سمعت في دغلة العوسج زمجرة ترعش البدن. تطلعت ورأت العينين الناريّتين للغول الذئبي. وحتى ذلك الحين لم تكن تصدّق هذه القصص حول الغيلان الذئبية وبغلات الكهنة. لكنها هذه المرة رأت بأمّ عينها. تركت سلّتها الملأى بالمخرمات (الدانتيلا) وركضت بأقصى سرعتها إلى منزل لويزا. وأعلنت الخبر بحركات ذعر كبيرة، وبصوت مخنوق؛ وكانت عيناها جاحظتين خارج رأسها، وساقاها ترتجفان من شدّة الرّكض. وقدّمت لها لويزا كوباً من الماء لتشرب. فقبِلت أوغستا الكوب: «هذا جيّد لتهدئة الانفعال».

وسارع أنطونيو بالدوينو، الذي سمع كلام أوغستا، إلى نشر القصة. وسرعان ما علم الجميع بأن غولاً ذئبياً قد ظهر. وفي الليلة التالية، رأى ثلاثة أشخاص آخرون الوحش: امرأة طباخة كانت

عائدة من عملها، وريكاردو القباقيبي، وزيه ـ الأربيان الذي رمي الوحش بمديته، لكنّ هذا فرّ وهو يطلق ضحكة كبيرة. وفي الليالي التالية كان جميع سكان «الجبل الصغير» الآخرين يلتقون بذلك الوحش الذي كان يضحك ويركن إلى الفرار. حينئذ استولى الخوف على «الجبل الصغير» وكانت الأبواب تقفل في وقت مبكر، ولم يعد أحد يخرج في الليل. واقترح زيه ـ الأربيان القيام بحملة للقبض على الوحش، ولكن القليل من الناس أوتوا الشجاعة للموافقة على المسيرة. ولم يكن هناك سوى الزنجي الصغير بالدوينو الذي قبل السير بحماسة واختار حصوات مدببة جيداً لأجل مقلاعه. واستمرت أخبار الغول الذئبي تتوالى: لقد رأت لويزا شبحه في إحدى الأمسيات، حين كانت عائدة في ساعة متأخرة عن العادة، كما أن الشبح طارد بيدرو. وكان الجبل الصغير يعيش في قلق، ولم يكن لدى سكانه موضوع آخر للحديث سوى الغول الذئبي. بل وشاهد الناس شخصاً أرسلته الصحيفة لالتقاط صور فوتوغرافية. وظهر المقال في الجريدة في تلك الليلة نفسها، مؤكداً بأنه ليس هناك غول ذئبي، وأن ذلك كان اختلاقاً من قبل أهالي الجبل الصغير «خصي الزنجي». واشترى لورانسو البقال الصحيفة، ولكن لم يصدق أحد التفسير الوارد فيها: لقد شاهدوا الغول الذئبي. ثم إن الغول الذئبي كان موجوداً بالفعل. وكان الغلمان يقومون بتعليقاتهم بين دورتين من اللعب.

ـ قالت لي أمي إن الأولاد غير العاقلين هم الذين يصبحون غيلاناً ذئبية.

ـ هذا صحيح. إن أظافر الولد تطول، ثم يصبح غولاً ذئبياً في ليلة يكون فيها القمر بدراً.

أثارت الفكرة حماسة أنطونيو بالدوينو.

ـ هيا! هل نتحوّل إلى غيلان ذئبية؟

ـ افعل ذلك أنت، إذا كنت تريد، إنك ترغب في الذهاب إلى الجحيم.

ـ أنت نذل وجبان.

ـ ولماذا لا تقوم بذلك، إذاً؟

ـ حسناً، اتفقنا. كيف أفعل لأصبح كذلك؟

كان أحد الأولاد يعرف، فأوضح له:

ـ تترك أظافرك وشعرك تطول، وتكف عن الاستحمام، وتنظر إلى القمر البدر طوال الليل، وتلعب ضد عمتك أدواراً قذرة. وحين تذهب لمشاهدة القمر، سر على أربع قوائم...

ـ هل من الضروري السير على أربع قوائم؟

ـ أجل، لأجل الاعتياد.

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك. تتحول شيئاً فشيئاً. ويكسو جسمك الشعر، وتروح ترفس مثل الحصان، وتحفر الأرض بأظافرك. وفي أحد الأيام يحدث الأمر: تصبح غولاً ذئبياً. وتركض في كل مكان، وتخيف الناس.

انصرف انطونيو بالدوينو. لكنه في منتصف الطريق. استدار لكي يسأل:

ـ ولأجل «العودة» بعد ذلك، كيف أفعل؟

ـ والله لا أدري.

حاول انطونيو بالدوينو أن يتحول إلى غول ذئبي. وقد لعب أدواراً سيئة على العجوز لويزا. وناله ضرب شديد، وترك أظافره تطول ولم يعد يحلق شعره. وفي ليالي البدر، كان يذهب إلى عمق المنزل، ويركض هنا وهناك على أربع قوائم. ولكن عبثاً. وبدأ يفقد الشجاعة، ويمل من نكات رفاقه الذين كانوا يسألونه كل يوم عن موعد تحوله إلى غول ذئبي، حين خطرت له فكرة: وهي أنه لم يكن شريراً كفاية للتحول إلى حيوان. فقرر حينئذ أن يفعل ما هو أسوأ. وكان منذ أيام يجتر ما سوف يفعله، حين أبصر في مساء أحد الأيام حنة. وهي زنجية صغيرة لطيفة، كانت تلعب بدُماها. وكانت أمها تحضر لها دمى جديدة بلا انقطاع، دمى من خرق قماشية، تمثّل «ساحرات» بيضاً أو سوداً، وكانت تطلق عليها أسماء أشخاص تعرفهم. وكانت تصنع للدمى ملابس وتقضي يومها في اللعب بها، عند باب المنزل. وكانت تقيم احتفالات التعميد، والزواج. وكانت تلك أيام عيد عند سكان الجبل الصغير. وكانوا ما يزالون يذكرون الاحتفال الذي أقامته لأجل تعميد إيراسيما، وهي دمية من البورسلان أهداها لها إشبينها في عيد ميلادها. كان انطونيو بالدوينو قد أعدّ خطته تماماً حين خاطب حنة بصوته اللطيف الأكثر وداً:

ـ ماذا تفعلين يا حنة؟

ـ هذه دميتي، ولها خاطب...

ـ هذا جيد. ومن هو الخاطب؟

كان الخاطب قراقوزاً ملتوي الساقين.

ـ هل تريد أن تصبح كاهناً؟ ما كان يريده هو الاستيلاء على القراقوز.

وما نعت حنة، وأخذت تكشّر تكشيرةَ حزن.

ـ إذا أخذته فسأقول لماما. إليك عني.

أصبح صوت أنطونيو بالدوينو ألطف أيضاً، وابتسم وهو يخفض عينيه:

ـ دعيني آخذه، أرجوك، يا حنة.

ـ كلا، إنك تريد تحطيمه.

وشدت الدمية لقاء صدرها.

دبّ الخوف في نفس أنطونيو بالدوينو، مثل سارق قبض عليه بالجرم المشهود. فكيف أمكنها أن تحزر الأمر؟ أراد أن يتراجع، لكن حنة عادت إلى التكشير مجدداً، وكانت عيناها على أهبة ذرف الدموع. حينئذ لم يعد يمكنه أن يتمالك نفسه ومثل أعمى أو مثل شخص مهلوس، انقضّ على الدمى وكسر كل ما وقع تحت يده. تجمّدت حنة في مكانها، باكية بصوت مكتوم. وكانت دموعها تسيل بقطرات كبيرة، على خديها، وتسقط في فمها. كان أنطونيو بالدوينو يترصّدها، ساكناً هو أيضاً: وكان يجدها جميلة بعينيها المغرورقتين بالدموع. وفجأة تطلعت الزنجية الصغيرة إلى دماها المكسّرة وانفجرت في بكاء، مطلقة الصيحات. وظل بالدوينو هناك، ليتمتّع بهذه الدموع الصادقة. وتوجّب سحبه من هناك بالقوة. واستمرت الضربات التي تلقّاها، من باب منزل حنة حتى مطبخ منزله. وفي ذلك اليوم، لم يحاول تجنيب جسمه لذعات السوط. وظل ماثلاً أمام

عينيه وجه حنة، ودموعها. ثم ربط بأسفل الطاولة، وبعد قليل تلاشت المتعة. وحينئذ، نظراً لأنه لم يكن لديه ما يعمله، راح بمثابة لعب يقتل النمال. قال أحد الجيران: إنه غلام قذر وسينتهي مجرماً، كما أقول لكم.

لم يصبح أنطونيو غولاً ذئبياً، ولكن لأجل استعادة مكانته بين صبيان الجبل الصغير، هذه المكانة التي زعزعها بشدة ذلك الفشل، اضطر لقتال إثنين منهم، وفدغ رأس صبي ثالث. والغول الذئبي الآخر اختفى هو أيضاً، بفضل تعزيمة قام بها جوبيابا في وقت القمر البدر، من أعلى الجبل الصغير، وكان يرافقه جميع سكانه تقريباً. وصلّى الساحر وهو يهزّ غصناً صغيراً مورقاً، وأمر الحيوان بالذهاب، ثم ألقى بالغصن في الإتجاه الذي ظهر فيه الغول الذئبي، وعاد هذا من حيث أتى. ولم يعاود الظهور بعد ذلك أبداً لكنهم ظلوا يتكلمون عنه في الجبل الصغير. إن جوبيابا، الذي لم يكن أحد يعرف كم يحمل من السنين على كاهله، والذي كان يسكن الجبل الصغير قبل قدوم أي شخص آخر، أوضح لهم قصة الغول ـ الذئبي قال: «لقد سبق أن ظهر مراراً كثيرة، وقد قمت بترحيله مراراً كثيرة أيضاً... وهذا لا يمنع أن يعود وهو محكوم بالعودة طالما أنه لم يكفر عن الجرائم التي ارتكبها في هذا العالم. ولسوف يعود مراراً كثيرة أيضاً...

ـ ومن هو، أيها الأب جوبيابا؟

ـ ها! أنتم لا تعلمون...

إنه سيد أبيض، كان يملك مزرعة. حدث ذلك منذ زمن، زمن استرقاق الزنوج. وكانت مزرعته بالضبط حيث يسكن الناس الآن.

ألا تعلمون لماذا سمّي هذا الجبل جبل « الخصي الزنجي » أو « خصي الزنوج »؟ آه، إنكم لا تعلمون... حسناً، كان ذلك لهذا السبب. كان يريد أن يصنع عبيده أولاداً مع الزنجيات ليكون لديه عدد من العبيد أكبر. والعبد الذي لم يكن يصنع أولاداً، كان يأمر بخصيه. وقد خصى الكثيرين على هذا الشكل... إنه أبيض شرّير. ولهذا يُسمّى هذا الجبل الصغير جبل « الخصي آلزّنجي ». ويوجد فيه غول ذئبي. إن الغول الذئبي، هو السيد الأبيض. إنه لم يمت، وكان شريراً جداً: في إحدى الليالي أصبح غولاً ذئبياً، وراح يهيم في العالم ويفزع الناس. والآن، هو يبحث عن الموضع الذي كان فيه منزله على الجبل الصغير. وهو يريد أن يخصي الزنوج أيضاً. وهو يعتقد أننا ما زلنا أرقّاء.

ـ أجل، ولكن لم يعد هناك زنجيّ رقيق...

ـ ما زال يوجد زنوج أرقّاء، وبيض أرقّاء أيضاً، هكذا قال مقاطعاً رجل نحيف كان يعمل في المرفأ. وأضاف: جميع الفقراء ما زالوا أرقّاء وعهد الرقّ لم ينتهِ...

الزنوج، والخلاسيون، والبيض خفضوا رؤوسهم. وظل أنطونيو بالدوينو وحده رافع الرأس. إنه لن يكون عبداً رقيقاً، من جهته.

في إحدى المرات، إبّانَ الليل، عكّرت صرخات متألمة « النجدة النجدة » هدوء الجبل الصغِير. فتحت المنازل، وخرج الرجال والنساء إلى الشارع، وعيونهم متضخّمة من النوم. كانت الصيحات قادمة من منزل ليوبولد. لكن الصيحات كانت قد كفّت، ولم يعد يُسمع سوى أصوات أنين مخنوق. واندفع الناس نحو تلك الجهة. كان الباب

المصنوع من ألواح خشبية مفتوحاً، وقد تحطّم مزلاجه. وفي داخل المنزل، كان ليوبولد يتخبّط منازعاً، وفي صدره طعنتان بمدية. وكان الدم يشكل بركاً حوله. وحاول أن يتشبّث بشيء ما، ثم سقط لكي لا يقوم بعد ذلك. كان سيل من الدم يخرج من فمه ووضع له أحدهم شمعة بيده. كان الحضور يتكلمون بصوت منخفض. وبدأت امرأة تتلو صلاة المتحضَرين. ثم، شيئاً فشيئاً. امتلأ المنزل بالناس.

كانت هذه أوّل مرة يدخلون فيها إلى منزل ليوبولد. وكان يرفض أن يستقبل أياً كان. ولم تكن له علاقات البتّة، وكان يجتنب أية علاقة حميمة، ولم يقم بزيارة أحد منذ أن سكن في الجبل الصغير. وقد ذهب مرة فقط إلى منزل جوبيابا، وظل هناك ساعات طويلة؛ ولكن لم يعرف أحد ماذا قال ليوبولد للأب القديس. كان ليوبولد يحترف النجارة. ويشرب الخمر بكثرة. وحين كان يأخذ في الشرب في حانوت لورانسو، كان يغدو أكثر اكتئاباً، ويضرب بقبضته بشدة على مكان المحاسبة. وكان أنطونيو بالدوينو يخافه، وقد ازداد خوفه حين شاهد جثة ليوبولد مع طعنتي السكين في الصدر. ولم يُعْرَف أبداً من هو القاتل. وبعد ذلك بعام. كان بالدوينو يركض على منحدرات الجبل الصغير حين اقترب منه رجل ذو وجه مريض، يلبس بنطالاً ممزقاً ويعتمر بقبعة مدورة، وسأله:

ـ قل لي، يا صغير، هل يوجد هنا شخص يدعى ليوبولد؟ إنه زنجي طويل القامة ذو هيئة جدية...

ـ أعرفه... لكنه لم يعد هنا، يا سيدي...

ـ هل انتقل من منزله؟

ـ كلا . لقد مات .

ـ مات ؟ بأي شيء ؟

ـ بطعنة مدية .

ـ هل اغتيل ؟

ـ أجل ، يا سيدي .

ونظر إلى الرجل .

ـ هل هو قريبك ؟

ـ من يدري ؟ قل لي ، أين هي طريق المدينة ؟

ـ ألا تريد أن تصعد إلى فوق ؟ سيكون بوسع عمتي أن تقول لك أكثر ، ثم سأدلّك على المنزل الذي كان يسكن فيه ... إن زيكا هو الذي يسكن المنزل الآن .

سحب الرجل من بنطاله الممزّق قطعة بعشرة فلوس وأعطاها لبالدوينو .

ـ اسمع ، أيها الغلام ، إنه لو لم يكن قد مات ، لكان مات اليوم .

وعاد نازلاً على الطريق دون أن ينتظر الردّ . وركض أنطونيو بالدوينو وراء الرجل : « ألا تريد أن أدلّك على طريق المدينة » ؟ لكنّ الرجل لم يلتفت . ولم يرو أنطونيو بالدوينو لأحد عن هذا اللقاء ، لشدة ما أخافه . وظلّت صورة الرجل المثقوب القبعة تطارده زمناً طويلاً في أحلامه . كان يبدو أنه قادم من بعيد ، وكان متعباً . وفكر أنطونيوبالدوينو في أن الرجل ربما كانت عينه مفقورة .

مرّ عام وعامان وثلاثة . وظلت حياة الجبل الصغير هي ذاتها ، والسكان أيضاً . لم يكن شيء يتغير ، باستثناء حالات صداع لويزا ،

التي كانت تتزايد باستمرار. وأصبحت حالات الصُّداع هذه شبه يومية، وكانت تستولي عليها منذ أن تعود من بيع مآكلها في الليل. كانت تأخذ في الصياح، وتطرد الجيران. وكان جوبيابا يأتي فكان يلزمه وقت أطول باستمرار لكي يشفي أوجاع لويزا. وكانت العجوز تصبح مضحكة تماماً: فكانت تأتي من الشارع غاضبة، مزمجرة، وتغضب لأي سبب، وكانت تضرب بالدوينو بسبب أشياء تافهة، ثم حين كان يهدأ ألمها، كانت تأخذه، وتضعه على ركبتيها، وتحكّ رأسه بلطف لكي تُنيمه، وتبكي بصوت منخفض، وتطلب المعذرة.

كان أنطونيو بالدوينو ينذهل تماماً لذلك، ولم يعد يفهم أي شيء من الأمر. إن نوبات غضب عمته وحنانها كانت تبدو له عبثيّة، لا سبب لها ولا منطق. وبين حين وآخر، كان يتوقف عن اللعب ليفكر في عمته. كان يحزر أنه سيفقدها عما قريب، وكان قلبه الطفولي يفيض بالحب والبغضاء ويعتصره الهم.

كان المساء يهبط، مظلماً ومكسواً بالسُحُب. ومع الليل، هبت ريح ثقيلة وفظة، كانت تمسك بمخانق الناس، وتصفر في الأزقة. وحتى ساعة الأضواء ظل يركض مع الغلمان على منحدرات الجبل الصغير، وهبت الريح على نساء - **الدرب المسدود** ودرب **الأزهار** ودرب **ماري السلام**، وأثارت سحباً من الغبار، واجتاحت المنازل وحطّمت الأواني. وحين ظهرت الأضواء، وأخذ مطر شديد يهطل، واندلعت عاصفة لم ير مثلها منذ زمن طويل كانت المصابيح تنطفيء، ولم يعد يسمع أي صوت. وانحبس أهل الجبل الصغير في أكواخهم الزريّة. وكانت لويزا تتأهب للخروج. وكان أنطونيوا بالدوينو يقتل النمال في زاوية الحجرة. وقالت له عمته:

« بالدو ، تعال وساعدني » . وساعدها في وضع صندوق من التنك على الطبق الذي رفعته ووضعته عل رأسها . وأمرّت براحة يدها على وجه أنطونيو بالدوينو ، واتّجهت نحو الباب. ولكن قبل أن ترفع المزلاج، ألقت الطبق على الأرض في حركة غاضبة جداً، ومعه العلب، وراحت تصرخ :

ـ لن أعاود الذهاب...

ظلّ أنطونيو بالدوينو صامتاً من الذهول.

ـها !ها ! إني لن أذهب إلى هناك، وليذهب من يريد . ها ! ها !

ـ ما الأمر ، يا عمتي ؟

كانت المآكل تسيل على قرميد الأرض. وهدأت لويزا ، وبدلاً من أن تجيب ، راحت تروي قصة طويلة جداً تحدثت فيها عن امرأة كان لها ثلاثة أولاد ، أحدهم نجار ، والآخر بنّاء ، والثالث حمّال. ثم أصبحت المرأة راهبة. وروت لويزا قصة الأولاد الثلاثة. ولم يكن للقصة رأس ولا ذَنَب ، لكنّ انطونيو لم يستطع كتم ضحكه مرة على الأقل، حين سأل النجار الشيطان :

ـ ماذا فعلت بقرنيك ؟

ـ لقد أعطيتهما لأبيك .

حينئذ ألقت لويزا ، التي كانت قد وصلت إلى أهم موضع من هذه القصة ، نظرة على أواني المآكل، التي تحتوي على « المانغنسا » و« المانجو » . وقفزت وأخذت تغني بصوت ضعيف :

لن أذهب بعد الآن

لن أذهب.

لن أذهب بعد الآن.

عاد إلى أنطونيو خوفه، وسألها إذا كانت تحسّ بوجع في الرأس. لكنها نظرت إلى ابن شقيقـها بهيئة غريبة إلى حد أنّ هذا لجأ إلى تحت الطاولة.

ـ من أنت؟ آه، إنك تريد أن تسرق المآكل، يا أزعر! انتظر قليلاً، وسوف أعلّمك.

وركضت وراء الولد الذي انطلق إلى الشارع وظل راكضاً حتى وصل إلى منزل جوبيابا. لم يكن الباب مقفلاً، فدفعه الصبي ودخل. كان جوبيابا يقرأ في كتاب قديم.

ـ ماذا هناك، يا بالدو؟

ـ أيها الأب جوبيابا! أيها الأب جوبيابا!

لم يعد الغلام يستطيع الكلام. واستعاد أنفاسه، وراح يبكي.

ـ ما الأمر، يا بنيّ؟

العمة لويزا، أخذتها النوبة. كانت العاصفة شديدة في الخارج، وعنيفة. وهطل المطر بغزارة. لكن بالدوينو لم يكن يسمع شيئاً، لم يكن يسمع سوى صوت عمته وهي تسأله من هو، ولم يكن يرى سوى عينين غريبتين، عينين لم يسبق أن رآهما لأحد. وركض الشيخ والغلام تحت العاصفة، بالرغم من المطر الذي كان يهطل والريح التي كانت تصفر. ولم ينبسا ببنت شفة. وكان منزل لويزا قد امتلأ بالجيران حين وصلا إليه. وكانت امرأة تقول لأوغستا ـ الدانتيلا:

ـ لقد ألمّ بها هذا لكثرة ما حملت علب الطعام على رأسها... وأنا

أعرف امرأة أخرى أصابها الجنون لهذا السبب...

انخرط انطونيو بالدوينو في البكاء. ولم تكن أوغستا ـ الدانتيلا موافقة على رأي الجارة. لقد ركبَ لويزا روح ما، وهو شرّير أيضاً. وسترين أن جوبيابا سيحرّرها منه على الفور.

كانت لويزا تغني بأعلى صوتها، وتطلق قهقهات ضحك، وكان زيه ـ الأربيان، الذي يرافق العجوز لويزا، يوافق على كل ما قالته أوغستا ـ الدانتيلا. واقترب جوبيابا، وبدأ يعزّم المجنونة. وأخذ أنطونيو بالدوينو إلى منزل أوغستا، لكنه لم يستطع أن يغمض عينه للنوم. كان يسمع ضحك عمته وغناءها، مختلطين بدويّ العاصفة وبصوت المطر والريح. وراح يبكي بصوت عالٍ.

في اليوم التالي، جاءت سيارة من المستوصف. واستولى رجلان على العجوز وساقاها إلى ذلك المستشفى. وكان انطونيو متعلقاً بها. كان يريد منعهم من أخذها. وحاول أن يوضح: «لا يوجد أي داعٍ، المسألة بسيطة. إنه صداع في الرأس فقط. الأب جوبيابا سوف يشفيها». وكانت لويزا تدندن بأغان، غير مبالية بأي شيء.

عضّ أنطونيو يد الممرّض، ولم يتركها إلاّ حين أخذ بالقوة إلى منزل أوغستا. وحينئذ، أصبح الناس لطفاء جداً معه. وجاء زيه ـ الأربيان للتحدّث معه، وليتكلم عن المسايفة والقيثارة: وأعطاه لورانسو البقّال قطع كراميلا، وكانت الست أوغستا تردّد: «الصغير المسكين، آه للصغير المسكين!». وجاء جوبيابا هو أيضاً، وعلّق في عنق الغلام حرزاً:

ـ هذا لكي تكون قوياً وشجاعاً: إنني أحبك كثيراً.

ظلّ الغلام بضعة أيام في منزل أوغستا. لكنها، في صباح أحد الأيام، ألبسته أفضل ثياب، واقتادته بيده. وسألها إلى أين هما ذاهبان.

ـ سوف تسكن الآن عند عضو البلدية بيريرا. وهو الذي سوف يتولّى تربيتك.

لم يقل أنطونيو بالدوينو شيئاً، لكنه أيضاً فكّر في الفرار. والتقيا بجوبيابا قرب المنحدر. وقبّل أنطونيو بالدوينو يد الساحر الذي قال له:

ـ حين ستكبر، عد إلى هنا. حين تصبح رجلاً.

كان الصبيان جميعاً في الشارع ينظرون. وودعهم بالدوينـو بحزن وأسى. ثم نزل.

ومن أسفل، كان لا يزال يرى جوبيابا، جالساً على مرتفع الجبل الصغير، وقميصه يخفق في الهواء، وفي يده غصن صغير مورِق.

★ ★ ★

ممر « زومبي أشجار النخيل »

طريق عتيقة، محاطة عن جانبيها بمنازل قذرة ذات لون لا يمكن تحديده. وكانت تمتدّ في خط مستقيم، بدون التواء.

ولكن على مقدم المنازل، التي تميل منحرفة، كانت الأرصفة تصعد، وتهبط، وتتقدم على الجادّة، أو تتراجع خائفة، نحو الأبواب. إنه شارع سيّىء التبليط، بحجارة مكشوفة الأصل، كان ينبت خلالها العشب البرّيّ.

كان الصمت والرقاد يفعمان جميع الأشياء، ويرشحان من كل مكان. كانا يسقطان من الهواء، ويغمران الشارع والكائنات. وكأنما كان الليل يجيء بوقت أسرع بالنسبة إلى ممر « زومبي أشجار النخيل » منه إلى سائر أنحاء المدينة.

والبحر نفسه الذي كان يضرب صخور الشاطىء، هناك، لم يكن يتمكّن من إيقاظ الزقاق. وكان الزقاق يرقد مثل فتاة مسنّة، هجرها خطيبها من أجل العواصم النائية. شارع حزين. وزقاق محتضَر.

ما كان أقدمها، هذه المنازل، وهذه الحجارة المكشوفة الأصل!

إنها قديمة، مثل الزنجية العجوز التي كانت تسكن أكثر هذه الأكواخ الزريّة سواداً: بحركات أمومية، كانت تعطي الزنوج الصغار

قروشاً لشراء مربّى جوز الهند، وتقضي كل نهارها وهي تمصّ غليوناً من الصلصال، مهمهمة بكلمات غير مفهومة.

عند مدخل الشارع كانت داران جميلتان متقابلتان. وباقي البيوت كان يقوم في دور منخفضة، يبرز منها هنا وهناك مبنى ذو ألوان باهتة، يتكدّس فيه العمال.

وكانت عمارتا الزاوية، وإن كانتا قديمتين، لا تخلوان من مظهر حَسَن. والبناية اليمنى كانت مأهولة بعائلة أصيبت بنكبة كبيرة. فمنذ مقتل الابن، كان ذووه يعيشون منعزلين، ولا يظهرون أبداً في النوافذ، ولا يتخلّون عن ملابس الحداد الكبير. وحين كانت نافذة تفتح مصادفة، كان يمكن رؤية صورة وجهية ضخمة في الصالون، تمثل شاباً أشقر في الزِّيّ.

في الطبقة الأولى، كان ثمة شرفة، وفي هذه الشرفة، فتاة شقراء، ترتدي اللباس الأسود. وكانت تقرأ كتاباً أصفر الغلاف، وتلقي قروشاً من النيكل لأنطونيو بالدوينو.

كل يوم بعد الظهر، كان يرى من عمق الشارع مجيء فتى وسيم. كان يصفّر بلطف لاجتذاب انتباه الصبيّة. حينئذ كانت تنهض، وتأتي لتستند باسمة إلى حافة النافذة. وكان الفتى الوسيم يذرع الطريق ذهاباً وإياباً تحت النافذة، ويحيي ويبتسم، ويأخذ من عروة سترته زهرة قرنفل حمراء، كان يقبّلها، ويرميها خلسة، وكانت الفتاة تلتقطها على الطائر ساترة عينيها بيدها الطليقة. كانت تشد القرنفلة

الحمراء بين قصيدتين[1]، وتشير بإيماءة وداع. كان الشاب الغَزِل ينصرف ويعود في اليوم التالي. وفي أثناء ذلك، كانت الفتاة تلقي بقطعة نقود إلى الزنجي الصغير الذي كان في الشارع الشاهد الوحيد على هذه الغراميات.

وفي البناية المقابلة كان يسكن «**الآمر**». وكانت أوزّات تخطر في الحديقة المزهرة، وممشى محاط بشجيرات المانغا يلاصق المنزل.

لقد اشترى «**الآمر**» هذا المنزل وحديقته لقاء لقمة خبز في الزمن السعيد: «إنه حظّ ونعمة غير متوقعين!» كما كان يحب أن يقول يوم الأحد، بعد أن يقوم بجولة في الحديقة، ثم يذهب ليتمدّد في سريره المعلّق كأرجوحة في عمق الباحة. كان يسكن هناك منذ أعوام، منذ بدايات غناه وربما كان يحب أعماق هذه الثكنة الكبيرة الفارغة ثلاثة أرباعها، في زاوية الممر الهادىء.

الهادىء.

أنطونيو بالدوينو هو الذي فتح عينيه بدهشة أمام أبعاد هذا المنزل واتساعه! ولم يسبق أبداً للصبي أن رأى منزلاً مماثلاً. فعلى الجبل الصغير «الخصي - الزنجي» كانت الجدران مصنوعة من التراب المدكوك، والأبواب من حطام الصناديق، والسقوف من الصفيح المموّج. وكان كل منزل يتألف من حجرتين: إحداهما للطعام، والأخرى للنوم. لكن منزل الآمر كان شيئاً آخر! وما كان أكبره! وما أكثر حجراته! بل وكانت فيه ثمة غرف لا تُفْتَح أبداً، وهناك

---

(١) يقصد الكاتب أن الفتاة وضعت القرنفلة ضمن مجموعة شعرية كانت تقرأها. (هـ. م).

حجرة معدّة، بكامل أثاثها، للضيف الذي لم يكن يأتي أبداً، وقاعات هائلة الحجم ومطبخ جميل، ومراحيض أكثر إراحة هي وحدها من أي منزل على الجبل الصغير!

حين وصلت أوغستا ـ الدانتيلا والزنجي الصغير متعبين كلاهما من الطريق الطويل القائم بين الجبل الصغير «الخصي الزنجي» وممر «زومبي أشجار النخيل»، كانوا يتغدون في منزل «الآمر». وكانت تُشَمُّ رائحة التتبيل على الطريقة البرتغالية. وكان «الآمر» بيريرا يرأس الاحتفال العائلي. وحين دخلت أوغستا، ممسكة الزنجي الصغير من يده، رفع هذا عينيه ورأى ليندينالڤا فوراً.

في آخر المائدة كان «الآمر»، وهو برتغالي أثيث الشاربين، وإلى جانبه كانت تجلس زوجته، البدينة مثله تقريباً. وكانت تجلس قرب والدتها، لاندينالڤا، النحيفة جداً، مع بعض بقع النمش على وجهها، وشعر أصهب، وفم صغير، وكانت تشكّل قرب أمها تضاداً مضحكاً جداً. لكن أنطونيو بالدوينو، الذي اعتاد على مشاهدة الزنجيات الصغيرات السيئات الغسل في الجبل الصغير، وجد أن لاندينالڤا تشبه التماثيل الصغيرة على الزخارف التي كان لورانسو البقال يوزّعها لدى ممارسته فروض العبادة في عيد الميلاد.

لم تكن البتة أكبر منه جسماً، وإن كانت تكبره بثلاث سنوات. خفض الزنجي الصغير عينيه وثبّتها على أرض الغرفة المدهونة، والملأى برسوم معقدة.

رحّبت دونا ماريا بالزائرين:

ـ اجلسي، أيتها السيدة أوغستا.

ـ أنا جيدة هكذا، يا دونا ماريا.

ـ هل تغديتم؟

ـ ليس بعد...

ـ إذن تعالي.

ـ سوف آكل لقمة في المطبخ، والأمر غير مستعجل...

كانت أوغستا تعرف أين هو موضعها، وماذا يعني الكلام.

حين أنهى الآمر علك ما بقي في فمه من الطعام، ألقى بشوكته على المائدة وصاح باتجاه المطبخ.

ـ أميلي، التحلية!

حينئذ قالت أوغستا:

ـ لقد أحضرت الصغير الذي حدّثت عنه السيد...

نظر الآمر وزوجته وابنته إلى أنطونيو بالدوينو.

قال الآمر ـ آه! إنه هو،تعال إلى هنا، أيها الولد المبارك.

اقترب أنطونيو بخجل، متوقعاً منذ البدء كيف سيفلت من يدي البرتغالي الثقيلتين. وسأله هذا:

ـ ما اسمك؟

ـ أنطونيو بالدوينو.

ـ هذا اسم لا نهاية له. من الآن فصاعداً سوف تدعى بالدو.

ـ هكذا ينادونني في الجبل الصغير. وقالت أوغستا للآمر:

ـ إذاً يريد السيدَ تماماً هذا الولد ليجعل منه رجلاً؟

ـ أجل والله.

ـالسيد طيب جداً»... هذا المسكين الصغير فقد أباه وأمه... ولم يعد له كعائلة سوى العمة. وقد جُنَّت المسكينة.

ـ وكيف حدث هذا ؟

ـ في رأيي إنه روح ركبها وسبّب لها الجنون... إنه الروح الشرّير... وهو لن يتركها عما قريب... إنني أعرف هذا...

زمّ أنطونيو فمه، وكأنه مقبل على البكاء. وداعب «الآمر» شعر الغلام القصير والمجعّد :

ـ لا تخف. فنحن لن نأكلك. وقالت دونا ماريا لأوغستا :

ـ وفي صدد الروح، كيف هو الروح الذي يركبك ؟

ـ آه! يا دونا ماريا، لا تحدّثيني عنه! الأمر يزداد سوءاً ويخيَّل إليّ الآن أنه سكران، إنه ثقيل جداً بحيث ما عدت أستطيع تحمّله. إنه يقتلني.

ـ ولماذا لا تذهبين إلى «القداس» ؟

ـ إذا كنت أذهب إلى القداس؟ أذهب كل يوم سبت. إن الأب جوبيابا يطرده جيداً، لكنه يعود. إنه عنيد.

ـ هذا هو «قداس» الساحر، **الماكومبا**. ويجب أن تذهبي إلى «القداس» الحقيقي. وهناك واحد جيد جداً، يقام على شاطىء «القديس ميشال».

ـ لا، يا دونا ماريا! فإذا لم يستطع الأب جوبيابا طرده، فمن الذي سيطرده؟ ثم إنني لست أبالي. ما عدا أنه يسبب لي مشاكل. إنه سكران. كما أقول لك. والأصح أن تنظري أنت: إنني هنا؛ وأنا مُتْعَبَة لدرجة لا يمكن أن تتصوّرها سيدتي. حسناً، إنه قد تسلّق إلى هنا، على عنقي، وهو له ثقل مخيف...

واستدارت نحو «الآمر» :

سوف يعوّض الله عليك ، يا سيّدي الآمر، الإحسان الذي تقدّمه للصغير. وسيمنحك الله الصحة لك ولكل العائلة.

ـ شكراً، يا ست أوغستا... والآن خذي الصغير إلى المطبخ، وقولي لأماليا أن تطعمه.

وعند هذا، انقضّ الآمر على مربى **الكاجو**. وأضافت دونا ماريا قائلة: وأنت أيضاً، يا أوغستا، كلي شيئاً ما.

في المطبخ اهتمت أميلي بالزائرين. وفي حين كانوا ثلاثتهم يأكلون، روت أوغستا للطباخة بلهجة مؤثرة قصة أنطونيو بالدوينو. وكانت الطباخة تمسح دموعها بوزرتها، وكفّ أنطونيو عن الأكل، حين وصل الحديث إلى جنون عمته، انخرط في البكاء.

وبعد أن باعت أوغستا مخرماتها تركت أنطونيو:

ـ من حين إلى حين، سآتي لزيارتك.

وحينئذ فقط أدرك الزنجي الصغير أنه انفصل عن الجبل الصغير، وأنه انتُزع من الموضع الذي ولد فيه، وحيث تعلم أشياء كثيرة. وأنه قد سجن، هو الأكثر حرية بين مجموعة الأولاد الصغيرة، سجن في منزل **سيّد**.

وهذه المرة، لم يبك. وتفحّص المنزل، وفكّر في الفرار.

ولكن حين جاءت ليندينالڤا تبحث عنه لأجل اللعب، نسي هذا المشروع. وبنى منزلاً للقطّ الطويل الشعر، الأثير لدى البنت الصغيرة، وركض معها في باحة المنزل، ووثب إلى أعلى غصن في شجرة الغوافة لقطف الثمار التي تحبّها. ومنذ ذلك اليوم أصبحا

صديقين.

ثم بدأت المتاعب. لقد فوجىء وهو يدخّن، وتلقّى ضربات من الطباخة. وثار. إن بوسع عمته أن تضربه، وهو لا يبالي بذلك. أمّا الطباخة، فلا!

كذلك حين كان يتلفظ بكلمات بذيئة - وكان لا يحرم نفسه من ذلك - كانت أميلي تصفعه بكل قوتها على فمه. وقد أبغضها، هذه البرتغالية، وكان يمدّ لها لسانه، حين تستدير على عقبيها.

بيد أن الآمر كان طيّباً معه. بل ووصل في طيبته إلى حدّ إرساله إلى مدرسة «ساحة الناصرة». وتولّى أنطونيو بالدوينو دفعة واحدة قيادة جميع الأعمال الصاخبة. ولم يلبث زمناً طويلاً حتى طرد من المدرسة بصفته لا يمكن إصلاحه. وكانت أميلي تقول لدونا ماريا:

- الزنوج هم بذرة العبيد. الزنوج ليسوا مصنوعين للتعلّم.

لكن أنطونيو بالدوينو أصبح يعرف ما هو ضروري. كان يستطيع أن يقرأ جيداً الأغنية المكرّسة لأي قاطع طرق شهير، وحوادث الجرائد. وحين يكون على وفاق مع أميلي، كان يقرأ لها عن جميع الجرائم التي تحدث في العالم الشاسع.

هكذا كانت حياته موزّعة بين صداقة ليندينالڤا، التي كان إعجابه بها يزداد أكثر فأكثر، وعداوة أميلي التي كانت تشكو يومياً لدونا ماريا من «زعرنات هذا الزنجي القذر»، والذي كانت تضربه بوحشيّة، ولكن خلسة.

كان يتسقّط أنباء الجبل الصغير بواسطة أوغستا، التي كانت تأتي كل شهر لبيع الدانتلا إلى دونا ماريا. وحينئذ كان يحسّ بالأسف على

الحياة الحرة.

في يوم أحد، جاء جوبيابا إلى منزل الآمر. وجرى حديث في الصالون، وبعد ذلك تلقّى أنطونيو بالدوينو الأمر بأن يرتدي أفضل بذلة لديه.

أخذه جوبيابا معه، وصعدا إلى ترام. استعاد الزنجي الصغير المدينة: كان يتنشّق بقوة هواء الشوارع، رائحة الحرية التي يحبّها. ولم يفكر حتى مجرد تفكير في أن يسأل جوبيابا إلى أين يقوده. ثم إنه كانت لديه ثقة كبيرة في «الأب القديس» الذي كان يلبس في يوم الأحد ذاك سترة قديمة، وقبعة مضحكة تعلو قمة شعره. وأخيراً نزلا من الترام، وسلكا شارعاً واسعاً، ودخلا تحت بوابة كبيرة كان يحرسها خفير. واعتقد أنطونيو بالدوينو أنه سوف يصبح جندياً، وابتسم بلذّة. كان ذلك هو حلمه: أن يكون جندياً. وأن يلبس الزيّ العسكري، وينزّه خلاسيات في الحدائق العامة. لكنه سرعان ما صحا من الحلم. ففي الباحة الداخلية لمبنى رمادي، ذي نوافذ محجوزة بالقضبان الحديدية، يشبه السجن، ولم ير جنوداً، بل رأى نساء ورجالاً، يلبسون الزيّ نفسه، ويسيرون بهيئة شاردة، ويحدّثون أنفسهم، أو يرسمون حركات في الهواء. وأخيراً اقتاده جوبيابا إلى قرب العجوز لويزا التي كانت تردّد بصوت ضعيف:

لن أذهب بعد الآن

لن أذهب

لن أذهب بعد الآن

ووجد أنطونيو بالدوينو صعوبة في التعرف إليها، لشدّة ما أصبحت هزيلة، عظميّة، مع عينين جاحظتين وسط وجه مستنزف

الدماء. وقبّل يد العجوز، التي نظرت إليه نظرة. لامبالاة.

ـ يا عمة، هذا بالدوينو.

ـ آسمعني جيداً، يا أزعر. إنكم تريدون أن تسرقوا مآكلي، أنتم الآخرين». لقد جئت لتسرقني، أليس كذلك؟ واعتراها الغضب.

ثم عاودها اللطف بعد قليل لتعود إلى أغنيتها الرتيبة:

لن أذهب بعد الآن

لن أذهب.

لن أذهب بعد الآن...

ثم كانت ساعة العودة. ونظر بالدوينو مرة أخيرة إلى هذا البناء الكئيب الذي يشبه السجن. وفي الترام، سأله جوبيابا إذا كان ما يزال يحتفظ بالتعويذة التي أعطاه إياها. فتّش بالدوينو تحت قميصه، وأخرج التعويذة.

ـ حسن، يا صغير. يجب الاحتفاظ بها. وهي ستجلب لك الحظّ...

وقبل النزول، أعطى عشرين فلساً للغلام.

لم يعد إلا مرة واحدة إلى المستشفى. وكان جوبيابا يرافقه ولكن هذه المرة للسير في مأتم دفن لويزا العجوز. وقرب نعش الفقراء، رأى الزنجي الصغير جميع الوجوه الأليفة. وكان الجميع طيبّين جداً معه، والجميع عانقوه وقبّلوه. وبكى البعض. ومضوا جميعاً نحو المقبرة حيث ألقى بالدوينو التراب على الجثمان. ثم تركت العجوز لويزا. وأنطونيو بالدوينو هو وحده الذي حفظ ذكراها في قلبه الصغير حيث أصبح يوجد، إلى جانب الحب الكثير، كثير من البغضاء.

ولدى العودة من الدفن، روى له جوبيابا، لأجل تسليته عن أفكاره الحزينة، قصّة ممر «زومبي أشجار النخيل».

ـ هذا الشارع يسمى «زومبي أشجار النخيل» أليس كذلك؟

ـ بلى يا سيدي.

ـ ألا تعرف من يكون زومبي هذا؟

ـ كلا؛ كان بالدوينو، الشديد الحزن، يفكر في مشاريع جديدة للفرار، وبادىء بدء لم يمنح القصة إلا القليل من الانتباه.

ـ منذ زمن طويل، طويل قبل الآن... حين كان الزنجي عبداً رقيقاً...

كان «زومبي أشجار النخيل» زنجياً عبداً. وكان الزنجي العبد يعيش حياة صعبة وقاسية. كان زومبي يُضْرَب، هو أيضاً. ولكن هناك، حيث ولد، لم يكن يُضْرَب. لأن الزنجي هناك ليس عبداً رقيقاً. الزنجي كان حراً، والزنجي كان يقضي حياته في الأدغال، راقصاً.

ـ ولماذا جاؤوا إلى هنا؟ سأل بالدوينو الذي بدأ يهتم بالحديث.

ـ البيض هم الذين جاؤوا لأخذهم. وكانوا يروون لهم الأكاذيب. والزنجي كان غبياً، ولم يسبق له أبداً أن رأى الإنسان الأبيض. كان الرجل الأبيض يريد المال فقط، وكان يأخذ الزنوج ليجعل منهم عبيداً أرقّاء. وكان يأخذهم بضربات الهراوة. وحدث ذلك على هذا النحو بالنسبة لزومبي. لكنه كان شجاعاً، ويعرف عن الأمر أكثر من الآخرين.

وذات يوم جميل أركن إلى الفرار، مع زنوج آخرين، وعاد

ليصبح حراً، كما كان في بلاده. حينئذ تبعته كومة من الزنوج. وصنعوا مدينة كبيرة للزنوج. حينئذ أرسل البيض جنوداً لقتل الزنوج. لكن الجنود كان مصيرهم القتل. ثم جاء جنود آخرون. وظل الزنوج صامدين...

فتح أنطونيو بالدوينو عينيه على اتساعها. كان جسده كله يرتعش حماسة.

ـ حينئذ أرسلت جنود بكمية كبيرة، جنود أكثر بمئة مرة مما كان هناك من زنوج. لكن الزنوج لم يكونوا يريدون أن يعودوا عبيداً أرقاء. وحين رأى زومبي أنهم هزموا، فإنه، لكي لا يتلقى بعد هراوة الرجل الأبيض، ألقى نفسه من أعلى أحد الجبال الصغيرة. وقفز جميع الزنوج في أثره... كان «زومبي أشجار النخيل» زنجياً طيباً وباسلاً. وجد أنطونيو بالدوينو في ذلك اليوم صديقاً لملء قلبه الفارغ كما تركته عمته. وابتداء من ذلك اليوم أصبح «زومبي أشجار النخيل» بطله المفضل.

ومن جهة أخرى، فإن التعويضات عن تنكيدات أميلي لم تكن تنقصه. كان هناك، بادىء بدء، ليندينالڤا، رفيقته في الألعاب. كان قادراً على أن يبقى ساعات ساكناً يتأمل وجهها، وجه القديسة. وكانت هناك أيضاً السينما التي كانت اكتشافاً بالنسبة له. وفي أفلام رعاة البقر، بعكس الغِلمان الآخرين، كان أنطونيو بالدوينو يصفق دائماً لمآثر الهندي الشرير ضد الأبيض الباسل. كان شعور العِرق، العِرق المضطهد (بفتح الهاء) يبقى محفوظاً لديه، كامناً. وكان هناك أخيراً زيه ـ الأربيان، الذي كان يأتي ليعلّم عزف القيثارة للبورجوازيين الصغار أولاد المنزل القائم في زاوية الشارع، وكان

يعطي أيضاً دروساً مجّانيّة لبالدوينو.

لم يكن العمل في منزل « الآمر » صعباً ولا منفّراً. وكان يساعد في تقديم الطعام، ويغسل الأواني، ويذهب إلى السوق، ويقوم بالمشتريات. بل لقد أعلن الآمر عزمه على استخدام انطونيو في محله التجاري:

- إنني أريد أن أصنع شيئاً من هذا الزنجي الصغير، كان يقول الآمر، ويضيف: إنه ماكر كالشيطان، هذا الولد البليد في الظاهر...

كان الضرب يعلّم بالدوينو التستّر. وأصبح الآن يدخن خلسة، ويتلفظ بكلمات بذيئة بصوت منخفض ويكذب بوقاحة.

إن هذا المشروع الذي تصوّره « الآمر » لتحسين مصير بالدوينو وذلك بأن يعهد له بخدمة مدفوعة الأجر في محله التجاري - أي محل الآمر - مع إمكانية صنع شيء في الحياة، هو بالضبط الذي جعل الزنجي الصغير يقرر الفرار. وذلك في الظروف التالية.

حين أعلن « الآمر »، في يوم أحد جميل، أن أنطونيو، الذي كان قد بلغ الخامسة عشرة من عمره في ذلك الحين، سوف يعمل في الشهر التالي في المخزن، أصيبت أميلي بنوبة غضب مسعور. لم تكن تستطيع أن تفهم لماذا يصرّ سادتها على حماية هذا الزنجي ويريدون أن يجعلوا منه شخصاً كجميع الناس.

وكانت تردّد قائلة باصرار: « الزنوج، هم بذرة فاسدة. الزنوج ليسوا ناساً »...

وفكرت في ذريعة لإنهاء فقدان الغلام الصغير معنوياته. وذات يوم جميل، شاهدت الصبي جالساً على الدرج، يتأمل بعينين نشوانتين ليندينالڤا، التي كانت حينئذ في الثامنة عشرة من عمرها، وهي تخيط ثوباً على الشرفة.

ـ لم يكن ينقصنا سوى هذا، أيها الزنجي المقرف! ها أنت الآن تنظر إلى ساقي الدونا ليندينالڤا...

كان الأمر هو كذلك بالضبط! وكان بالدوينو مستغرقاً بكليته في تذكر الزمن الجميل حين كانا صغيرين، ويلعبان معاً في الباحة. لكنّه انتفض واقفاً، وكأنه كان ينظر، فعلاً، إلى ساقي البنت الصبيّة.

هذا الاتهام بلغ أذني «الآمر». وقد صدّقه الجميع، حتى ليندينالڤا، التي لم تعد تنظر إلى بالدوينو إلا باشمئزاز ممزوج بالخوف.

إن الآمر، الذي كان يعرف أن يكون طيباً، كان يعرف أيضاً، إذا لزم الأمر، أن يكون صارماً.

ـ ماذا إذاً، أيها القذر! أنا أربّيك مثل ابني، وأريد أن أضع رجلك في الركاب، وأنت تكافئني بهذه الصورة؟!

كانت أميلي تشدّد على تلك النقطة:

ـ هذا الزنجي سيّىء إلى درجة تبعث الخوف. ومنذ أيام، وكانت دونا ليندينالڤا تستحمّ، كان هو ينظر من ثقب الباب.

خرجت ليندينالڤا، وهي تكاد تبكي. ونشأت لدى بالدوينو

رغبة في الاحتجاج بأن ما تقوله أميلي هو كذب، لكنه صمت، نظراً لأن الجميع كانوا يصدّقونها. وقد تلقى ضربات رهيبة، تركته ثاوياً وهو مرضوض كلياً. ولكن كان الألم في قلبه، على الأخص. وحتى ذلك الحين، كان هؤلاء البيض هم الذين يقدّرهم: ولكن منذ ذلك اليوم، شملهم في البغضاء التي يحملها لجميع البيض الآخرين.

وفي تلك الليلة، حلم بالفتاة الصبيّة، رآها عارية تماماً، واستيقظ حينئذ. تذكر المساوىء التي كان يمارسها غلمان الجبل الصغير. كان وحيداً... كلا، لم يكن وحيداً: بل كان مع ليندينالڤا التي كانت تبتسم له، بوجهها المشابه لصور الايقونات. في تلك الليلة أصبح رجلاً. ومن ذلك الحين فصاعداً. كائنة ما كانت المرأة التي يمتلكها، فإن ليندينالڤا كانت دائماً رفيقته.

في الصباح الباكر فرّ أنطونيو بالدوينو من «ممر زومبي أشجار النخيل».



متسوّل

والآن أصبح انطونيو بالدوينو حراً في مدينة باهيا جميع القديسين الدينية والأب جوبيابا القديس. وكان يعيش كل المغامرة الكبرى للحرية المستعادة. كان يعيش المدينة بكاملها. لقد كانت له.

حاضرة باهيا الزنجية. الحاضرة الدينية، الحاضرة الكولـونيـاليـة (حاضرة المعمّرين).

كنائس فخمة، مزركشة بالذهب، ودور بورجوازية مزيّنة بقطع قيشاني أزرق، وأكواخ زريّة، أعشاش للبؤس، وطرقات صاعدة مبلّطة بالحجارة، ونصب تاريخية، وقلاع قديمة، وأحواض المرفأ، كل هذا كان ملكاً للزنجي أنطونيو بالدوينو، كان وحده، يملك المدينة، لأنه وحده الذي يعرفها كلها، يعرف جميع أسرارها. لقد تسكّع في كل شوارعها وطرقاتها وأزقّتها، واختلط بكلّ التجمعـات الصاخبة فيها، وبجميع حوادث العربات والسيـارات. إنـه يـرقـب المدينة، مدينته. وهو لا تخفاه أية حركة من حركاتها، ولا يخفاه أي مهذار من مهذاريها، وهو يحضر جميع احتفالاتها الغنائية، ويستقبل زائريها ويودّعهم. وهو يعرف جميع مساحِلاتها [1]، كما أنه صديق لجميع البحارة الذين ينزلون إلى «مرفأ الخشب». وهو يأكل غذاء

---

(١) جمع مساحلة، وهي سفينة تبحر قرب السواحل (هـ. م).

أكثر المطاعم أناقة وينتقل في العربات الأكثر بذخاً، ويسكن في ناطحات السحاب الأكثر عصرية. وهو يغيّر مسكنه وفق مشيئته. وبما أنه سيّد المدينة وصاحبها، فهو لا يدفع ثمن أية وجبة، ولا أجرة العربة. ولا كراء المسكن.

إنه وقد أُطلق في الحاضرة الكبيرة، سرعان ما سيطر عليها. ومؤكّد تماماً أن المارّة لا يعرفون شيئاً عن ذلك. ولعل أنطونيو بالدوينو لا يعرف شيئاً عن ذلك هو أيضاً.

الكسكيت على عينه، وعقب السيجارة بين شفتيه، وبنطال من الجوخ الأسود، ممزق ومليء باللطخات، وسترة هائلة الضخامة موروثة عن عملاق، وكبيرة جداً بالنسبة لأنطونيو، وهي، في الشتاء تقوم بوظيفة معطف.

ـ تلك هي ملابس أنطونيو بالدوينو، امبراطور المدينة. وهؤلاء الزنوج المحيطون به، وأحبّ رعاياه، يشكّلون حرس الشرف له. حرس بدون زيّ، بل يرتدون خرق القماش، لكنهم يعرفون القتال أفضل من أيّ حرس آخرين. وللأمبراطور تميمة كبيرة معلّقة في عنقه. وجميع هؤلاء الصبيان يخبئون في أحزمتهم مطاوي ومدى، وخناجر.

أنطونيو بالدوينو يتقدم:

ـ الصّدقة، لوجه الله.

قاس الرجل الضخم الزنجي الصغير من الرأس حتى القدمين، وزرّر سترته، وهز رأسه بسخرية.

ـ الصّدقة لقطعة رجل بُنْيَتُه على هذا النحو؟ اذهب للعمل، يا تنبل! ألا تخجل؟...

آجال أنطونيو بالدوينو عينين حذرتين. كان الشارع مليئاً بالحركة. حينئذ قال:

ـ أنا لست من هنا، يا سيدي الطيّب... لقد ارتدتُ هذا الشارع في هذا الموضع الذي لم يسقط فيه المطر منذ أسابيع. وأنا هنا بلا عمل. أريد فلسين لشرب القهوة. إن لك قلباً طيباً...

رصد تأثير كلامه. لكن الرجل تابع طريقه:

لا بأس. اطلب من آخرين... واذهب للعمل!

ـ أقسم بالشمس التي تضيئنا أنني لا أتهرّب.

إذا كان لديك عمل، فأنا آخذه. إنني لا أخاف العمل. لكنني منذ يومين لم آكل... أنا تقريباً ميّت من الجوع. وأنت رجل طيّب...

أبدى الرجل حركة تنم عن نفاد الصبر؛ ووضع يده في جيبه، وألقى بقطعة نقود:

خذ... ولكن كفّ عن ازعاجي. اذهب من هنا.

لكن الزنجي الشابّ ظل مرافقاً للرجل. ذلك لأنه كان قد دخّن أكثر من نصف سيكاره. وكان يمكن لأنطونيو بالدوينو أن يقوم بأعمال مجنونة للحصول على عقب سيكار. وفكر الرجل في كل ما قاله له الغلام الزنجي. إذن هو صحيح ما يقوله جميع متسوّلي المدينة؟ استعاد في ذهنه جميع وجوههم المعادية. وأحس بالخوف، فالقى سيكاره، وأعاد تزرير سترته، ثم دخل إلى حانة لكي يهب قلبه

الشجاعة والراحة. واستولى أنطونيو بالدوينو على عقب السيكار. والآن فتح يده التي تشدّ على قطعة العملة. كانت قطعة نقدية بقيمة ٢ ميلريس. رماها في الجو، وعاد والتقطها بخفة وبراعة، وركض للانضمام إلى الرفاق.

ـ إليّ، إليّ أيها الزنوج الصغار! احزروا كم؟...

ـ عشرة فلوس.

انفجر أنطونيو ضاحكاً:

ـ وأكثر؟

ـ ٢ ميلريس؟

ـ بالضبط وقام بحركة ازدراء ـ أنا، أيها الفتيان، أعرف الموسيقى...

حينئذ انفجرت ضحكات. لم يكن المارّة يرون سوى جماعة من الفتيان الصغار يتسوّلون. لكن الحقيقة هي أنه يوجد هنا امبراطور المدينة محاطاً بحرس الشرف.

وحين كانت تظهر جماعة من النساء المرتديات أجمل ملابسهن، والمتزيّنات، كان انطونيو بالدوينو يصفر بصورة خاصة، وكانت جماعة الصبيان تتجمع في صف. وكان «الفتى الضخم» يمر على رأسهم، لأن له صوتاً حزيناً ووجهاً مُنفرجاً لأبلَهٍ مُتضَوّرٍ جوعاً. كان يضع يديه على صدره، ويتّخذ هيئة مذلّة شديدة، ويسدّ الطريق على النساء. وكان الصبيان يتجمعون حينئذ حولهن وكان «الضخم» ينشد:

الصدقة يا سيّداتي الخيّرات

لسبعة عميان صغار فقراء...

أنا هو الأول
وهذا هو الثاني
والباقون هم في المنزل
البابا مقعد ومعاق
والماما في السرير
الصَّدقة يا سيداتي الخيرات؛
لسبعة أيتام صغار
لا يرون نور الله الخيّر.

عند نهاية الأغنية، كان الضخم يبكي تقريباً. كان منتحباً، حزين العينين، ويشبه حقاً أعمى صغيراً، مع ستة أشقّاء عميان مثله، والأم مريضة في السرير، والأب مقعد ومعاق، ولا شيء للأكل في البيت. وكان يردد أغنيته بلا كلل:

الصدقة يا سيّداتي الخّيرات
لسبعة صغار عميان مساكين
وأنا هو الأول...

وكان يشير باصبعه إلى أقرب رفيق منه وهذا هو الثاني...

وفي النهاية كان يمدّ يديه الضخمتين، مشتملاً جماعة الصبيان كلها، ويقول منتحباً:

لأجل سبعة يتامى صغار
لم يعودوا يرون نور الله الخيّر
ويردد الآخرون في جوقة:
لم يعودوا يرون نور الله الخيّر.

كان « الضخم » يتقدّم بخطى ثقيلة ويمدّ يده القذرة، لتلقّي الصدقة. وبصورة عامة كان ذلك مجزياً. فالنساء كنَّ يعطينَ دائماً، بعضهن بدافع الشفقة على صبيان الشارع هؤلاء، مفكرات في صغارهن الذين تركنهم في منازلهن، في وقاية الملابس الدافئة والنار. وأخريات كنّ يعطين الصدقة للتخلص من هؤلاء الصبيان، الذين كان حضورهم هنا بمثابة اتهام لهنّ. وكانت أكثرهن شجاعة يمزحن قائلات:

ـ كيف يحدث هذا؟ إنهم سبعة، في الأغنية، ونرى هنا أكثر من عشرة. إنهم يتامى، ومع ذلك فلهم والد ووالدة مريضان. وعميان، وهم يرون كل شيء. فما معنى كل هذا؟...

لم يكن المتسوّلون الصغار يجيبون. كانوا يشدّدون الطوق ويعيد « الضخم » ترديد أغنيته الرتيبة:

ـ الصدقة، يا سيدّاتي الخيّرات. لا مجال للمقاومة. كان الغلمان يتقدّمون أكثر فأكثر، بحيث كانت وجوههم القذرة تلامس تقريباً الوجوه الجميلة المخضّبة بالزينة. وحين كان يخور جميع الصبيان بلازمة الأغنية، كانت تلك رؤية مرعبة. كانت الحقائب تفتح وقطع النقود تنصبّ بغزارة في يد « الضخم ». وكان الطوق ينفرج، ويقدم « الضخم » شكره.

ـ سيكون لسيدتي زوج وسيم. سيأتي في السفينة... كان أغلبهن يبتسمن، وأخريات يشعرن بالحزن. ولكن في الشوارع والأزقة كانت تدوي ضحكة الغلمان. ضحكة منطلقة، ضحكة سعيدة. ثم كانوا يشترون سجائر ويشربون كأساً من خمرة قصب السكر.

كان بينهم صبيّ أشقر. وكان هو أصغرهم سناً. كان لا يتجاوز العاشرة من العمر. وجه قديس المواكب، مجعّد الشعر، ويدان عصبيّتان. وعينان زرقاوان. كان اسمه فيليب، وكانوا يلقّبونه بـ« **الوسيم** ». وكانت أمه تكسب المعيشة في مواخير « الشارع المنخفض ». كانت فرنسية عجوزاً أحبّت في الماضي طالباً. وحين نال هذا رتبته الجامعية، ذهب إلى منطقة **الأمازون**. وكان ولدها يهيم في الشارع، والأم في الكحول.

ويوم انضم إلى الجماعة، حدث شجار. فحين كانوا راقدين، مشدودين بعضهم إلى بعض، عند عتبة ناطحة سحاب، متّخذين أغطيتهم من ورق الصحف، أراد « بلا أسنان »[1] أن يجرّد فيليب من بنطاله. وكان « بلا أسنان » خلاسياً قوياً بأعوامه الستة عشر. وكان يبصق بين ثغرات أسنانه بصوت خاص، ويصيب دائماً بلعابه النقطة المحدّدة. كانت هذه هي موهبته الخاصة. إذاً، فإن « بلا أسنان ». الصبيّ الفاسد، عانق فيليب، وبدأ يفكّ أزراره. وقد قاوم فيليب. وأطلق صرخة، فاستيقظ الجميع. وسأل انطونيو بالدوينو، وهو يفرك عينيه:

ـ ما هذه الضجة؟

المسألة أنه يظنني لوطياً. لكن هذا غير صحيح. (كان في صوت فيليب بكاء).

ـ اسمعني يا « بلا أسنان »: هل تترك الصغير وشأنه؟

ـ هذا لا يعنيك. وأنا أفعل ما يروق لي... ماذا إذا كان هذا الصغير يروق لي؟.

---

(١) « بلا أسنان » لقب لأحد صبيان الجماعة. (هـ. م).

ـ تذكّر أنك إذا لمست الولد الصغير فسوف يكون لك شأن معي...

ـ أجل، هكذا، إنك تريد أن تناله... هناك سوء تفاهم.

اتخذ أنطونيو بالدوينو شهوداً من الصبيان الآخرين، الذين ظلوا في حالة ترقّب:

ـ إنكم تعلمون جميعاً أنني لا أريد أن أنال أحداً. أنا أحب النساء، أليس كذلك؟ ولو كان الصغير لوطياً سلبياً، لما كان هنا، لأننا لا نريد لوطيّين هنا. الصغير هو ذكر، أليس كذلك؟ فلا يمسسه أحد!

ـ ماذا إن مسسته أنا؟

كان أنطونيو يشعر أن الجميع يقفون إلى جانبه:

هيا، المسه...

نهض، وحذا «بلا أسنان» حذوه. وكان يفكر في أنه إذا ضرب بالدوينو، فسوف يكون هو الزعيم بدوره. كانا يقيسان بعضهما بالنظرات.

ـ أنا أنتظر، قال **«بلا أسنان»**.

أطلق أنطونيو ضربة بقبضته. فترنّح «بلا أسنان»، لكنه لم يسقط. وحينئذ تماسك المتقاتلان أمام الصبيان المتحمّسين. تدحرج «بلا أسنان» على الأرض، لكنه نهض واقفاً على قدميه. وألقت به ضربة من قبضة أنطونيو مجدداً إلى الأرض. وحين نهض هذه المرة، كانت مُدية تلمع في الظلام.

ـ دع عنك! إنك لا تعرف أن تقاتل كرجل...

كان « بلا أسنان » يتقدّم مع مطواته. لكن أنطونيو بالدوينو الذي كان قد تعلّم المبارزة مع زيه ـ الأربيان، على « الجبل الصغير »، رفس انطونيو بساقه فارتمى « بلا أسنان » على الأرض، تاركاً مطواته جانباً.

قال بالدوينو مستخلصاً في النهاية:

ـ إن من يمسّ الصغير يمسّني أنا... في المرة القادمة، سأشهر المطواة...

وذهب « بلا أسنان » لينام وحده تحت كنّة أخرى. وظلّ فيليب، « الوسيم » نهائياً مرتبطاً بالجماعة.

لقد تخصّص « الوسيم » بالنساء المسنّات. فكان ما أن تظهر إحداهن في نهاية الشارع، حتى يسوّي عقدة رباط عنق عتيقة لم تكن تغادره أبداً، ويرمي عقب سيجارته، ويدسّ يديه في جيبيه المثقوبين، ويخبىء سكينه ويقترب بهيئة تثير الرثاء. ويهمس:

ـ مرحباً، يا سيدتي، أنا ولد متشرّد. أنا جائع...

وكان ينخرط في البكاء. كانت لديه موهبة خاصة ليبكي حين يشاء. وكانت تُرى له دموع حقيقية. وكان يسمع له بكاء حقيقيّ.

ـ... أنا جائع جداً... يا ماما... إن لك ولداً... الشفقة يا سيدتي الطيبة...

كان جميلاً جداً حين يبكي بوجهه الممتلىء، المفعم بالدموع، وشفتيه اللتين ترتجفان. ودائماً كانت المرأة المسنّة تحس بالشفقة:

ـ يا لَلصغير المسكين... صغير هكذا وبلا أم...

كانت النساء المسنّات يعطينه قطع عملة كبيرة. وثلاث مرات دعته نساء غنيّات للسكن في منازلهن. لكنه كان يفضل كثيراً الحرية في الشوارع، وكان يظل مخلصاً للجماعة التي كان قد أصبح عنصراً فعالاً فيها، ومحترماً جداً. و« بلا أسنان » هو ذاته كان يعامله بإجلال حين يتصدّى « الوسيم » لامرأة مسنّة.

ـ لقد وقعت في الفخّ. هذا رائع...

كان ضحك الغلمان يدوّي حينئذ في شوارع حاضرة « جميع القديسين، وطرقاتها وأزقتها المسدودة، وفي طريق الأب المقدس جوبيابا ».

ولكن أغرب من الجميع كان فيرياتو، « القزم ». وقد أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان صغيراً، وأصغر من فيليب مع أنه يكبره، أي القزم، بثلاث سنوات. كان فيرياتو صغير الجسم، لكنه سمين، ومربوع، وكان يملك قوة خارقة بالنسبة لسنّه. وحتى حين كان يستحمّ، كان يعطي انطباعاً بالبؤس والقذارة. وحين تكوّنت الجماعة، كان قد بدأ بالتسوّل. كان وجهه المسطح يوحي بالخوف. ولكي يثير الاهتمام أكثر كان يسير مكوّر الظهر، وكان ذلك يجعله أكثر حجماً والتواء أيضاً. وكان من المستحيل انتزاع كلام منه. وحين كان الآخرون يقهقهون بالضحك، كان هو يبتسم بالكاد.

لكنه لم يكن يزعج أحداً، ولم يكن يطالب أبداً بشيء، مهما كانت حصيلة تسوّل الجماعة. كان يكتفي بأن يجد ما يأكله، وما يدخّنه. وكان أنطونيو بالدوينو يقدّره. ويعرض له في كثير من الأحيان مشاريعه، ويهتم اهتماماً كبيراً بآراء « القزم ».

لم يكن فيرياتو - القزم يختلط بالجماعة البتّة. أثناء النهار. كان يتمركز في شارع «تشيلي» متقلّصاً تماماً، ورأسه بين كتفيه. ودون أن يتلفّظ بكلمة، كان يمد قبعته للمارة. وكان يبدو أنه يشكل جزءاً من الباب الذي يجلس تحته، مثل منحوتة مأسوية، أو مثل قناع ساخر [1]؟ وكانت حصيلته دائماً ضخمة. وفي نهاية فترة بعد الظهر كان يمضي للانضمام إلى الجماعة ويضع بين يدي الرئيس حصيلة يوم عمله. وبعد القيام بالحسابات، وانتهاء التوزيع، كان يذهب إلى زاويته، يأكل، ويدخن، وينام. كان يتبع تماماً الآخرين في ألعابهم الصبيانية وأقوالهم البذيئة، ولكن دون أن يظهر أبداً حماسة في ذلك. كان يتبع لمجرّد الاتّباع. كان من بين أعضاء جماعة المتسولين الصغار الوحيد الذي أخذ مهنة التسوّل موضع الجد.

في نهاية فترة بعد الظهر، كان بالدوينو يجلس على الأرض، جامعاً حوله الغلمان، ويجمع أرباح النهار. وكانوا يخرجون أعماق جيوبهم، ويسحبون منها قطع العملة النيكل، وأحياناً بعض قطع العملة الفضية، ويضعون كل شيء بين يدي الرئيس

- وأنت، يا «ضخم» كم؟

كان «الضخم» يعد النقود.

- خمسة، ثمانمئة.

- و«الوسيم»؟

كان فيليب يلقي، بهيئة تفوّق، حصيلته:

- ستّ عشرة قطعة من فئة الميلريس.

---

(١) القناع الساخر: قناع محفور غريب أو مخيف يزين النوافذ أو المداخل (عن قاموس المنهل).

لم تكن حاجة لمناداة فيرياتو:

ـ آثنتا عشرة، ومئة.

وكان كل ولد يعلن حصيلته بدوره. وكانت كسكيت بالدوينو تمتلىء شيئاً فشيئاً، بقطع النيكل والفضّة. وفي النّهاية يقلِب أنطونيو بالدوينو جيوبه ويدفع إلى المالية المشتركة ربحه.

ـ أنا، ليس شيئاً كثيراً: سبعة ميلريس.

كان يحسب المجموع على أصابعه. ثم بمساعدة فيتاريو، كان يقوم بالتوزيع.

ـ نحن تسعة ـ وهذا يشكّل ستة، ستمئة لكل واحد. وكان يسأل:

ـ هل الأمر جيّد هكذا، أيها الفتيان؟

ـ الأمر جيد. وكان الصبيان يمرون قرب بالدوينو الذي كان يعطي كل واحد حقه.

وبعد ذلك كانوا يذهبون للأكل، ثم كانوا يتفرّقون في المدينة، بحثاً عن خلاسيات يأخذونهنّ إلى الساحل الرملي، ويدخلون إلى الحفلات الشعبية في الضواحي، أو يذهبون لاحتساء خمرة قصب السكر في حانات أسفل المدينة.

ولكن في أحد الأيام حدث أمر غريب. فحين قام «زيه ـ الكسول» بتقديم حصيلته، ابتسم ابتسامة غامضة. وأعلن أنطونيو بالدوينو:

ـ ثلاث قطع ميلريس. ودمدم «زيه ـ الكسول»:

ـ وهذا أيضاً... ألقى في كسكيت الزنجي خاتماً. رفع أنطونيو

بالدوينو عينيه وأكّد :

ـ لقد سرقت هذا ، يا « زيه ـ الكسول » .

ـ أقسم لك أن لا . لقد أعطتني الفتاة الصدقة ، ثم ذهبت . حينئذ وجدت هذا الخاتم قربي . وركضت لألحق بها . . .

ـ أهكذا ، تكذب أمامي ؟ كان الصبيان يبدون إعجابهم بالحجر الثمين ، الذي كانت تتداوله أيديهم ، دون أن يهتموا بالحوار .

ـ هيا ، وارو لنا ماذا حدث .

ـ أؤكّد لك بأن هذا صحيح ، يا بالدو . لقد حدث كما قلت لك .

ـ وركضت لكي تلحق بها ؟

ـ هذه ، أجل ، هذه أكذوبة . . . ولكن الباقي صحيح ، أقسم لك .

ـ حسناً . والآن ماذ سنفعل بهذا ؟ أخذ فيليب يضحك :

ـ أعطني إياه . لقد ولدت لكي ألبس خاتماً .

قهقه الجميع ضاحكين . باستثناء بالدوينو الذي سأل مجدداً :

ـ ماذا سنفعل بهذا يا ترى ؟ تمتم فيتاريو ـ القزم قائلاً :

ـ في سوق الصاغة . إنهم يدفعون جيداً .

وقال فيليب مازحاً من جديد :

ـ سوف أصنع لنفسي بذلة جديدة . . .

ـ حسناً . . . إذهب وابحث في خرق النفايات !

ـ لكن سوق الصاغة غير ممكن ، يا فيرياتو . فحين سيرانـ الصائغ ، لن يعتقد أن الخاتم لنا . وسوف يستدعي الشرطة ، وهكذا سنصبح في مركز الشرطة !

وتوسّل فيليب: أعطني إياه، لألبسه في اصبعي.

ـ كفى مزاحاً...

ـ رأيي أن نحتفظ به بعض الوقت أيضاً. وحين تكون السيدة قد نسيت، سنرى...

وعلق أنطونيو بالدوينو الخاتم إلى جانب التميمة التي يحملها مدلاّة من عنقه.

اقترب بالدوينو من الرجل اللابس معطفاً ربيعياً. كانت الجماعة تحضر المشهد، في زاوية الشارع:

ـ صدقة، لوجه الله...

ـ اذهب واعمل، أيها الدنيء!

هذه المرة كان الشارع خالياً. وكان الرجل ذو المعطف مستعجلاً. كان يحمل زهرة حمراء في عروة معطفه. واقترب منه أنطونيو أكثر. وكانت الجماعة تتابع المشهد.

ـ اعطني فلساً صغيراً...

ـ لك الضرب إذا استمررت تطلب الصدقة، أيها الصبي القذر! لحقت الجماعة بالرجل وسدّت طريقه.

ـ أنت غنيّ، يا سيدي. تستطيع تماماً أن تعطي فلساً.

لم يعد الرجل يتكلم. ذلك لأنه كان مطوّقاً. وكان وجه بالدوينو قريباً تماماً من وجه الرجل. ووضع الزنجي يده في جيبه. وظهر خنجر.

ـ هيا، ورقة مالية!

لصوص، هـا؟ تجرّأ الرجـل ذو المعطـف على أن يقـول هـذا، وأضاف: في هذه السن، أليست هذه مصيبة؟

تمتم انطونيو بالدوينو. وأظهر خنجراً. وأقفل الباقون الطوق.

ـ خذوا، يا بذرة المتسكّعين!

ـ انتبه، سوف نلتقي مجدداً...

ـ غداً، سأذهب إلى الشرطة. لكنهم كانوا قد اعتادوا هذا التهديد، ولم يكونوا يعلّقون عليه أهمِّيَّة. وأخذ بالدوينو العشرة ميلريس، وأغمد خنجره، وذهبت الجماعة عبر الشوارع المجاورة.

كانوا يقومون بأعمال العنف هذه عند اقتراب عيد **الكرنفال**،أو عيد **بونفان**، أو أعياد حيّ **«النهر الأحمر»**.

في أحد الأيام مرض **روزاندو**. كانت حمىّ شديدة وكان يهذي في الليل، ولم يعد يأكل. وفي الليلة الأولى كان يقول ضاحكاً:

ـ هذا لا شيء. سوف تزول الحمّى.

كان الآخرون يضحكون هم أيضاً.ولكن في الليلة التالية خاف **روزاندو**. وحين لم يكن يهذي، كان ينوح متأوّهاً:

ـ سوف أموت... نادوا ماما...

كان الآخرون ينظرون دون أن يعرفوا ماذا يجب أن يفعلوا. كل هذه العيون المبتهجة أصبحت حزينة. وسأل بالدوينو:

ـ أين تسكن أمك؟

ـ لست أدري. حين رحلت أنا، كانت تسكن في **«مرفأ الخشب»**. لكنها انتقلت من هناك. اذهب وابحث عنها، يا بالدو...

كان فيرياتو هو الذي يُعنى بالمريض. وكان يعطيه علاجات غريبة كان يعرفها هو وحده. وقد عثر في مكان ما على غطاء لفرشه على العتبة حيث كان يرقد المريض. وكان يروي له قصصاً مضحكة، وهي غريبة أكثر لأن راويها كان هو **فيرياتو ـ القزم**، الذي كان نادراً ما يتكلم. ولا يضحك أبداً.

وسأل فيرياتو:

ـ ماذا تسمّى أمك؟

ـ ريكاردينا... إنها مع سائق عربة... إنها زنجية ضخمة الجسم، ما زالت شابة، محفوظة جيداً. كان المريض يتحرّك بهياج عند ذِكر أمه...

ـ أريد ماما... سوف أموت...

ـ لا تقلق. أنا وبالدو سوف نحضرها لك غداً.

كان فيليب يبكي، وهذه المرة لم تكن دموعه مفتعلة. وكان «الضخم» يصلّي. خالطاً بين نتف من الصلوات، وكان أنطونيو بالدوينو يشدّ تميمته على عنقه.

في اليوم التالي ظل بالدوينو مع روزاندو، تحت درجات السلم. وفكر بالدوينو باستدعاء جوبيابا في الليلة ذاتها. ولكن في وسط فترة بعد الظهر، أحظر فيرياتو القزم زنجية ضخمة الجسم. لكنّ روزاندو، وهو في حالته المحمومة، لم يتعرّف إلى أمّه. وقبّلته واستدعت سيارة. واستعلم أنطونيو بالدوينو بتهذيب:

ـ هل لديك نقود، يا سيّدتي؟

ـ ليس كثيراً، ولكن بمعونة الله، سوف يكفي ما معي...

حينئذ تذكّر أنطونيو بالدوينو الخاتم الذي كان يحمله في عنقه.

نعطيك هذا من أجل روزاندو... كأتعاب للطبيب...

حلق الآخرون بعيونهم. وسألت الزنجية:

- هل سرقتم هذا الخاتم؟ هل أنتم لصوص؟ إذاً، كان ولدي مع لصوص؟

- لقد عثرنا على هذا الخاتم في الشارع.

أخذت الزنجية الخاتم. واقترح بالدوينو أيضاً:

- إذا كنت تريدين، يا سيدتي، فسأحضر جوبيابا إلى منزلك. وهو سوف يشفي روزاندو...

- أنت، سوف تحضر جوبيابا؟

- أجل، يا سيّدتي. إنه صديقي.

- أوه، بلى يا صغيري، أحضره.

وضعوا روزاندو في السيارة وكان يصرخ بأنه يريد أمّه، وأنه سوف يموت.

وسأل أنطونيو فيرياتو:

- كيف فعلت للعثور عليها؟

- أصعب ما في الأمر أنها لم تكن عند سائق العربة. لقد أصبحت الآن مع نجار. كان ينظر إلى المدينة بعين زائغة. وفجأة قال لبالدوينو:

- ماذا لو أُصبت بالمرض، أنا؟ أنا ليس لديّ والد، ولا أمّ، ولا أحد...

ربت أنطونيو بالدوينو على كتفه. وكان «الضخم» يرتجف.

وشفى جوبيابا الغلام روزاندو. وفي صباح يوم مشمس جداً، جاء الغلمان مجتمعين لزيارة رفيقهم.

وجدوا روزاندو على كرسيّ كانت من صنع زوج أمّه. وجرى الحديث عن ذكريات الجماعة، وقد ضحكوا كثيراً. ثم أعلن روزاندو أنه لن يكون أبداً بعد الآن متسوّلاً، وأنه سيعمل من الآن فصاعداً، مع زوج أمّه، مثل رجل. ابتسم أنطونيو بالدوينو. وحافظ فيرياتو ـ القزم على وقاره.

كان أمبراطور المدينة يأكل في أفضل المطاعم، وكانت لديه، من أجل نتقّلاته، أفخم السيارات؛ وبالنسبة لمسكنه، كانت لديه ناطحات السحاب الأكثر عصرية. وكلّ هذا بالنظر... وكان، حين يمر موعد الغداء، يتّجه مع جماعته نحو مطعم ما، ويهمس في أذن النادل. ولا يجهل هذا أن الأفضل أن لا يقاوم الغلمان. فكان يعطيهم وجبة كبيرة، ملفوفة في ورق الصحف. وتكون الوجبة كبيرة بحيث يلقي الصبيان بقاياهم في صناديق النفايات. ويغتذي المتسولون المسنّون من بقايا البقايا.

كان يترك السيارات تمر بعين خبير. ذلك لأن أمبرطور المدينة لا يستقل أية سيارة كانت. وكان، حين تصل واحدة فخمة ومريحة، يتعلّق بصندوقها الخلفي ويرتاد في هذا الوضع أميالاً عديدة. لكنه إذا رأى في طريقه سيارة أجمل، كان يترك الأولى، ويتعلّق بالثانية ويواصل على هذا النَحو جولته في المدينة التي غزاها وفتحها.

إنه هو وحرس الشرف الخاص به لا ينامون إلا تحت سقائف

أحدث ناطحات السحاب، ويعرف الحراس الليليون جيداً أن هؤلاء الصبيان يحملون مدى وخناجر.

هذا إذا لم يفضّلوا النوم على الساحل الرمليّ للمرفأ، تجاه السفن الضخمة الحجم، تحت النجوم، وقرب البحر الأخضر المحفوف بالأسرار.



طريق المنزل

كان البحر شغفه القديم. فمن أعلى «الجبل الصغير» (الخصي الزنجي) كانت له معه أحاديث غرامية طويلة. وكان يتأمل لون بشرة البحر، الأزرق تارة، والأخضر الفاتح ثم فجأة الأخضر الغامق تارة أخرى، وكانت تفتنه عظمة البحر الشاسعة والسرّ الذي كان يحسّ به في غموض في السفن الكبرى الراسية في الميناء، أو المراكب المساحلة الصغيرة التي يدفعها الجزر. إن البحر يمنح قلبه سلاماً لا يجده في المدينة؛ ولكن لا أحد سيداً للمدينة.

كان يزوره في الليل. وعادة، كان يأتي وحده: يتمدّد على الرمل الأبيض على حافة الحوض الصغير المخصّص للمراكب المساحِلة، وهناك يحلم، وهناك ينام أفضل نومه كولد متشرّد. وأحياناً كان يحضر الجماعة معه. حينئذ كانوا يذهبون إلى الحوض الكبير، حوض سفن الأسفار الطويلة.

وهم سوف يشاهدون الناس الذين يبحرون حاملين معهم صرر الأمتعة والملابس القديمة. كما سيرون رجالاً يفرغون السفن. إنهم سود، وكأنهم نمال ترفع أحمالاً هائلة الثقل، ضخمة الحجم. والمرفاعات، مثل عمالقة ضخام تهزأ بالناس، وترفع حمولات هائلة تتأخر في الجوّ، وتتأرجح. كل هذا يصرّ، ويئنّ، ويتدحرج على خطوط حديدية، يقوده عن بعد رجال يرتدون ملابس العمل، جلسوا عالياً في مخ المرفاعات.

وفي مرات أخرى أيضاً، كان أنطونيو بالدوينو يأتي مصحوباً، ولكن ليس بجماعته الصغيرة. بل هو يأتي بصحبة زنجية صغيرة في مثل سنه، أو أكبر منه بقليل، ليناما بدون أحلام على الساحل الرملي. وحينئذ يتّجه نحو معتزلات هو وحده، مع بعض الصبيان الزنوج، يعرفها، ولا يمكن أن يرى منها سوى الخضرة الشاسعة. كان يحب أن يقدّم إلى البحر عشيقاته، وأن يعرف البحر أنه قد أصبح رجلاً بالرغم من سنه الخامسة عشرة، وكيف يضاجع بنتاً صغيرة على الرمل الطريّ الذي يشبه السرير.

ولكن سواء أكان وحده أم برفقته أحد، فقد كان ينظر دائماً إلى البحر بصفته «طريق المنزل».

من البحر، وهو على ثقة بذلك، سوف يأتيه يوماً شيء ما، لا يعرفه، لكنه ينتظره.

وما الذي ينقص الزنجي الصغير، الذي يسود في الخامسة عشرة من عمره على حاضرة باهيا الزنجية؟ إنه لا يعرف، ولا أحد يعرف، لكنه ينقصه شيء معيّن، ولأجل العثور على هذا الشيء، يجب أن يركب البحر، أو أن ينتظر ما يحمله له البحر، في أعماق سفينة عابرة للمحيطات، أو في قاع مساحِلة، أو أيضاً شيء معلق بجثة غريق.

في إحدى الليالي، على أرصفة الميناء، أوقف الرجال عملهم فجأة وتراكضوا نحو الساحل. كان القمر نيّراً، والنجوم شديدة اللمعان بحيث لم يكن يُرى نور حانة صغيرة رفعت فوقها لافتة كُتبت عليها عبارة **«مصباح الغرقى»**. وعثر الرجال على سترة عتيقة وقبعة

مثقوبة. وغاص بعض الزنوج في الماء. وعادوا مع جسم. كان ذلك زنجياً مسناً، أحد هؤلاء الزنوج النادرين ذوي الشعر الأبيض، ألقى بنفسه في البحر. وفكر أنطونيو بالدوينو أن هذا الرجل قد سلك «طريق المنزل»؛ وأنه كان من عادته، هو أيضاً أن يأتي كل ليلة إلى أرصفة الميناء. وأوضح عامل في أحواض السفن قائلاً:

- إنه العجوز سالو ستيانو، المسكين، وكان بلا عمل منذ أن ترك عمله في أحواض السفن.

وألقى نظرة جانبية، وبصق في غضب شديد:

- لقد قالوا له إنه لم يعد صالحاً للعمل، وإنه لم يعد صالحاً لأي شيء. حينئذ كان يتضوّر جوعاً، ويأكل الحجارة، العجوز المسكين.

وأضاف عامل آخر:

- إنه دائماً الشيء ذاته: يقتلونك بالعمل، ثم يلقون بك كشيء قذر. حينئذ لا يبقى لدى العامل من قوة سوى أن يلقي بنفسه في الماء...

كان المتكلم خلاسياً بارز العظام. وعاد زنجي ضخم يقول:

- إنهم يأكلون لحمنا، لكنهم لا يريدون أن يلوكوا عظامنا. وفي زمن الرقّ، على الأقل، كانوا يقضمون العظم...

وسمع صوت صفارة، فعاد الجميع إلى الأحمال وإلى المرفاعات.

وقبل ذلك، كان أحد الزنوج قد غطّى وجه العجوز الميت بسترته العتيقة.

ثم جاءت نسوة وبكين منتحبات.

في مرة أخرى، أوقف أيضاً رجال المرفأ السود عملهم. ري هذه المرة ، كان الليل بلا نجوم ولا قمر. وكانت قيثارة رجل أعمى في حانة « مصباح الغرقى » تعزف أنغام عهد الرقّ. حينئذ صعد أحدهم على صندوق وألقى خطاباً.

اقترب الآخرون منه، وأحاطوا به. وحين وصل أنطونيو بالدوينو وجماعته، كان الرجل قد بلغ فترة التحيات « عاش... عاش ».

وردد أنطونيو بالدوينو ورفاقه: « عاش... عاش... ».

لم يكن أنطونيو يعرف بالضبط ماذا يحيّي. لكنه كان يحبّ التحيات « عاش.. عاش ». وكذلك كان يضحك لأنه يحب الضحك.

كان الرجل، الذي يبدو أنه إسباني، منتصباً على صندوق. وألقى كومة من الأوراق. في هذه اللحظة بالضبط صاح أحدهم: رجال الشرطة!

قبض رجال الشرطة على الخطيب. وكان هذا يتكلّم حينئذ على بؤس الشعب، ويعد بوطن جديد يكون لجميع الناس فيه العمل والخبز. ولأجل هذا جرى اعتقاله، لأجل هذا فقط. واحتجّ العمال الزنوج:

ـ آه، لا! ليس هذا، ليس هذا! إنكم لا تستطيعون...

كان أنطونيو بالدوينو يصيح هو أيضاً: ليس هذا! ليس هذا! بل كان هذا أكثر ما يروقه في المسألة. وفي النهاية ساق رجال الشرطة الخطيب، الصغير الجسم. لكن الذين بقوا التقطوا الأوراق

حيث راحت الأيدي تتداولها. وارتفعت قبضات في اتجاه الحراس الذين كانوا يبتعدون. كانت غابة من السواعد السوداء والقوية تقوم بحركة مثل من يحطم قيوداً وأغلالاً.

وكانت الصفارة تدوي عبثاً. وقد وقف رجل ضخم الجثّة، مورّد الوجه، ومسلّحاً بمظلّة، وقال وهو يكاد يختنق:

ـ أوغاد!...

من يدري إنه ليس جثة رجل منتحر هي التي اختارها البحر لتدلّ أنطونيو بالدوينو على «طريق المنزل»! أو هو اعتقال رجل يتكلم على الخبز، وحركة الآخرين، المتمرّدين؟

أعوام جيّدة، أعوام حرّة سيطر هو وجماعته فيها على المدينة، متسوّلين في الشوارع، مقاتلين في الدروب، ونائمين على الأرصفة. كانت الجماعة موحّدة، وربما كان هؤلاء الزعران الفتيان يتبادلون التقدير فيما بينهم. لكنهم لم يكونوا يعرفون أن يجسّدوا هذا التقدير إلاّ بشتائم وضربات. إنّ شتم أمّ الصديق بلا خبث، كان أفضل برهان على العطف الذي يستطيع هؤلاء الفتيان ابتكاره.

أجل، لقد كانوا موحَّدين. وحين كان أحدهم يقاتل، كان الجميع يقفون إلى جانبه. وكل ما كانوا يكسبونه. كان يوزّع أخوياً فيما بينهم جميعاً. كان لكل منهم كبرياؤه، لكنه كان يفضل مجد الجماعة.

في أحد الأيام، تورّطوا في الذهاب مع عصابة أخرى من المتسوّلين الصغار. وحين علم أنطونيو بالدوينو بوجود هذه العصابة، التي يقودها زنجي صغير في الثانية عشرة من عمره، جهد للتعارف

معهم. وأرسل إلى مقرّ قيادتهم مبعوثاً. وكان هو « الوسيم » الذي يعرف أن يثرثر. لكنهم لم يسمحوا له بمجرد الاقتراب. لقد طرد « الوسيم » بشكل مخجل، وسخروا منه، فعاد والغضب ملء فؤاده، وعيناه دامعتان. وروى كل شيء لأنطونيو.

- ألم يحدث ذلك لأنك كنت تريد لفت الأنظار، أليس صحيحاً، يا « وسيم » ؟

- إنهم لم يسمحوا لي حتى بالتكلّم... وقد قالوا فوراً كومة من القذارات حول أمّي... لكنك سترى حين أقبض على أحد منهم...

وفكر أنطونيو بالدوينو قائلاً:

- سوف أرسل « الضخم ».

اعترض « بلا أسنان »:

- إرسال ولد آخر ؟ كلا، وعلى كل حال، علينا أن نذهب جميعاً لتحطيم رؤوسهم. يجب أن نذهب نحن جميعاً. إلى الأمام!

ووافق الآخرون:

- « بلا أسنان » على حق إلى الأمام!

لكن أنطونيو بالدوينو قطع عليهم الطريق:

- كلا إطلاقاً... سوف أرسل « الضخم ». من يدري، لعلهم جائعون؛ هم أيضاً. وإذا ما اكتفوا بالشارع « الأسفل - للإسكافيين »، فإنني سأقابلهم بالسلام.

قال « بلا أسنان » ساخراً:

- هذا يعني أنك خائف منهم، يا بالدو.

وضع أنطونيو يده على خنجره، لكنه تمالك نفسه. .

ـ لا يبدو أنك تتذكّر، يا «بلا أسنان»، يوم قبضنا عليك بالجرم المشهود مع «سيسي»، كنت يومئذ تموت جوعاً في «مدينة القش»... فلو أردنا، لكان بإمكاننا القضاء عليكما أنتما الاثنين، لكننا لم نشأ ذلك...

خفض «بلا أسنان» الرأس، وراح يصفر صفرات خفيفة. ولم يعد يفكر بالأعداء في التيريرو ولم يعد يهمه الآن إذا فرّقهم أنطونيو بالدوينو أو تركهم في سلام. بل كان يفكر في أيام المجاعة، حين كان والده عاطلاً عن العمل، وكان يشرب في الحانات بالنقود التي كانت زوجته قد كسبتها كغسالة. وكان «بلا أسنان» يتذكر الضربات التي تلقاّها يوم وقف بين أبويه لانتزاع النقود من والده. وبكاء أمه.. والأب الذي كان يردد: يا لعنة اللعنات!...

وبعد ذلك، الفرار، والأيام بلا طعام في المدينة. والالتقاء بأنطونيو بالدوينو وجماعته. والحياة الجديدة... كان «بلا أسنان» يفكر في هذا كله. وأحسّ غصّة في حلقه وحقداً مخيفاً على العالم والناس.

ذهب «الضخم» في مهمّة، تحت ابتسامات «فيليب الوسيم».

ـ حين لم أستطع أنا أن أفعل شيئاً، تأتي، أنت!..

تمتم فيرياتو ـ القزم قائلاً:

ـ بلا مزاح، أليس كذلك يا «ضخم»؟ نحن لا ننشد الخصام. وما نريد، هو أن يعيش كل من جانبه.

وظلوا مترصّدين، في شارع الكنز. وقد رسم « الضخم » شارة الصليب وسار في اتجاه تيرّيرو.

وحين تأخرت عودته، قال فيرياتو ـ القزم:

ـ هم! أنا لا أحب هذا...

وقال « الوسيم » ساخراً:

ـ باه! إنه الآن يصلّي في إحدى الكنائس...

وافق سيسي على السخرية، ولكن في الواقع كان الجميع يخشون دون أن يصرّحوا، أن يكون قد حدث شيء للسفير. وفي الواقع حين عاد « الضخم »، كان ينتحب باكياً.

ـ لقد قبضوا عليّ واعتدوا عليّ بالضرب... وقد انتزعوا قلادتي التي كنت أحملها في عنقي.

ـ ولم تردّ، أنت؟

ـ كانوا خمسين ضدي!...

ثم روى قائلاً:

ـ حين وصلت، كانوا جميعاً يضحكون لما فعلوا بـ « الوسيم »... وهاجموني على الفور، ووصفوني بالخنزير. « ها هو الخنزير! » هكذا كانوا يصيحون.

قال فيليب: أنت تتكلّم عما فعلوه؟ لقد شتموا أمي...

ـ لكنني أنا لم انتبه. لقد اقتربت وأردت أن أتكلم. لكنهم لم يمنحوني الوقت. لقد قبضوا عليّ؛ حينئذ قلت إننا نريد نشر السلام... وهكذا ردّوا عليّ، بالضرب المبرّح... إنهم أكثر من عشرين..

ـ حسناً. إنهم يريدون الشجار: وسيكون هناك شجار، وعلى الفور.

حينئذ نهضوا، وانطلقوا بنشاط ومرح وهم يشدّون مداهم، وهم يتحدّثون عن أشياء متنوعة... واختفى غلمان تيريرو بعد المعركة. ويُعتقد أنهم تفرّقوا، وهم لم يعملوا منذ ذلك الحين إلاّ بصورة منفردة؛ ويبقى أنهم ما عادوا أبداً يظهرون كعصابة. وقد عادت جماعة أنطونيو بالدوينو مسرورة بالنصر، ما عدا «الضخم»، الذي لم يعثر على مداليّته.

كان «الضخم» متديّناً جداً.

لذلك رسم «الضخم» شارة الصليب، وظلّ شديد الارتجاف حين رأى بالدوينو «لندينالفا» مجدّداً. في ذلك اليوم فهم «الضخم» كل شيء، ورغم أنه لم يظهر لأنطونيوبالدوينو أي شيء، فإن صداقته معه قد تعزّزت كثيراً.

كانوا في شارع «تشيلي» حين مرّ شاب وفتاة. وانتظموا في صفّ كان على رأسه «الضخم»، واقتربوا من الشخصين. إن زوجين من العشاق يعطيان الصدقة. حينئذ وضع «الضخم» يديه على صدره، وبدأ ينشد أغنية: الصدقة، يا سيدّتي الخيّرة.

وشكلوا دائرة حول العاشقين. حينئذ تعرّف أنطونيو بالدوينو ليندينالفا على شاب يلبس في أصبعه خاتماً أحمر[1]. وعرفت ليندالفا

---

(١) في البرازيل، تميّز الحجارة الملونة المهن الحرة. المحامي يلبس في اصبعه ياقوتة حمراء، والمهندس ياقوتة زرقاء، والطبيب زمردة خضراء. الخ. (هـ. م.).

من جهتها بالدوينو، فسارعت وتحامت بحبيبها في حركة اشمئزاز وخوف. وكان «الضخم» يغنّي؛ ولم يرَ أحد شيئاً.

وصاح أنطونيو بالدوينو:

ـ هيا، ولنذهب من هنا...

فرّ راكضاً. وظلّوا صامتين من الذهول.

واستمرت ليندالفا مغمضة العينين. وسأل الشاب:

ـ ولكن ماذا هناك، يا عزيزتي؟

وكذبت قائلة:

ـ يا لفظاعة هؤلاء الغلمان...

وضحك الشاب ضحكة الحماية.

ـ يا عزيزتي، ما أشدّ خوفك!

وألقى قطعة نقود للغلمان. لكنهم كانوا قد أصبحوا بعيدين؛ كانوا يحيطون بأنطونيو بالدوينو الذي كان يخبّىء وجهه بيديه. وسأل فيرياتو ـ القزم:

ـ ماذا بك، يا بالدو؟

ـ لا شيء. إنني أعرف هذين الشخصين.

عاد «بلا أسنان» إلى المكان، وأخذ قطعة النقود. وكان «الضخم» هو الذي فهم كل شيء، وقد رسم شارة الصليب، وظلّ بقرب أنطونيو بالدوينو ليروي له قصصاً عن بيدرو مالازارتي. كان «الضخم» يعرف قصصاً كثيرة، ويرويها بصورة جيدة جداً. لكن القصة الأكثر مرحاً كانت تتحول إلى وقار في فمه: كان ثمة دائماً

ملائكة وشياطين في قصصه، لكنها كانت جميلة، وكان يبتكر أشياء، ويكذب كثيراً. وإثر ذلك كان يصدّق بشدة الأشياء التي ابتكرها.

عاشوا هذه الحياة الحرة طوال عامين. وكانوا يجولون في شوارع المدينة. وكانوا يشهدون مباريات كرة القدم، ومباريات الملاكمة. وكانوا يتقاتلون. وكانوا يندسّون خلسة في سينما «أولمبيا». وكانوا يصغون إلى قصص «الضخم»، وكل هذا دون أن يلاحظوا أنهم كانوا يكبرون، ويصبحـون رجـالاً، وأن أغنيـة التسـوّل «حـول العميان السبعة» لم تعد تناسبهم، وقد أصبحوا زنوجاً كباراً أقوياء، ضخام الأجسام، يضاجعون الخلاسيات على أرصفة الميناء، وينشرون الرعب في مدينة «باهيا» المقدسة. وبدأوا يجنون صدقات أقل، بل وفي أحد الأيام جرى اعتقالهم كمتشردّين وكمحدثي فوضى.

ذلك أن خلاسيا يلبس قبعة من القش وتحت إبطه أوراقاً ـ وكان هذا الرجل مخبراً ـ قد أخطر رجال الشرطة، الذين قادوهم إلى المركز.

وهناك لم يُقل لهم أي شيء. بل اقتيدوا في رواق معتم كان ينفذ إليه شعاع شمسي من كوّة. وسمعوا أصوات معتقلين يغنّون. ووصل حراس يُشهرون سياطاً من المطاط. فضُرب الأولاد بشدة دون أن يعرفوا لماذا، ودون أن يوجّه إليهم كلام. وقد كسبوا هناك وشمهم الأوّل. واحتفظ فيليب الوسيم في وجهه بآثار الوشم. وكان الخلاسي الذي كان السبب في القبض عليهم يمزح بمجون داعر، وهو ينفث هبّات من سيجارته. وكان السّجناء ،يغنّون في مكانهم فوق، أو تحت، أو في مكان غير معروف. وكانت أغانيهم تقول إنه في

الخارج توجد حرية وشمس. والسوط المطّاط يسوط الغلمان. وكان «بلا أسنان» يصرخ ويشتم الجميع. وكان أنطونيو بالدوينو يجهد للقيام بشغربيات[1]، وكان فيرياتو ـ القزم يعض شفتيه بغضب مسعور. أما «الضخم» فكان يتلو صلاته بصوت عال:

ـ أبانا الذي في السموٰات...

وكان السوط المطاط يسوط، ويسوط ولم يتوقف عن السواط إلاّ حين سال الدم. وكان المعتقلون يغنّون بحزن.

قضوا ثمانية أيام في السجن، وجرى تسجيلهم في محفوظات الشرطة (الفيش)، ثم أُطلق سراحهم أخيراً في صباح مشمس جداً. وعادوا إلى التسكع في الشوارع.

كانت هذه العودة قصيرة الأمد. وشيئاً فشيئاً تفرّقت الجماعة. وكان أوّل من رحل هو «بلا أسنان»، الذي أنضمّ إلى عصابة من النشّالين المتخصّصين في نشل المحفظات. وكانوا يلمحونه بين حين وآخر. وكان يمر، وهو يلبس بنطالاً منتفخاً، عاقداً وشاحاً حول عنقه، صافراً صفرات خفيفة حسب عادته. وغاب سيسي، في مكان غير معروف. وذهب جيزوينو للعمل في المصنع، وتزوج واستولد زوجته مجموعة من الأولاد. وتطوّع زيه ـ الكسول كملاّح في البحرية...

ومات فيليب، «الوسيم» تحت سيارة. كان ذلك الصباح مشمساً،

---

(١) شغربيات جمع شغربية وهي اعتقال المصارع رجله برجل خصمه وصرعه إياه بهذه الحيلة. (عن قاموس «المنهل»).

وكان فيليب أجمل منه في أي يوم آخر. بل كان وشم السوط الذي بقي على وجهه يمنحه مظهر البسالة. وكان قد لبس رباط رقبة جديداً للاحتفال ببلوغه ثلاثة عشر عاماً. وكان الآخرون يتدافعون ضاحكين. ولمع شيء ما على الإسفلت، يشبه قطعة ماس. وأعلن بالدوينو قائلاً:

ـ كأنها حلية...

ـ هذا جميل! سوف ألتقطه وألبسه في إصبعي. وستكون هذه هديّتي في عيد ميلادي...

ركض إلى وسط الجادّة. وصاح فيرياتو به لكي ينتبه، لأنّ سيارة قد وصلت. فاستدار فيليب وهو يبتسم، وكانت هذه آخر ابتسامة له. وفي اللحظة التي تلت، لم يبق منه سوى كومة من اللحم الدامي. ومع ذلك حين مات، كان وجهه ما زال مبتسماً يشكر فيرياتو الذي نبّهه. كان وجه فيليب ما زال سليماً وجميلاً، ومشعّاً، مثل وجه أمير. وأُخذت جثته إلى معرض الجثث المجهولة.

وشوهد حينئذ وصول امرأة مسنّة مخضوبة الوجه، كانت تقول بين البكاء:

ـ حبيبي... يا حبيبي[1].

كانت تقبل فيليب «الوسيم» في وجهه. وقد استعادت الجماعة شكلها لأجل دفنه. وعاد «بلا أسنان»، كما عاد جيزوينو، وعاد سيسي أيضاً من مكان غير معروف. والوحيد الذي لم يعد كان زيه ـ

---

(١) بالفرنسية في الأصل.

الكسول الذي كان بحاراً ويمـخر البحر بعيداً. وأحضرت والدة فيليب ونساء «الشارع المنخفـض» أزهـاراً. وألبسـه الغلمان بـذلـة اشتُريت من بائع ملابس تركي.

الوحيد الذي ظلّ متسولاً، هو «فيرياتو ـ القزم»، وكان يبدو كل يوم أصغر حجماً، وأكثر قماءة. وتفرق الباقون عبر المدينة لممارسة مهن مختلفة، عمالاً في المصانع، أو شغّيلة طرق، وحمالين. وكان «الضخم» يبيع الصحف، لأنه كان ذا صوت جميل. وعاد أنطونيو بالدوينو إلى «الجبل الصغير» «الخصي الزنجي»، وعاد يتسكع مع زيه ـ الأربيـان ويمارس المسـايفـة، ويعـزف على القيثـارة في الأعيـاد والاحتفالات، ويتابع حفلات الرقص السحري التي كان يقيمها الساحر جوبيابا.

كان أنطونيو بالدوينو يذهـب كـل ليلـة إلى أرصفـة المرفـأ، ويبحث في البحر عن «طريق المنزل».

★ ★ ★

مصباح الغرقى

حين اشترى أنطونيو مقهى «مصباح الغرقى»، من أرملة بحّار كان قد فتح هذا المقهى قبل ذلك بأعوام عديدة، فإن المقهى المذكور يحمل هذا الاسم ويعرض فوق الباب اللافتة السيئة الدهان نفسها، التي تمثل جنّية بحر تنقذ غريقاً. إن البحّار الذي أقام هذا المقهى، نزل في أحد الأيام من سفينة شحن ليلقي المرساة في الغرفة القديمة المعتمة للطبقة السفلى من هذا البناء الكولونيالي. وكانت عشيقته، وهي خلاسية غامقة اللون، تصنع الأرز بالحليب للزبائن، وتطعم شغّيلة الميناء.

أما لماذا أطلق على الحانة هذا الاسم «مصباح الغرقى» فأمر غير معروف. وما كان معروفاً، هو أن السفن التي عمل فيها قد غرقت ثلاث مرات متوالية، وأنه ارتاد العالم بأسره. وقبل وفاته، تزوج عشيقته ليتيح لها أن ترث المقهى، الذي كان قد أصبح كثير الزبائن. وقد باعته بدورها إلى أنطونيو الذي كان يرغب فيه منذ زمن طويل، ويجده جيّد الموقع. لكن اسم المقهى لم يكن يعجبه. كان اسماً غريب الشكل، وليس هناك سبب لوجوده. لذلك، فبعد بضعة أيام من عقد الصفقة، جرى تغيير اللافتة. كانت اللافتة تحمل رسماً ساذجاً يمثل كارافيلا [1] من عهد الاكتشافات البرتغالية، كتب تحته

---

(١) كارافيل: سفينة سريعة بثلاث صوار أو أربع.

« مقهى فاسكو دي غاما » .

ولكن حدث أن الزبائن، الذين دهشوا لاسم الحانة الجديد، لم يعودوا يدخلونها. وبين هذه اللافتة الجديدة، وتنظيف القاعة، لم يعودوا يعرفون ملجأهم القديم المعتاد، حيث اعتادوا أن يشربوا الخمرة، ويدردشوا في المساء.

كان أنطونيو متطيّراً. وفي اليوم التالي، ذهب ليبحث في غرفة المهملات عن اللافتة القديمة التي أعادها إلى مكانها فوق باب المقهى. واحتفظ باللافتة الأخرى، التي تحمل رسم كرافيل برتغالية، ريثما يملك مقهى في وسط المدينة. ومع لافتة « مصباح الغرقى »، عادت أيضاً المرأة الخلاسية الغامقة اللون، التي كانت عشيقة البحار، والتي عادت إلى إعداد « الرز بحليب » للزبائن والطبخ لعمال الميناء، والرقاد في السرير ذاته كما من قبل. والفرق الوحيد، هو أنها تنام الآن مع برتغالي ثرثار، بدلاً من البحار الصموت. وإذا ما أقام انطونيو مقهى في وسط المدينة وعلّق اللافتة التي تحمل اسم « فاسكو دي غاما »، والمزيّنة بصورة سفينة من زمن الاكتشافات، فإن الخلاسية سوف تظلّ في مقهى « مصباح الغرقى »، وتستمر في أعداد « الرز بحليب » للزبائن المعتادين، وتطبخ لعمال الميناء، وسترقد في السرير ذاته مع المالك الجديد للمقهى.

عاد الزبائن إلى مقهى **« مصباح الغرقى »**. وكان يُرى فيه بحّارة شقر وآخرون زنوج يناقشون معاً رحلات بحرية بعيدة. وكان قباطنة سفن مساحلة يتحدثون عن الأسواق الشعبية في الخليج التي كانوا يحملون إليها حمولات الفواكه. وكانوا يعزفون على القيثارة، ويغنّون ألحان « السامبا »، ويروون قصصاً تبعث القشعريرة عبر الليالي التي

تعجّ فيها النجوم.

وكان أنطونيو بالدوينو، وزيه ـ الاربيان، و « الضخم » من بين أكثر الرواد مثابرة في المقهى. وجوبيابا ذاته كان يظهر في المقهى أحياناً.

لم يكن الزنجي أنطونيو بالدوينو أفضل تلميذ لِـ زيه ـ الأربيان في فن المبارزة، بل لم يلبث أن سبق استاذه في العزف على القيثارة، وأصبح يضاهيه في الشّهرة.

وفي مرات كثيرة، حين كان أنطونيو بالدوينو يتسكّع في شوارع المدينة، كان يوقّع على قبعته القشّ لحناً ابتكره وكان يغنيّه على قياس الكلمات التي خرجت من رأسه. وكان الأمر ينتهي بصنع لحن « سامبا » جديد كان يغنيه لأصدقاء « الجبل الصغير »:

حياة طيّبة، يا جميلتي، هي حياة الزنجي...
إنه العيد كل يوم.
وهناك رقص كل مساء على البيدر.
وسمراوات لإقامة سوق شعبية.
وكانت الأغنية تحوز إقبالاً في الأعياد.
إن سيد بونفان هو قديس.
وهو يصنع خموراً حادّة جداً.
هي خمور المحبة.
وأنا شخص عادي، يا جميلتي.
وأنت التي تسبّبين شقائي.
ولم تكن أية فتاة تصمد أمام هذه الأغنية.

وفي أحد الأيام، جاء رجل حسن الهندام إلى « الجبل الصغير »

وسأل عن أنطونيو بالدوينو. فدلّوه على الزنجي الذي كان يتحدث وسط جماعة. اقترب منه الرجل وهو يجرّ عصاه وراءه.

ـ هل هو أنت، أنطونيو بالدوينو؟ وظن بالدوينو أن هذا الشخص هو من الشرطة.

ـ ولماذا تسألني هذا؟

ـ ألست أنت الذي يصنع ألحان «السامبا»؟ هكذا قال الرجل وهو يشير إلى أنطونيو بعصاه.

ـ بعض المرات، حين أُلهم ببعض الأفكار.

ـ هل تسمح بأن تغنيّ لي أحد هذه الألحان؟

ـ عن أذنك! لماذا تهتمّ بألحاني؟

ـ يمكن أن أشتري بعضها.

كان أنطونيو بالدوينو يحتاج بالضبط إلى مال، لأجل شراء حذاء جديد شاهده في سوق «أغـوا دوس منينوس». فذهب وأحضر قيثارته وغنّى عدة ألحان سامبا من وضعه. وأعجب اثنان منها الرجل.

ـ هل تريد أن تبيعني إياهما؟

ـ لماذا تريدهما؟

ـ لأنهن تعجبانني.

ـ اتفقنا.

ـ أعطيك عشرين ميلريس لقاءهما.

ـ هذا سعر جيد. وحين ستريد ألحاناً أخرى...

وسمع منـه الرجـل الألحان التي سجلهـا على قطعـة ورق ملأى بالسطور. ثم كتب الكلمات.

ـ سوف أعود لشراء ألحان أخرى...

وخرج وهو يجرّ عصاه. وفتح سكان «الجبل الصغير» عيوناً واسعة. وتمدد أنطونيو بالدوينو على باب دكان البقالة ووضع الورقتين الماليتين بقيمة عشرين ميلريس على بطنه العاري. وراح يفكر في الحذاء الجديد الذي سوف يشتريه وبقطعة القماش القطني التي سيهديها إلى «حنة».

كان الرجل الذي اشترى لحني «السامبا»، يقول، في المساء ذاته، في مقهى بوسط المدينة:

ـ لقد صنعت لحني سامبا هائلين...

وغنّى وهو يضرب باصابعه على الطاولة. وفيما بعد، سجّلَ لحنا السامبا على أسطوانات، وقُدِّما كأغنيتين في الإذاعة، وعزفِ على البيانو. وكانت الصحف تقول «إن أكبر جائزة في الكرنفال، هذا العام، قد منحت إلى لحني **السامبا** للشاعر **أنيزيو بيريـرا**. إنهما حقاً هائلان»...

لم يكن أنطونيو بالدوينو يقرأ الصحف، ولا يستمع إلى الإذاعة، ولا يعزف على البيانو. واستمر يبيع ألحان **«السامبا»** إلى الشاعر انيزيو بيريرا.

كانت حنّة تنكش شعرها. ثم تملسه بالمكواة في عناية، وتعطره بعطر يدير رأس أنطونيو بالدوينو. وكان يدسّ في عنقها أنفه الأفطس، ويرفع شعرها ويتنشق طويلاً رائحة ذلك العطر. فكانت تقول له ضاحكة:

ـ هل ستسحب خرطومك من هنا؟

وكان هو يجيب، ضاحكاً أيضاً:

ـ ما ألذّ هذه الرائحة!

كان يقلبها على السرير. وكان صوت حنّة يقول، وقد أصبح بعيداً:

ـ نذل!

في اليوم الذي ظهر أنطونيو منتعِلاً حذاءه الجديد، وحاملاً تحت ذراعه قماشة النسيج القطني الهندي، لصنع فستان لحنّة، كانت هذه بالضبط تغنّي أحد ألحان السامبا التي باعها أنطونيو إلى الشخص صاحب العصا. وقال لها أنطونيو بالدوينو:

ـ ألا تعرفين يا حنّة؟ حسناً. لقد بعت هذا اللحن.

ـ كيف، بعته؟ كانت تتساءل كيف يمكن أن يباع لحن «سامبا».

ـ هناك شخص جاء إلى «الجبل الصغير»، واشترى مني لحنين لقاء عشرين ميلريس. ألا إنه عمل جيد...

ـ ولكنْ ماذا كان يريد أن يصنع به؟

ـ وهل أعرف؟ إنه، في نظري، شخص أبله.

راحت حنّة تفكر. لكن أنطونيو بالدوينو أعطاها قطعة القماش:

ـ بالنقود اشتريت لك هذه.

ـ ما أجملها!

ـ وانظري إذا كنت أنيقاً بهذا الحذاء الجديد.

وارتمت على عنق أنطونيو بالدوينو الذي كان يقهقه ضاحكاً،

كان يجد الحياة جميلة، وكان مسروراً لأنه قام بعمل جيّد، وكسب في صفقة رابحة. وحين كان يتنشّق عطر حنّة من عنقها، أخذت تغني له لحنه «السامبا». إنها الشخص الوحيد الذي غنّاه وهو يعرف أنه هو واضعه ـ حقاً.

ونبهها أنطونيو بالدوينو:

ـ اليوم سنذهب إلى احتفال «الماكومبا» عند جوبيابا. إنه العيد، يا طفلتي.

وذهبا إلى احتفال «الماكومبا»، ثم تمدّدا على رمل الساحل، حيث مارسا الحب بجنون. ذلك لأن انطونيو بالدوينو، بامتلاكه حنّة، كان يتصور أنه يضاجع ليندينالڤا.

كانا يذهبان بانتظام إلى مقهى **«مصباح الغرقى»**. ومع ذلك فإن حنّة لم تكن تحرص على ذلك إطلاقاً:

ـ أنت تفهم، إنه مكان لا ترى فيه سوى النساء الطائشات... ويمكن أن يعتقد الناس أنني واحدة منهن أنا أيضاً.

كانت حنّة تعمل نادلة في مطعم بشارع «النصر» وتسكن في غرفة صغيرة في حي «الكنتاس». وكانت تروق لها ممارسة الحب في المرفأ. أما مقهى «مصباح الغرقى» فلم تكن تذهب إليه إلا لإرضاء رغبة بالدوينو. وحين كانا يذهبان إليه معاً، كان يجلس معها إلى طاولة على حدة، شارباً البيرة ومجيباً بابتسامة الآخرين الذين كانوا يحيّونه. كان يأتي ليظهر عشيقته، وبعد ذلك كان ينصرف وهو يغمز بعينه وكأنه يشير إلى ما سوف يفعلان.

لكن بالدوينو كان كل يوم تقريباً يلاقي في هذا المقهى صديقه

« الضخم »، ويواكيم، وزيه ـ الأربيان. كانوا يشربون الخمرة، ويروون طرائف ويضحكون كما يعرف الزنوج وحدهم أن يضحكوا. وفي مساء عيد ميلاد « الضخم »، ظهر في المقهى **فيرياتو ـ القزم**. لقد تغيّر كثيراً في الأعوام الأخيرة.

طبعاً لم يكن قد أصبح أطول قامة ولا أقوى بنية، لكنه كان يلبس أسمالاً رثّة، ويسير متوكئاً على هراوة مقطوعة بفجاجة.

ـ لقد جئت لأشرب نخب صحّتك، يا « ضخم »...

وطلب « الضخم » الخمرة. وسأله أنطونيو بالدوينو:

ـ كيف الحال، يا فيرياتو؟

ـ كما ترى...

ـ هل أنت مريض؟

ـ كلا، وهذه (مشيراً إلى هراوته) لأجل التسوّل. وابتسم ابتسامته المعتادة، الماكرة.

ـ لماذا لم نعد نراك؟

ـ حسناً، أنت تعلم... أنا منهوك... وهذا لم يعد يعني لي أي شيء...

ـ لقد ذكروا لي أنك كنت مريضاً؟

ـ صحيح! نوبة ملاريا. لقد التقطني « الإسعاف »... فإذا عدت ومرضْتُ، فإنني أفضّل أن أموت في الشارع.

قَبِلَ السيجارة التي قدمها له يواكيم.

ـ لكنك شفيت الآن، قال بالدوينو.

ـ شفيت، لا. فالحمّى تعاود الكرّة. وفي أحد هذه الأيام، سوف

أنفُق في الشارع مثل كلب.

مدّ «الضخم» يده على الطاولة نحو فيرياتو:

ـ كلا، يا أخي العزيز. إنك لن تموت.

وحاول يواكيم أن يضحك:

ـ البذرة السيّئة، تنبت من جديد، دائماً. لكن فيرياتو تابع كلامه:

ـ هل تذكر روزاندو يا أنطونيو بالدوينو؟ لقد انتابه المرض، لكن أمه جاءت وأخذته. بل إنني أنا الذي عثرت عليها. وفيليب، الوسيم. حين مات، جاءت والدته إلى الدفن. وكل تلك الأزهار، إنها هي التي أحضرتها. ثم جاءت نساء أخريات... قاطعه يواكيم:

ـ كان بينهن امرأة لها ساقان رائعتان...

ـ الجميع لهم أم، وأب، وأحد ما. أما أنا فليس لي أحد إطلاقاً. ألقى سيجارته في زاوية، وطلب كأساً أخرى من الخمرة. كان «الضخم» يرتجف. وكان انطونيو بالدوينو ينظر إلى كأسه الملأى بالخمرة.

ونهض فيرياتو ـ القزم:

ـ إنني أزعجكم...

سأله يواكيم: هل ستذهب الآن؟

ـ أريد أن أتسوَّل عند خروج الناس من السينما.

انصرف وهو يجرّ جسمه على عصاه، محدودباً، رثّ الأسمال.

قال يواكيم:

ـ لقد اعتاد الآن على أن يسير بهذا الشكل.

ـ لماذا لا يتكلم إلا عن الأشياء المحزنة؟ سأل «الضخم»؛ لكن

هذا كان يؤلمه، لأنه كان طيّباً جداً.

ـ إنه يعرف أكثر منك. هكذا أكد أنطونيو بالدوينو.

على الطاولة المجاورة. كان خلاسي يعتمر بـ« عرقية » يوضح لأحد الزنوج قائلاً:

ـ لقد أمر موسى البحر بأن ينفتح، واجتازه مع جميع المسيحيين. واحتجّ الضخم قائلاً:

ـ ما كان يجب أن يفعل هذا اليوم، بمناسبة عيد ميلادي.

ـ أن يفعل ماذا؟

ـ أن يتكلم عن أشياء محزنة... لقد أفسد ذلك الاحتفال.

ـ كلا. سوف نذهب لنقيم القصف في منزل زيه ـ الأربيان. وسوف نأخذ معنا نساء، قال أنطونيو بالدوينو.

دفع « الضخم » ثمن الخمرة. وعلى الطاولة المجاورة، كان الخلاسي يروي قصة الملك سليمان الذي كانت لديه ستمئة امرأة.

ـ ألا إنه لفحل عظيم! هكذا قال بالدوينو وهو ينفجر ضاحكاً.

قاموا بالقصف والمجون، وشربوا كثيراً من الخمر، وقبّلوا فتيات جميلات، لكنهم لم يتمكنوا من نسيان فيرياتو ـ القزم، الذي لم يكن لديه أحد يعتني بنوبات الحمّى التي تنتابه.

كانت حنّة تثير مشاكل لبالدوينو بسبب عشيقاته الأخريات. كان يعتمد على قواه كشاب في الثامنة عشرة من العمر، وكان يتمتع بمكانة كبيرة لدى الخادمات الصبايا، والغسالات والبائعات الصغيرات

في محلات الحلوى والمكسّرات. كان يعرف كيف يتحدث معهن. وينتهي دائماً إلى اصطحابهن إلى الساحل حيث كانوا يتدحرجون على الرمل.

كان يضاجعهن ثم لا يعود يراهنّ. كن يمررن في حياته مثل السحب التي تمرّ في السماء، وكانت توحي له بتشابيه شعرية.

ـ عيناك سوداوان كأنّهما السحب.

ـ آي، سوف تمطر السماء...

ـ إذاً، هيّا بنا إلى المنزل... أنا أعرف مكاناً نكون فيه على انفراد.

لكن حنّة، من جهتها، كان لديها العطر العظيم في عنقها. كانت تتعلّق به، وتغضب حين تعلم بأنه ضاجع فتاة ما، وهناك من يقول إنها صنعت له سحراً لتتأكدّ من إخلاصه. لقد علقت على كلسون عشيقها ريش دجاجة سوداء مع خمسة دراهم نحاسية. ووضعت كل ذلك على باب أنطونيو بالدوينو، في ليلة كان القمر عندها بدراً كاملاً.

وفي يوم العيد، في منزل أرلاندو، أحدثت حنّة مشكلة صاخبة، وذلك فقط لأن أنطونيو بالدوينو رقص عدة مراة مع دلفين، وهي خلاسية صغيرة شقراء. وأرادت حنّة أن تضرب الخلاسية، ووصل بها الأمر إلى خلع حذائها. وكان أنطونيو بالدوينو، الذي كان هذا الخصام يمتعه، يضحك مقهقهاً بشدة.

ولدى عودتها إلى المنزل، سألته حنّة:

ـ ماذا وجدت في هذا البعير؟

ـ هل أنت تغارين منها ؟

ـ هذه الجلدة العتيقة... إنها تتساقط قطعاً نظـراً لأنها متعفّنـة.
لا ، بل إنني اتساءل ماذا أمكنك أن تجد فيها.

ـ هذا أمر لا تستطيعين معرفته... ربما كانت لديها أسرار.

وضحك من هذه المسألة، وتدحرج معها على السرير وهو يتنشّق عطر عنقها.

كان يتذكّر كيف تعرّف إليهـا. كـان ذلـك في عيـد «النهـر الأحمر». وقد تميّزها من بعيد، وهو يعزف على القيثارة. وقد مالت إلى حبّه على الفور. وفي اليوم التـالي، وكـان يـوم أحـد، التقيـا، وحضرا حفلة سينما أولمبيا النهارية. وقد روت له قصة معقّدة جداً لتثبت له أنها عذراء، وانتهى به الأمر إلى تصديقها. ومال إلى التخلّي عنها، لكنه ذهب رغم ذلك إلى الموعد المتّفق عليه ليوم الخميس التالي، لأنه لم يكن لديه ما يفعله في ذلك المساء. وقد تنزّها في «كامبو غراندي»، وهو لم يكن يقول شيئاً، لأنها كانت عذراء، وهو لا يهتّم بالعذارى. وعند لحظة تركه للعودة إلى عملها صارحته قائلة:

ـ اسمع، لقد رأيت أنك شاب طيب ولائق جداً، لذلك سأقول لك الحقيقة. إنني لست عذراء.

ـ يا لها من مسألة!

ـ إنه عمي. عمي الذي كان يسكن عندنا. منذ ثلاث سنوات، في يوم كنت فيه وحيدة، وكانت أمي قد ذهبت إلى العمل...

ـ ووالدك؟

ـ لم أعرفه أبداً. لقد اغتنم عمي الفرصة وامتلكني بالقوة.

ـ هذا شيء مخجل، أكد أنطونيو بالدوينو، الذي كان يجد في الأساس، العم على حق في ما فعل.

ـ ولم أعرف أبداً أيّ رجل بعد ذلك،لكنك، الآن، تروق لي.

هذه المرة لاحظ انطونيو بالدوينو أنها تحاول إقناعه بكلام فارغ، لكنه لم يقل شيئاً. ومنعها من العودة إلى عملها في ذلك المساء. ونظراً لأنه لم يكن لديه أي مكان يأخذها إليه، فقد ذهبا إلى ساحل الميناء، تجاه البحر والسفن. وفيما بعد، استأجرا الغرفة الصغيرة في حي «الكنتاس» حيث كانت حنّة تروي له يومياً الأكاذيب وتخلق له مشاحنات.

لم يعد الزنجي يصدّقها، وبدأ يملّ عشرتها.

كان في مقهى «مصباح الغرقى» ذات مساء طقس رديء حين دخل «الضخم»، مبهور الأنفاس، ولاحظه يواكيم الذي كان يتحدث مع أنطونيو بالدوينو: «ها هو الضخم».

ـ هل تعلمون ماذا حدث؟ لقد عثر عمال المرفأ على جثة.

لم يتأثروا البتة: كان ذلك شيئاً اعتيادياً.

ـ إنه فيرياتو...

ـ من؟

ـ فيرياتو ـ القزم.

خرجوا راكضين. كانت الجثة هناك، على حافة الرصيف. كانت

جماعة من الرجال تحيط بها. ولا بد أنها قضت ثلاثة أيام تقريباً في الماء، لأنها قد انتفخت. كانت العينان المفتوحتان على اتساعهما تبدوان وكأنهما تتفحصانهم. وكانت الأسماك قد قرضت نصف أنفه وكان يُسمع صوت غريب تحدثه السلطعونات الصغيرة في داخل الجثة.

أخذوا الجثة وحملوها إلى مقهى **«مصباح الغرقى»**. وجمعوا طاولتين ووضعوا الغريق فوقهما. كانت السلطعونات تعج تحت بشرته. وكانت كأنها جلاجل ترنّ رنيناً خفيفاً. وجاء أنطونيو من مكتب الادارة بشمعة ليضعها في اليد التي ما عادت تنفتح. وقال يواكيم:

ـ لقد كبر منذ أن مات.

وكان «الضخم» يصلي.

ـ يا لَلمسكين! ليس له أحد...

وجاء بعض الشاربين للفرجة. وكانت النساء ينظرن ثم يبتعدن خائفات. وكان أنطونيو مازال يحمل الشمعة، ذلك لأنه لم يكن لدى أحد الشجاعة لوضعها في يد المرحوم. تناولها أنطونيو بالدوينو واقترب من الميت. وفتح يده الكثيفة ووضع الشمعة بداخلها.

قال أنطونيو: لقد كان وحيداً تماماً. كان يبحث عن طريق المنزل فأخذ البحر...

لم يكن أحد يفهم معنى ما يقوله أنطونيو بالدوينو. وسأل أحدهم أين يسكن فيرياتو. وكان جوبيابا الذي وصل منذ قليل يسأل ماذا كان يحدث.

ـ كان يبحث عن عين الرحمة، أيها الأب جوبيابا! لكنه لم يعثر عليها أبداً، ولذلك انتحر. لم يكن لديه أب ولا أم، ولا أحد يعنى به. لقد مات لأنه لم يعثر على عين الرحمة. لم يكن أحد يفهم ما يقال، لكن رعشة انتابتهم حين قال جوبيابا

oju ānun fō ti ikā, li ô kú

كان «الضخم» يروي بكثير من التفاصيل المؤثرة قصة «فيرياتو ـ القزم» لأحد الرجال الذين كانوا يشربون الخمرة. وحسب قول الضخم، فقد رأى فيرياتو يوماً ثلاثة ملائكة وامرأة ترتدي الثوب الأحمر وهي أمه، وكانت تدعوه إلى السماء. حينئذ ألقى بنفسه في الماء.

وفجأة، وسط كل هؤلاء الناس، أحس أنطونيو بالدوينو أنه موجود وحده مع الجثة، وأحسّ بالخوف، خوفاً مجنوناً. وأخذ يرتعد، وأسنانه تصطك. كان يتذكرهم جميعاً: عمته لويزا التي أصابها الجنون، وليوبولد الذي اغتيل، وروزاند المريض وهو يدعو أمه بصيحات قوية، وفيليب، «الوسيم» تحت السيارة، والعجوز سالوستيانو الذي انتحر على رصيف الميناء، وجثة فيرياتو ـ القزم، التي كانت السلطعونات تعجّ في داخلها، محدثة صوتاً كالجلاجل.

وفكر أن الجميع، الموتى والأحياء، كلهم أشقياء، وكذلك الذين سوف يولدون بعد اليوم. وكان يتساءل: لماذا؟

وأطفأت العاصفة ضوء «**مصباح الغرقى**».

ماكومبا

في البدء جرى الابتهال إلى **إيشو،** لتلافي إخلاله بنظام الاحتفال. ورحل **إيشو** إلى بعيد جداً، إلى أفريقيا، أو إلى **بيرنانبوك.**

كان الليل يتغلغل في حميمية المنازل، فكان ليل الخليج (باهيا) لجميع القديسين.

كانت تصل من منزل الأب جوبيابا القديس، أصوات قرع الطبل، والدفوف ورنين الجلاجل والقرعات، أصوات «**الماكومبا**» التي كانت تمضي لتغيب في غمزات النجوم. وعند الباب كانت زنجيات يبعن مآكل **الأكاراجيه والأبارا.**

بيد أن **إيشو،** الذي جرى التوسّل إليه، ذهب ليعكّر احتفالات أخرى، في البعيد، في مزارع القطن في فيرجينيا، أو في **الريو،** في الكاندومبليه لجبل «فاڤيلا» الصغير.

كانت الفرقة الموسيقية في عمق القاعة، في زاوية، على الأرض المفروشة باللّبن. وكانت الألحان الرتيبة ترنّ في جمجمة الحضور. إنها موسيقى تثير الأعصاب، موسيقى حنين، موسيقى قديمة قدم العِرق، كانت تخرج من الطبول والدفوف والجلاجل والقرعات.

كان الحضور، المنتشرون في دائرة على طول الجدران، يثبتون

عيونهم على **الأوغانات**[1] الذين كانوا يظلون جالسين في وسط القاعة، مشكلين شكلاً مربعاً. وحول «الأوغانات» كانت تدور جماعة **الفيتاس**.والأوغانات هم شخصيات مهمة، لأنهم أعضاء في الكاندوبليه، والفيتاس هن الكاهنات، أولئك اللواتي يستطعن استقبال **القديس**. كان انطونيو بالدوينو **أوغاناً**، ويواكيم أيضاً، أما «الضخم» الذي لم يصبح أوغاناً بعد، فكان موجوداً في مكان ما، بين الحضور، كتفاً لكتف مع شخص أبيض، نحيف وأصلع، كان يتابع المشهد بانتباه شديد جداً، ويجهد في العزف الموسيقي وهو يضرب على ركبتيه. وباقي الحضور كان يتألف من خلاسيّين، مشدودي الأجسام إلى زنجيات ضخمات، يلبسن تنانير وقمصاناً صغيرة مكشوفة الأكتاف، وعقوداً جميلة حول أعناقهن. كانت **الفيتاس** يرقصن على إيقاع بطيء، وهن يهززن أجسامهن.

وفجأة استقبلت القديس زنجية عجوز كانت تسند ظهرها إلى الجدار الرئيسي، قرب الرجل الأصلع، وكان جسمها، منذ بعض الوقت، يهتزّ بهياج في هزات عصبية. أجل، لقد استقبلت القديس. وأُخذت إلى الحجرة الصغيرة، ولكن لم يجر إطلاعها على الطقس في المنزل ذاته، وبقيت في الحجرة إلى أن تخلّى عنها القديس ليلتقط زنجية شابة، أُدْخِلت بدورها إلى غرفة الكاهنات.

كان القديس الذي ضاجعها هو **شانغو**، إله البرق والرعد، ونظراًلأن القديس الإله قد اختار هذه المرة جسد زنجية مطّلعة على

---

(١) واحدها أوغان وهو مغن أو موسيقي في الاحتفالات الدينية الفولكلورية لزنوج باهيا (البرازيل).

الأسرار الكبرى، فإن الزنجية الصغيرة قد ظهرت في ملابس قدّيس: ثوب أبيض ولآلىء بيضاء، موشحة بالأحمر. وكانت تمسك بيدها عصا صغيرة.

وشَدَت والدة «التيريرو» بنشيد ترحيب بالقديس:

edurô dêmin lonan, ô ajé!

وأجاب الحضور في جوقة:

à umbô k'ô vvájô!

وكانت أم التيريرو تقول إثر ذلك في نشيدها الـ nagô:

أفسحوا لنا المكان، لأننا سنرقص. كانت الكاهنات يحطن بشكل دائرة بـ«الأوغانات». والحضور يكرمون القدّيس، وأيديهم مفتوحة، والسواعد مثنية في زوايا مستقيمة، والراحات مدارة نحوه:

ـ أوكيه!

وكان الجميع يصيحون:

ـ أوكيه! أوكيه!

كان الزنوج، والزنجيات، والخلاسيون، والرجل الأصلع، و«الضخم»، كان كل الحضور يشجّعون القديس:

ـ أوكيه! أوكيه!

حينئذ نفذ القديس إلى دائرة المطّلعين على أسرار الديانة، وراح يرقص هو أيضاً. كان القديس هو شانغو، إلّه البرق والرعد: كان يلبس لآلىء بيضاء موسومة بالأحمر على ثوب أبيض. وقد دخل وحيّا جوبيابا الذي كان في وسط «الأوغانات»، ذلك لأنه كان أكبر من جميع آباء القديس. ثم استدار جوبيابا وهو يرقص، وجاء

ليحيّي الرجل الأبيض والأصلع الذي كان قد جاء إلى هنا، بدعوة من جوبيابا. وكان القديس يحيّي شخصاً وهو ينحني ثلاث مرات أمامه، ثم كان يعانقه.

كانت والدة **التيريرو** تغني الآن:

Iya ri dé gbé ô

Afi dé si ómón lôvvô

Afi ilé ké si ómón lerun

وهذا يعني:
الأمّ تتزيّن بالحليّ.
وهي تضع لآلىء في أعناق صغارها.
ثم تضع لآلىء أخرى في أعناق صغارها.
وهنا كانت تصدر عن الأوغانات والحضور سلسلة من الكلمات الصوتية التي تحاكي صوت اللآلىء المتصادمة.
Omirô wónrón wónrón êmiro.
كانت حنّة قد بدأت ترقص، وكأنها في حالة بحران، حين «أخذتها» أومولو، إلّهة المثانة.

ودخلت حنّة إلى الحجرة، وخرجت منها بعد قليل مرتدية تنورة متعدّدة الألوان يسودها اللون الأحمر الفاقع، مع بنطال مطرز يظهر تحت الثوب. كان جذعها عارياً، باستثناء وشاح أبيض معقود على النهدين. كان جذع حنّة مكتملاً، وثدياها الصلبان يدفعان حلمتيها المروّستين عبر الوشاح. ولكن لم يكن أحد يتعرف فيها على الزنجية حنّة. حتى ولا أنطونيو بالدوينو الذي كان يرى فيها عشيقته التي ترقد بلا أحلام على رمال الميناء. وهذا الجذع كان جذع أومولو،

إلّهة المثانة، المخيفة. وكان الصوت الرتيب لوالدة التيريرو يحيّي دخول الإلٰهة:

edurô dêmin lonan ôyé !

قرع الطبول والدفوف، والقرعات، ورنين الجلاجل، موسيقى رتيبة، لاذعة، تثير الجنون. وكان الحضور يتجاوبون في جوقة:

A umbô k'ô wagô

كانوا يحيّون القديس.
ـ أوكيه! أوكيه!

حينئذ جاءت أومولو التي كانت ترقص في دائرة المطّلعين على أسرار الديانة، لتحيّي أنطونيو بالدوينو. ثم حيّت أولئك الذين كانوا من الحضور «يستطيعون الدخول إلى المنزل». وحيّت «الضخم»، وحيّت الرجل الأصلع.

أصبح الجميع الآن متهيّجين، والجميع يريدون الرقص. وجاءت أومولو لأخذ النساء من الحلقة والرقص. وكان سحر محفوف بالأسرار ينتشر في القاعة، يأتي من القديسين، ومن الفرقة الموسيقية، ومن الأناشيد الدينية، وعلى الأخص من جوبيابا، المئويّ السن، والصغير الجسم.
وأخذوا ينشدون في جوقة أغنية أخرى من احتفال «الماكومبا»:

Eôlô bisi ôb' ojá gba kô a péhindá

وكان معنى ذلك:
ـ الكلب حين يسير يبدي ذيله.

وحينئذ ظهر أوشوسّي، إلّه الصيد البرّي. كان يرتدي ملابس بيضاء وخضراء، مع قليل من الأحمر، ويحمل قوساً مرخيّة وسهماً يتدلّيان عن جانب الحزام. ومن الجانب الآخر كانت جعبة معلقة. وكان يعتمر بخوذة معدنية، تعلوها قطعة قماش أخضر، ويحمل مِنشَّة بيده.

كانت أقدام النساء الحافية تضرب التراب المخفوق. وكانت أجسامهن تتبع الطقس الديني. وكان العرق يسيل، وكان الجميع مأخوذين بالموسيقى وبالرقص. وكان «الضخم» يرتجف بكل أطرافه ولم يعد يرى أي شيء سوى أشكال النساء، المشوّشة والقديسين والآلهة المتقلّبين من الغابة النائية. كان الرجل الأبيض يهتزّ: وقال للطالب:

ـ لم أعد أستطيع التحمّل. سأرقص...

كان القديس يحيّي جوبيابا. وكانت سواعد تشكل زوايا حادة تكرّم أوشوسي، إلّه الصيّد البريّ. وكانت شفاه تشدّ، وأيد وأجسام ترتجف، في بحران الرقص المقدّس. وفجأة، امتلك أوشالا ـ وهو أكبر الآلهة ـ وهو ينقسم إلى شخصين: أوشوديان الشاب، وأوشولوفان المسن ـ ماري ـ الملوك، وهي زنجية صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها، وذات جسم بكر وأملس. وأصبحت أوشولوفان، وأوشالا العجوز، المنحني الظهر، والمستند إلى عصا من الضوء. وحين خرجت من الحجرة الصغيرة، كانت تلبس ثياباً بيضاء ناصعة. وحيّاها الحضور راكعين حتى الأرض:

ـ أوكيه! أوكيه!

وحينئذ فقط غنّت أم **التيريرو**:

Einun ojá l'a ôló, inun li ôlô

وهذا يعني :

تهيّأوا يا أهل السوق الشعبية

سوف نجتاح السوق الشعبية .

وكان الحضور يرددون في جوقة :

Erô ójá para mon, ê inun ôjáli ôló

انتباه ، أيها الاصدقاء ، سوف ندخل السوق الشعبية .

أجل ، كانوا سيدخلون السوق الشعبية ، لأنه كان يوجد بينهم أوشالا ، أكبر الآلهة الزنوج جميعاً .

إن أوشولوفان ، العجوز أوشالا ،لم ينحن إلاّ لجوبيابا . ثم رقص بين المطّلعين على أسرار الديانة . وأخيراً ، تعثّرت ماري ـ الملوك ، وسقطت على الأرض . لكنها استمرت في الرقص ، وكان جسدها يوقّع تشنجّاته ، ويسيل الزبد من فمها ومن فرجها .

أصبح الجميع مجانين في القاعة ، الجميع يرقصون ، على وقع الطبول ، والدفوف ، والجلاجل والقرعات . وكان القدّيسون يرقصون أيضاً على إيقاع الموسيقى الأفريقية القديمة ؛ كان الأربعة كلهم يرقصون وسط المطّلعين على أسرار الديانة ، وحول **الأوغانات** . وكان بينهم أوشاسي ، ملك الصيد البري ، وشانغو ، إلّه البرق والرعد ، وأومولو ، إلّهةالمثانة ، وأوشالا ، أكبر الآلهة جميعاً ، الذي كان ينتفض على الأرض .

على المذبح الكاثوليكي ، في إحدى زوايا القاعة ، كان القديس جورجيوس يمثّل أوشوسي ؛ والقديس جيروم يمثل شانغو ، والقديس روش يمثّل أومولو ، والسيد بونفان يمثل أوشالا ، الأكبر إعجازاً من

جميع قديّسي المدينة السوداء. وهو الذي يُقام له أجمل عيد، ذلك لأن عيده مماثل تماماً لطقس الكاندونبليه، أو لطقس «الماكومبا».

وفي القاعة قدّم للحضور، ذرة مشوية، ثم قدم له أمعاء التيوس والغنم، مع الأرز. وفي ليالي «الماكومبا» كان زنوج المدينة يتجمّعون على **تيريرو** جوبيابا، ويحدث بعضهم بعضاً عن أعمالهم. وكانوا يقضون الليل خارج منازلهم يتحادثون، ويناقشون أحداث الاسبوع. لكنهم في هذه الليلة لم يكونوا يشعرون بأنهم مرتاحون تماماً، بسبب الرجل الأبيض الذي جاء من بعيد جداً لحضور **ماكومبا** الأب جوبيابا. وقد أكل الرجل الأبيض كثيراً من أمعاء التيوس، مع الأرز. وكانوا ما يزالون يلحسون شفاههم. كان أنطونيو يعرف أن هذا الرجل الأبيض يؤلّف أغنية عن البطولات الزنجية الشعبية، وأنه يجوب العالم. وظنّ أنطونيو باديء بدء بأن الرجل الأبيض هو بحّار. وكان الضخم يؤكد بأنه شحّاذ متسكّع. وفي الواقع ،فقد أُحضر إلى هنا من قبل الشاعر الذي اشترى أغاني السامبا من بالدوينو. كان هذا الرجل الأبيض يريد أن يرى احتفالات **«الماكومبا»**، وقد قال له الشاعر إن أنطونيو بالدوينو هو الذي كانت له مكانة كافية للحصول على قبول الرجل الأبيض في «ماكومبا» جوبيابا. ولكن بالرغم من جميع المدائح التي أضفيت على أنطونيو بالدوينو، فإنه لم يكن مستعداً كثيراً للتحدّث عنه مع جوبيابا. إن إحضار رجلٍ أبيض إلى احتفالات «الماكومبا»، وعلى الأخص رجل مجهول، لم يكن من المستحسن فعله، فربما كان من رجال الشرطة، وجاء إلى هنا فقط لأجل الأذيّة. وفي أحد الأيام اعتقل رجال الشرطة جوبيابا، وقضى الأب القديس ليلته في السجن مع إيشو. وقد لزم أن

يذهب زيه ـ الأرابيان، الذي كان يُحسن تدبير الأمور أفضل من أيٍّ كان، لاستعادة الأوريشالا (جوبيابا) من السّجن، خادعاً الشرطيَّ المناوب في الحراسة. وحين عاد جوبيابا، المتككع، مخبئاً إيشو تحت سترته، ساد الحضور فرح كبير. واستمرت «الماكومبا»، في تلك المرة، طوال الليل، لأجل تهدئة إيشو، الذي غضب عن حق، وكان يستطيع الانتقام بتعكيره الاحتفالات التالية.

لاجل ذلك كان بالدوينو متردّداً في إحضار الرجل الأبيض. ولم يقرّر التحدّث عنه إلى جوبيابا، إلاّ بناءً لإلحاح الطالب الزنجي الذي كان صديقه، والذي كان يتوسّل:

ـ إنني أضمن هذا الرجل... وأنا أثق به مثل ثقتي في نفسي.

حينئذ أراد الزنجي أن يعرف كل شيء عن حياة هذا الأبيض. وحين علم بأنه يجوب العالم، لكي يرى كل شيء، ثار حماسه. ومن يدري فلعلّ هذا الرجل سوف يكتب في يوم من الأيام أغنية خاصّة به.

استأذن الأبيض للانصراف، وليس دون أن يؤكّد لجوبيابا أنه لم يرَ قبلاً أروع من هذا الاحتفال. وذهب الطالب معه، وحينئذ فقط تنفّس الزنوج الصعداء. لقد أصبح بإمكانهم أن يتحدثوا عن شؤونهم، وأن يتكلموا عما يحّبونه، ويقولوا أكاذيب كبيرة.

قال روزادو لبالدوينو:

ـ هل رأيت وشمي الجديد؟

ـ لا.

كان روزادو بحّاراً يمرّ في باهيا بين حين وآخر. وفي أحد الأيام قدم أنباء عن زيه ـ البليد الذي كان يمخر البحار البعيدة، والذي

أصبح يتكلم بلغة الغرينغو (أهل الولايات المتحدة). وكان جنبا روزادو تكسوهما كليهما وشوم بأسماء نساء. وكان هناك أيضاً وشم يمثل إناء زهور، وخنجراً. والآن وضع وشماً يمثل رأس ثور وسوطاً.

كان يضحك. وأبدى أنطونيو بالدوينو، مع نبرة حسد:

ـ لا بأس...

ـ الحقيقة، يا صغيري، أنه كان يوجد على متن السفينة رجل أميركي وشم بطنه بصورة تمثل خريطة العالم. إنها شيء رائع...

تذكر أنطونيو بالدوينـو الرجل الأبيض. كان يجب أن يرى هذا. لكنه ذهب، وكأنما هو يفرّ لكي لا يثير خجل الزنوج. إن أنطونيو بالدوينو سوف يَشِم جسمه، هو أيضاً، لكنه لم يكن يعرف بعد ماذا ستمثّل وشومه. وفي الأساس، كان يحبّ البحر كثيراً، ويحب شارع «زومبي النخيل». ويوجد زنجي، على رصيف المرفأ، وشم على جنبه اسم زومبي، بالحروف الكاملة.

ابتسم داميان، الزنجي المسنّ، الأبيض الشعر:

ـ هل يروق لك أن ترى وشوماً؟

قام جوبيابا بحركة لمنعه. لكن داميان كان قد خلع قميصه وظهرت بشرته. كان ظهره يحمل أثر السوط. لقد تلقّى السياط في مزارع الاقطاعيين في زمن الرقّ. ولاحظ أنطونيو بالدوينو تحت آثار السيوط حرقاً:

ـ ما هذا، يا عمّ؟

حين فهم داميان أن الأمر يتعلق بالحرق، خجل فجأة وأخفى ذلك. ولزم الصمت وراح ينظر إلى هناك، إلى المدينة المضاءة كلياً.

وكانت ماري ـ الملوك تنظر إلى أنطونيو بالدوينو. إن الزنوج الذين كانوا أرقّاء يمكنهم أيضاً أن يكون لديهم سرّهم.

انصرفت حنّة، وقلبها مليء بالحسد، وعادت ماري ـ الملوك هي أيضاً إلى بيت أمها. حينئذ نزل أنطونيو بالدوينو مع «الضخم» ويواكيم. كان يحمل قيثارته، استعداداً لحالة القصف والمجون.

لكن «الضخم» لم يتأخّر في الانصراف، ذلك لأنه كان يسكن بعيداً. كان ينزل عند جدّته، وهي امرأة في الثمانين، لديها لحية صغيرة، وقد فقدت منذ زمن طويل أي حسّ بالواقع. وكانت تسكن عالماً على حدة، وتخلط في أحاديثها الأحداث والأشخاص، دون أن تصل أبداً إلى نهاية. والحقيقة أنها لم تكن جدّة «الضخم». فالضخم قد اختلق هذه القرابة، ذلك لأنه كان يحسّ بالخجل من الإنفاق على هذه العجوز التي كانت، قبل الالتقاء به، بلا مسكن. لكن الأمر كان وكأنها جدته فعلاً: كان يقضي ساعات في التحادث معها، وكان يعود إلى المنزل في ساعة مبكرة لكي لا يتركها وحيدة. وأحياناً كان الناس يلتقون بـ «الضخم» وهو يحمل ثوب قماش، وكانوا يعتقدون أنه من أجل حبيبته.

ـ إنه لأجل جدتي، المسكينة... إنها تبلي ملابسها كثيراً، لأنها ترقد على الأرض الوسخة. وقد سقطت في الخرف...

ـ قل لي، يا «ضخم»، هل هي جدتك لناحية أبيك، أم لناحية أمك؟

ارتبك «الضخم». كان الآخرون يعرفون جيداً أن «الضخم» لم يعرف أباه ولا أمه. ولكن كان «للضخم» جدة، وكان الكثيرون

يحسدونه عليها.

حين ذهب «الضخم»، نزل أنطونيو بالدوينو ويواكيم على المنحدر وهما يصفران لحن «سامبا». وكان المنحدر صامتاً ومقفراً. ولم يكن هناك سوى نافذة واحدة مضاءة، نافذة منزل فقير، كانت امرأة قد نشرت عليها غسيل ثياب المولود الجديد. وكان يُسْمع في الحجرة صوت رجل:

- أيها الفتى الصغير... أيها الفتى الصغير...

ولاحظ يواكيم قائلاً:

- اعرف شخصاً سوف ينام في العمل غداً... إنه يمارس مهنة مرضعة جافّة الثديين.

وسأل أنطونيو بالدوينو:

- هل لاحظت كم هو طيّب، «الضخم»؟

- طيب؟ لم يلاحظ يواكيم ذلك.

- أجل، طيب... إنه شخص طيب. إنّ عين الرحمة لديه مفتوحة.

استمرّا في النزول، بصمت. كان بالدوينو يستعيد في ذاكرته منظر احتفال «الماكومبا»، والرجل الأصلع الذي جاب العالم. لقد انصرف الرجل، هذا صحيح، لقد فرّ هارباً. واعتقد أنطونيو بالدوينو أن ذلك الرجل لم يكن سوى بيدرو مالازارته. لكنه فرّ حين رأى أن الزنوج يحسّون بالخجل. وتذكّر «زومبي النخيل». ولو كان هناك «زومبي» آخر لما كان هذا الزنجي العجوز يتلقّى ضرب السياط. وذلك الأبيض الذي انصرف... في يوم من الأيام سوف

يكتب أغنيته عن البطولات الشعبية، أغنية بطولية سيتغنّى فيها بمآثر كبيرة لزنجيّ حرّ، مبتهج وقاطع طرق، شجاع مثل سبعة.

ولدى تفكير أنطونيو بالدوينو بهذا استعاد مرحه. وضحك قائلاً:

ـ ألا تعرف شيئاً، يا يواكيم؟ سوف أفضّ بكارة تلك الزنجية الصغيرة...

ـ أيهنّ؟ أصاخ يواكيم بسمعه.

ـ ماري ـ الملوك، تلك التي امتلكها الآله أوشالا. الصغيرة...

ـ هذا وهم، يا بالدو. إنها مخطوبة لرجل عسكري. سوف تورّط نفسك في ورطة قذرة.

ـ في ماذا؟... أنا أقول لك إنها تحبني، السمراء الصغيرة... وليذهب الجندي إلى الجحيم...

كان يواكيم يعرف جيداً أنه لو كان بالدوينو يريد حقاً البنت الخلاسية، فإنه لن يهتم كثيراً بالجندي. لكن يواكيم لم يكن يحب المشاكل مع العسكريين، فنصح انطونيو بالدوينو قائلاً:

ـ دع السمراء الصغيرة وشأنها، يا بالدو....

ولم ينس يواكيم سوى شيء واحد: وهو أن أنطونيو بالدوينو حين سيموت، فإنه ستكون له أغنية خاصة به، وأن جميع أبطاله الذين تتغنّى بهم الأغاني الشعبية يحبّون بصورة رومانسية عاهرات لمدة ليلة، وأنهم في اليوم التالي يتشاجرون مع عسكريين.

سارا في المدينة السفلى التي كانت راقدة. ولم يلتقوا بأحد

يشربون معه ويغنّون. وكان مقهى «مصباح الغرقى» قد أقفل أبوابه. ما من أحد في الشوارع، ولا زنجية، يمكن أخذها إلى الساحل الرملي. وما من حانة يشربان فيها خمرة «ذيل الديك[1]». كانا يسيران وهما يتنشّقان الهواء؛ كان يواكيم يتثاءب. وسلكا زقاقاً وشاهدا زوجاً من الخلاسيين، يبدوان كعاشقين جديدين.

أشار يواكيم:

ـ إنها خلاسية، أيها الأخ الطيّب.

ـ جيّد، يا يواكيم. هذه لنا...

ـ لكنها مع ذكر فحل، يا بالدو.

ـ سترى أنني أعرف اللحن..

بوثبة انقضّ أنطونيو بالدوينو على الخلاسية. ضربها بلطمة شديدة، فسقطت المرأة على بلاط الشارع.

ـ «إذاً».

ـ أيتها القذرة، ما عاد عليك أن تنزعجي! في حين أعمل أنا، تأتين لحكّ جسدك بالرجال... ألا تخجلين؟

ثم التفت نحو الخلاسي. وأبدى هذا اعتذاره، قبل أن يقول له بالدو أي شيء.

ـ أهذه صديقتك؟ ما كنت أعرف، أنا...

---

(١) خمرة «ذيل الديك» Rabo de gallo، هذا المعادل الحرفي لكلمة «كوكتيل». يدل بصورة عامة على مزيج من خمرة القصب وشراب الكشمش (هـ. م.).

ـ صديقتي؟ تقصد زوجتي! لقد تزوّجنا في الكنيسة، هل سمعت؟ في الكنيسة...

كان يتقدم نحو الرجل.

ـ ما كنت أعلم. اعذرني... لم تقل لي أي شيء...

وابتعد وهو يتلوّى في مشيته، واختفى في أوّل منعطف. كان أنطونيو بالدوينو يضحك مثل مجنون. وظلّ يواكيم على بعد، ليدع لهما مجالاً للتفاهم كرجلين. وحين اقترب، قال له بالدوينو:

ـ هل رأيت العملية؟

كان الاثنان يضحكان بأعلى صوت، ضحكة يمكن أن توقظ المدينة. وارتفعت ضحكة أخرى من الأرض. كانت المرأة التي تنهض من سقطتها. خلاسية درداء[1]، كان هذا واضحاً جداً، ولم تكن تساوي هذه المأثرة. ولكن نظراً لعدم توفّر أفضل من ذلك، قرّرا أخذها إلى الساحل الرملي. ومرّ أنطونيو أولاً، ثم جاء دور يواكيم:

ـ لا أسنان لها، لكنها تفعل المسألة جيداً، قال يواكيم.

أجاب بالدوينو: بخٍ بخٍ! لم يكن الأمر يستحقّ..

تمدد على الرمل، وتناول قيثارته، ونقر على الأوتار. ووضع يواكيم رجليه في الماء. واقتربت منهما المرأة التي انتهت من تسوية ثيابها، وراحت تغنّي الأغنية نفسها التي كان يغنّيها أنطونيو على

---

(١) امرأة بلا اسنان.

عزف القيثـارة بصوت منخفض في البدء ، ثم بعد قليل بصوت عالٍ ، وكان لها صوت جميل ،غريب ، شبه رجولي . كانت تملأ أرصفة الميناء بصوتها ، وذلك بحيث استيقظ البحارة النائمون في السفن الساحلية . وظهرت وجوههم من كوى المراكب . وبزغ النهار .



ملاكم

كان منزل جوبيابا صغيراً لكنه جميل. وكان مزروعاً وسط أرض على «**الجبل الصغير**» المسمّى «**خصي الزنجي**»، مع مصطبة (تيريرو) كبيرة أمامه، وخلفه كانت تقوم باحة.

كان يتألّف كله تقريباً من قاعة كبيرة. وكانت تُرى بين مقعدين خشبيّين طاولة كان يتناول عليها جوبيابا الطعام مع زائريه، وكرسي للراحة متّجه نحو غرفة النوم. وعلى المقعدين الخشبيين حول الطاولة كان زنوج وزنجيات يتحادثون. وكان بينهم أيضاً شخصان اسبانيان ورجل عربي. وكانت على الجدران صور كثيرة، مؤطّرة بأصداف بيضاء ووردية، وتمثّل الصور أقارب الرجل القدّيس وأصدقاءه. وعلى طاولة مزخرفة كان تمثال أسود للإلّه أوريشالا متآخٍ مع صورة السيد بونفان (أحد قدّيسي الكاثوليك). وكانت صورة تمثّل الرجل القدّيس ينقذ سفينة غارقة. وإلى جانبه تمثال أجمل أيضاً: وهو يمثّل زنجية ذات جسد حلو القسمات، تحمل بيدها نهداً منتفخاً، مثل قربان. كانت تلك هي يانسان، إلّهة المياه، يسميّها البيض القديسة بربارة.

خرج جوبيابا من غرفة، وهو يلبس بلوزة مطرّزة تتدلّى حتى قدميه، وكانت تلك لباسه الوحيد. ونهض زنجي عن الطاولة لمساعدة الأب في الجلوس.

قبّل الزنوج كل بدوره يد جوبيابا. ثم جاء الاسبانيان، ثم الرجل العربي. كان أحد الاسبانيين يشكو من تقيّح لثته. وكان يحيط عنقه بمنديل. اقترب من الأب القديس وقال:

ـ أيها الأب يوبيابا، لديّ سن لعينة توجعني... كارامبا[1]! يا استطيع معها أن أعملش[2] كارامبا! لقد أنفكت[3] ثروة عند حتيم الاسنان[4]...

نزع المنديل. كان الورم هائل الضخامة. وأمره جوبيابا:

ـ اصنع شاي الخُبّازى، وصلّ، هكذا: أيها القديس نيكوديم، اشف سنيّ! نيكوديم، اشف سني. اشف سني. ...سني.

وأضاف جوبيابا:

ـ سوف تقوم بالصلاة على الرمل. وستكتب على الرمل، وفي كل مرة ستمحو كلمة. ثم ستذهب إلى المنزل، وستغلي نقيعاً. ولكن بدون الصلاة، لا ينفعه أي شيء... هل فهمت؟

ترك الاسباني خمسة أوراق مالية من فئة الميلريس، وذهب لينفّذ الوصفة.

ثم جاء زنجي يريد أن يصنع رقية سحر. وهمس ببضع كلمات في أذن الأب القديس. فنهض هذا، يساعده الزنجي، ودخل إلى

---

(١) كارامبا! شتيمة باللغتين الاسبانية والبرتغالية.

(٢) الاسباني هنا يخطيء في كلامه، وهو يريد أن يقول: لا أستطيع معها أن اعمل. (هـ. م.).

(٣) يقصد: أنفقت (هـ. م.).

(٤) عند حكيم الاسنان. (هـ. م.).

الحجرة. وبعد بضع دقائق عادا، وفي اليوم التالي كان يمكن رؤية رقية سحر لا رحمة فيها ـ دقيق المنيهوت وزيت **الدندية** ممزوجين، وأربع أوراق نقدية من فئة ميلريس مقطّعة، وفلسين، وأخيراً طائر بغاث صغيراً ما زال حيا ـ وأمره بوضعها كلها على باب **هنريك باديرو**، الذي مات بعد وقت قصير إثر مرض غريب وسرّي.

كانت زنجية تريد هي أيضاً أن تصنع رقية سحرية، لكنها لم تتكلم بصوت منخفض، أوه! كلا، إنها لم تدخل إلى الغرفة... **وقالت** أمام الجميع:

ـ إن مارتا عديمة الحياء قد أخذت زوجي مني. وأريد أن **يعود** إلى بيتنا، ـ (كانت الزنجية ثائرة). عنديأولاد ،أماهي فليس لديها أولاد...

أجاب جوبيابا: خذي قليلاً من شعرها، وأحضريه إليّ، وأؤكد لك بأن كل هذا الأمر سوف يسوّى.

ثم استمرّ مرور الزوار. جميع هؤلاء الزنوج يريدون رقى سحرية. وقد بارك بعضهم بغصن من بقلة الحُرْف. وعلى هذا النحو امتلأت المدينة في فجر اليوم التالي برقى سحرية كان المارّة يبتعدون عنها مظهرين التقى. وكان جوبيابا يستقبل أيضاً أشخاصاً من علية القوم، دكاترة يلبسون الخاتم[1]، وأغنياء، يأتون بالسيارات.

حين دخل أنطونيو بالدوينو القاعة، كان ثمة جندي يتحدّث مع

---

(١) من الشارات المنوّه عنها في ملاحظة سابقة، وهي شارات تضعها كل فئة معينة من الناس حسب مراتبهم ووظائفهم. (هـ. م.).

الأب القديس. وكان يحاول أن يتكلم بصوت منخفض، لكنه كان منفعلاً بحيث سمعه الجميع يقول:

ـ ... يبدو أنها لم تعد تحبني... وهي تتظاهر بأنها لا تسمعني.. ورأيي أنها تحب رجلاً آخر... لكنني لا أستطيع أن أتركها، يا أبتاه... إنني أريدها لي.

كان صوته مشوباً بالبكاء. وطرح جوبيابا سؤالاً، وأجاب:

ـ إنها ماري ـ الملوك...

انتفض أنطونيو بالدوينو، ثم ابتسم. وجهد لسماع التتمة، ولكن كان جوبيابا قد شيّع الجندي:

ـ سوف تحضر لي شيئاً من شعر إبطها، وكذلك سروالاً لك: وسأجعلها لا تهجرك بعد ذلك... وستتبعك إلى كل مكان، مثل كلب.

خرج الجندي، منخفض الرأس، دون أن ينظر إلى أحد، وهو يجتهد ليمرّ دون أن يلاحظه أحد.

اقترب أنطونيو بالدوينو من جوبيابا، وجلس على الأرض.

ـ يبدو أنه يحب الصغيرة فعلاً...

ـ هل تعرفها يا بالدو!

ـ أليست هي التي امتلكها الإلّه أوشالا، في الاحتفال؟

ـ الجندي يحبّها، وهو يريد أن أكتب له رقية سحر... انتبه، يا بالدو...

ـ ليس هو الذي يستطيع أن يزعجني!

ـ إنه عاشق...

ـ أجل، وهذا ظاهر من تصرفاته...

ظلّ بالدوينوفترة يحكّ الأرض بقطعة خشب. كان مقبلاً على الثامنة عشرة من عمره، لكنه يبدو في الخامسة والعشرين. كان قوي البنية مثل شجرة، حراً مثل حيوان، ويملك أقوى ضحكة في المدينة.

وترك حنّة فجأة، ولم يعد يقابل الخلاسية التي بلا أسنان، والتي كان لها صوت رجل يغنّي الأغاني الشعبية البطولية، ولم يعد يريد أن يسمع الحديث عن الزنجيات اللواتي يؤخذن إلى الساحل الرملي.

كان يحوم برفقة «الضخم» حول سكن ماري ـ الملوك، وقد ابتكر من أجلها أغنية شعبية تقول:

أنت التي أحبك، يا ماري.

يا ماريا، قلبي لك.

وإذا كنت آذيت الناس.

فأنت الآن تؤذينني.

هذا اللحن السامبا، لم يبعه. بل غنّاه في احتفال كانت تحضره ماري ـ الملوك، وهو ينظر إليها. وارتبك الجنديّ. غير عارف ماذا يفعل: إنه لم ينجح بعد في الحصول على بعض شعر إبط خطيبته، ليحمله إلى جوبيابا.

وكانت ماري ـ الملوك تكتفي بالابتسام. وقد نظرت إلى الجندي بعينين حزينتين لأنها كانت تعلم جيداً بأنه عاشق لها، وأنه من أجلها لن يتردّد في قتل رجل. وتذكّر الرسالة التي بعث بها إلى إشبينتها الدونا برانكا كوستا، طالباً فيها الزواج. وهذه الرسالة، احتفظت بها ماري في المنزل، في قعر الصوان. وقد جاء فيها:

يا صاحبة السعادة الكبيرة سينهورا دونا برانكا.

تحيّات عاطرة وبعد.

اليوم أو كلا أبداً[1] أحس بانني محمولاً نحو فردوش حكيكي ولذيذ حين يسوده بالنسبة لي المشاعر الخميمة والملائمة أرى من الوازب علي أن أصارح سعادتك بأنني أحب حباً نقياً ومقدساً ماريّاك المحترمة.

حبي لن تكون له نهابة. وإنها مع تطزور الأوقات وإذا سمخت عطفك أن تعطيننا الشعادة والبهزة لازدهاز أبدي. وهكذا إظن أستفرص المناشبة مع هظه المشاغر الحميمة لأطلب من سعادتكم يد ماريّاك اللتيفة والفاتنة.

وياما سيكون شعادتي لامتلاك هذه الدرة المصون لقلبك المريح، الذي سوف أبزل زهدي لأرضي سعادتكم وكل أولائيك الأقربائيون لها ولك. وذلك في أقلب فلصة.

على أمل أن تتناظل سعادتكم لاعطائي زواباً بالقبول، أترك القلم لأكدم لسعادتكم أن تكبلوا مشاعري الأكصر احتراماً.

التوقيع: أوزوريو

من الغرفة ١٩.

لم تكن الدونا برانكا تريد أن تتزوج ماري ـ الملوك عسكرياً، لكن ماريا ألحّت لدرجة أنها تركت في النهاية منزل اشبينتها. وقد تحدّد إجراء العرس في شهر آب بعد أن يحصل أوزوريوعلى رتبة عريف، التي وعده بها النقيب. وفي ذلك الحين، تعرفت ماريا ـ

---

(١) نترجم هذه الرسالة مع أخطاء مرسلها الجندي في التعابير ورسم الكلمات حفاظاً على روح النص الساخر. (هـ. م.).

الملوك، في احتفال **الماكومبا**، بأنطونيو بالدوينو، هذا الشخص المضحك السيِّىء السمعة، الذي كان يؤلف ألحان أغاني **«السامبا»**. وهو لم يرسل رسائل، ولم يتكلم عن زواج. وقد اكتفى بأن دسّ في يدها هذه البطاقة في **احتفال ريبيرينيو**:

طيها من هذه الزاوية يعني: نعم.

طيها من هذه الزاوية يعني: لا.

نفسي تئنّ من أجلك
وستكون سعيدة إذا قبلت
يا آنستي
اعترافاً بحبها العميق
ترك البطاقة سليمة بلا مسّ
سيعطيني أملاً

خبّأت ماري البطاقة في صدرها. ثم سارعت وحبست نفسها في غرفةريبيريو حيث كدّست قبعات الرجال وقيثارة أنطونيو بالدوينو. إن كانديدا، التي رأت البطاقة، رافقت ماريا إلى الغرفة:

ـ من الذي أرسلك، أيتها الصغيرة؟

ـ احزري...

فكرت قليلاً، ـ حقاً، لا، لست أدري.

ـ إنه أنطونيو بالدوينو.

ـ شه! لكنه ليس رجلاً، هذا... إنه الشيطان يلبس ثياب

رجل... فمعه، جميع النساء ينقلبن ـ . احذري، يا صغيرتي ماري ـ الملوك...

ـ لست أرى لماذا.

ـ وأوزوريو ؟

كان أوزوريو هو العسكري. ظلّت ماري ـ الملوك ساهمة، وبدلاً من أن تطوي الزاوية التي تقول نعم، أعادت البطاقة سليمة لم تمسّ. ولكن كان الأمر بالنسبة لأنطونيو بالدوينو وكأنها طوت الزاوية التي تقول نعم.

الآن سوف يتحدث قليلاً معها عند باب شارع **بروتاس**، في الأيام التي كانت لدى الجندي فيها خدمة. ولم يكن الجندي يستطيع أن يأتي إلا في أيام الخميس، والسبت، والأحد. وكان باقي أيام الأسبوع لأنطونيو، الذي كانت يداه تعرفان جيداً أشكال الجسد الصغير البكر. وفي أحد أيام الاحتفال في **كابولا**، ذهبت ماري ـ الملوك إليه مع صديقة لها. والتقتا ببالدوينو في الساحة. وكان الزنجي باهر الأناقة: حذاء أحمر وقميص أحمر. وكان يدخن سيكارا بفلس. وجرى الحديث. وتوقف أنطونيو بالدوينو أمام لعبة يانصيب، واشترى رقماً لماريا. أداروا ورقة اليناصيب الملونة ورأوا العدد ٤١. وذهب صاحب المحل، وهو اسباني ضخم الجسم، ليرى ما يربحه العدد. وصاح:

ـ ٤١. علبة بودرة.

وكانت قد كتبت على العلبة رباعية شعرية صغيرة

أرى في المستقبل دموعاً وبكاء
ومنازعات وشجاراً
بسبب قضية حب
لم ينتبه لها المحب.

وتهلّل أنطونيو بالدوينو مازحاً. لكن الحزن لاح على وجه ماري ـ ملوك.

ـ ماذا لو جاء أوزوريو، هيه؟

كان الأمر كأنه مقصود. كان أوزوريو، ببزّته العسكرية الكاملة، يتقدّم نحو الجماعة. وكان أوّل متكلم:

ـ كان لديّ الحق بأن أحذر... ولكنني ما كان يمكن أن أصدق هذا. كلا، ما كان يمكن أن أصدق هذا...

كان صوته شاكياً، مثل نشيد في كنيسة. وأثناء كلامه، خبأت وجهها بيديها. كانت الصديقات يضحكن، لإخفاء قلقهن، وهنّ يردّدن: «السيد أوزوريو، إنك لن تفعل هذا...».

ـ هيا ولنتقاتل، قال أنطونيو الذي وقف وقفة التأهّب.

رفع الجندي يده ليصفع أنطونيو، لكن الزنجي تحامى الضربة، «وفركش» الجندي الذي وقع على الأرض. ثم نهض، وقد أشهر سيفه بيده. وفتح أنطونيو بالدوينو مديته:

ـ تعال إلى هنا، إذا كنت رجلاً!

كانت ماري ـ الملوك تتوسّل:

ـ بالدو، كفّ بحق الله!...

وكانت الصديقات يعلنّ:

ـ يا سيد أوزوريو... يا سيد أوزوريو...

ـ لا يجب أن تعتقد أن عدتك العسكرية تخيفني، قال بالدوينو، وانتزع سلاح الجندي الذي كان قد أصيب في وجهه بجرح.

حين سقط سيف الجندي على الأرض، ألقى أنطونيو مديته، وانتظر أوزوريو في إحدى الزوايا المظلمة. وتجمّع الناس؛ رجال الشرطة، وتقدم جنود آخرون. انقضّ أوزوريو على بالدوينو، وتلقى إحدى تلك الكلمات التي كان بالدوينو يعرف سرها... فوقع الجندي أوزوريو على الأرض، وأمسك غرينغو[1] الذي كان ينظر نظرة خبير إلى المشهد بذراع أنطونيو قائلاً:

ـ اذهب من هنا، لقد جاء الجنود، قتالك جيد... يجب أن نلتقي مرة أخرى...

التقط الزنجي مديته، وشقّ طريقه نحو منزل ماري ـ الملوك. لقد حان الحين: فمن جميع زوايا الشوارع كان يبرز جنودٌ، حين رأوا رفيقهم جريحاً، أخذوا ينهالون بالضرب على الناس. وأصبحت المعركة شاملة.

خبأت ماري ـ الملوك أنطونيو بالدوينو في غرفتها هي بالذات، دون أن تلاحظ والدتها النائمة أي شيء. وحين خرج الزنجي في الصباح الباكر، كان جسد ماري ـ الملوك ما زال طرياً ودافئاً، لكنه

---

(١) غرينغو: لقب الأميركي الشمالي في بعض بلدان أميركا اللاتينية (هـ. م.).

لم يعد بكراً. كان ذلك أيضاً أفضل من أوشالا، أعظم القدّيسين.

وبعد ذلك ببضعة أيام، في مقهى «مصباح الغرقى» التقى بالدوينو بالأمريكي الذي ساعده على الفرار. كان داخلاً مع «الضخم» حين سمع همسة «بيست».

ـ ها قد مرّ زمن طويل وأنا أبحث عنك. لقد بحثت عنك في كل مكان. فأين كنت مختفياً بحق الشيطان؟

كان الأمريكي يسحب الكراسي، ويقدم سجائر. وجلسا. وشكر بالدوينو.

ـ لولاك لكانت مصيبتي شديدة وسط كل أولئك الجنود!

ـ لقد ضربت بقبضتك ضربة جميلة جداً... أجل إنها ضربة جميلة جداً.

وسأل «الضخم» الذي لم يحضر المشهد قائلاً:

ـ أية ضربة بالقبضة؟

ـ تلك التي وجهها إلى الجندي... كانت تلك ضربة بديعة، وحق العذراء!

وطلب جعته.

ـ هل سبق أن مارست الملاكمة؟

ـ كلا، لكنني تعلمت المسايفة.

ـ ...سألتك عن الملاكمة، لأنه، إذا شئت أنت، يمكن أن تصبح بطلاً...

ـ بطل؟

ـ أجل، وأنا المسؤول عن ذلك، وحق العذراء!... يا لهذه

القبضة.... إنها هائلة...

وتأمّل يدي الزنجي القويتين جداً. وجسّ كتفيه وذراعيه.

ـ بطل، أقول... بطل... كان يبدو أنه يأسف على أوقات أخرى.

ـ يكفي أن تريد ـ ذلك...

لم يكن أنطونيو يطلب أفضل من ذلك.

ـ وكيف؟

ـ يمكنك الذهاب إلى الريو، ثم من يدري؟ إلى أمريكا الشمالية...

واحتسى بعض الجعة:

ـ لقد كنت مدرّباً في الماضي... وقد أعددت ملاكمين هم اليوم أبطال في جمع البلدان... حسناً، ولم يهزم أي منهم أبداً... شيء رائع!...

حين خرجوا من الحانة، كان أنطونيو بالدوينو قد ارتبط مع المدرّب لو يجي، وتمّ الاتفاق على أن «الضخم» سيذهب معهما، بصفته معتنياً بأنطونيو. وخرجوا ثلاثتهم سكارى بعض الشيء. وفي اليوم التالي قال أنطونيو لماري ـ الملوك: الآن، يا صغيرتي، أصبحت شخصاً مهماً، أنا ملاكم. وأريد أن أكون بطلاً. ثم سأذهب إلى الريو ومن ثم إلى أميركا الشمالية...

ـ إذاً، أنت ذاهب؟

ـ سآخذك معي، يا صغيرتي.

كان ذلك أفضل أيضاً من **أوشالا**، كبير القدّيسين.

بعد ذلك ببضعة شهور، أعلن عن المباراة الأولى في الملاكمة. كان يجري الحديث حينئذ عن بالدو، الزنجي. وكان لـويجي يمنح مقابلات صحفية، بل إن إحدى الصحف نشرت صورة أنطونيو بالدوينو، وهو يمدّ إحدى ذراعيه. والأخرى في وضع دفاع. وقد ألصقت ماري ـ الملوك تلك الصورة على جدارها.

كان الخصم يُدعى جانتي (« اللطيف ») ويقول عن نفسه إنه بطل بحريّ للوزن الثقيل. وكان في الحقيقة عامل تفريغ في الميناء.

وفي ساحة الكاتدرائية تجمّع كل هواة الملاكمة، مع كل الزبائن المعتادين لمقهى « مصباح الغرقى »، بمن فيهم السيد أنطونيو، وسكان « الجبل الصغير ـ خصي الزنجي » وأصدقاء بالدوينو، بكامل عددهم.

وصعد الحكم بادىء بدء إلى الحلبـة. كـان رقيبـاً مـن الجيش، بملابس مدنية. وقد قال:

ـ سوف نشاهد الآن معركة غـاضبـة. وأطلـب مـن الجمهـور الصمت، والتصفيق.

ثم ظهر « الضخم »، حاملاً دلواً وزجاجة. ثم جاء رجل أصفر البشرة، كان يحمل نفس الأشياء، واتخذ مكانه في الجانب الآخر من الحلبة. ثم حضر أنطونيو بالدوينو، يرافقه لويجي. إن كل أهالي « الجبل الصغير » وزبائن « مصباح الغرقى »، وبحارة سفن المساحلة والمراكب الشراعية، قد صاحوا:

ـ أنطونيو بالدوينو! أنطونيو بالدوينو!

وقدّمه الحكم:

ـ بالدو، الزنجي.

ثم جاء دور الخصم، الذي صفقّ له الحضور:

ـ إنه «جانتي»، بطل جميع الأوزان في بحريّتنا المجيدة.

تصفيق شديد وهتافات. لكن أصدقاء «الجبل الصغير»، وبحارة السفن المساحلة، ورواد الخمارة كانوا ينظرون إلى الخلاسي بسخرية:

ـ سوف يتلقى الضرب اللائق برتبته. كان انطونيو بالدوينو ينظر إلى خصمه، ويبتسم، وكان لويجي يكثر النصائح:

ـ اضرب بقوة، على الفم، وعلى العينين، اضرب بكل قواك...

كان «الضخم» عصبياً، وكان يصلّي لأجل انتصار صديقه. لكنه تذكّر أن الملاكمة هي خطيئة وكفّ عن الصلاة، وقد انتابه الخوف.

دقّ جرس، وسار الخصمان أحدهما نحو الآخر. وكان الجمهور متحمساً جداً، إلى درجة الهذيان.

فقد أنطونيو بالدوينو المباراة لأنه استعمل في لحظة معيّنة ضربة مسايفة[1]. لكن المعركة أظهرت مواهبه المرموقة كملاكم. ولم يقبل الجمهور الحُكم، وصفروا ضدّ الحَكَم. الذي اضطر الشرطيون لحمايته.

---

(١) الفرق بين أصول اللعب في المسايفة والملاكمة، هو أن الأولى تسمح بتوجيه الضربات إلى الخصم على جميع نواحي جسمه، في حين تمنع الملاكمة كما هو معروف الضرب تحت الحزام (هـ. م.).

وظهرت في الصحف صورة جديدة لبالدوينو، بل إن إحدى الصحف راجت رواجاً واسعاً لنشرها سيرة حياة الزنجي. وقد كشف ذلك عن أن أنطونيو بالدوينو كان واضع ألحان لأغاني «السامبا»، كان ينتحلها الشاعر أنيزيو بيريرا، وأثار ذلك فضيحة في مجتمع المدينة الأدبي.

ونال بالدوينو الحق في إجراء مباراة الثأر. وكان جمهور الحضور كبيراً، وهذه المرة حاز تصفيق الجميع، وليس فقط تصفيق رفاق الجبل الصغير والبحارة ورواد مقهى «مصباح الغرقى». وقد راهن السيد انطونيو بعشرين ميلريس على أنه سيكون الغالب. وحين أعلن الحكم:

ـ هذا بالدو، الزنجي.

صفق الحضور جميعاً له وهتفوا.

وفي الجولة الخامسة لم يعد الخلاسي «جانتي» بطل البحرية. كان ثاوياً على الحلبة، بلا حراك. وكان «الضخم» يمسح عرق صديقه أنطونيو. وإثر ذلك، ذهب الحضور معاً إلى حانة «مصباح الغرقى» ليشربوا بالعشرين ميلريس التي كسبها السيد أنطونيو.

وبالنسبة للسفر، فإن ماري ـ الملوك هي التي سافرت. فقد رزقت إشبينتها بطفل جديد، وعيّن زوجها، وهو موظف رسمي، في المارانيون. وقد رافقتهم ماري ـ الملوك. وقد اغتم أنطونيو لذلك، لأن رحيل ماريا كان يمنعه من التفكير في لاندينالڤا، الفتاة الصبيّة ذات الوجه الشاحب الذي يشوبه النمش.

في تلك الليلة شرب حتى سَكِر. بل إنه لدى نظره إلى السفينة

التي كانت تقلّ حبيبته فكر في التطوّع كبحار. ومن جهتها، فإن ماري ـ الملوك أخذت معها صورته الجميلة، التي يمدّ فيها ذراعه، والوجه الباسم بالفم والعينين.

وتغلب على جميع الملاكمين الذين قاموا بينه وبين بطل باهيا، وهو ملاكم يدعى فيسنتي، الذي كان قد كفّ عن الملاكمة، لعدم وجود خصوم من مرتبته. ومع ذلك، فقد بدأ الناس يتحدثون عن بالدو وانتصاراته المتكررة، فعاد فيسنتي إلى التمرين، وبدأ يخاف على لقبه. إن لويجي، الذي جُنّ من الفرح، لم يعد يتكلم إلاّ عن الذهاب إلى الريو. بيد أن أنطونيو بالدوينو كان يعرّي على الساحل الرملي خلاسيات، ويشرب الخمرة في حانة «مصباح الغرقى»، ويدوّي في شوارع المدينة صوت ضحكته النقية.

وجاء إلى تلك الأماكن بطل من الريو دي جانيرو. وتحدّى الجميع، وأحدث ضجة كبيرة: وحدّد له لقاء مع أنطونيو بالدوينو. ولم تعد المدينة تفكر إلا في الصراع الذي سينشب بين البطلين.

وعشية المعركة، كان أنطونيو بالدوينو آخذاً بالمزاح والضحك في حانة «مصباح الغرقى» حين جاء لمقابلته امبريزاريو خصمه.

وقبل أسبوع، كانت المدينة قد امتلأت بالملصقات. وهذه الملصقات كانت تحمل في زواياها صوراً للملاكمين.

وفي مقابلة مع الصحف، أعلن فيسنتي أنه سوف ينتصر في الجولة السادسة. وردّ أنطونيو بالدوينو في اليوم التالي بأن البطل الباهياني «سيعضّ التراب» في الجولة السادسة. وتبادل الخصمان الشتائم،

وتحمّس الجمهور كثيراً. وقد جرت مراهنات كثيرة، وكان بالدوينو هو الملاكم المفضل لدى الجمهور.

وفي الواقع، فقبل الجولة السادسة كان فيسنتي يثوي فعلاً على الحلبة، وأصبح بالدو، الزنجي، بطلاً باهيانياً لجميع الأوزان.

وأعطى حقّ مباراة الثأر لفيسنتي. ولكن بالدو حاز على انتصار جديد وعظيم.

ـ مساء الخير..

ـ مساء الخير.

وقدم له أنطونيو بالدوينو قنينة جعة.

ـ أود أن أقول لك كلمتين على انفراد.

ذهب «الضخم» ويواكيم وجلسا على طاولة أخرى.

ـ إليك ما أريد قوله... إن كلوديو، كما تعلم، لا يمكن أن يقبل غلباً.

ـ آه، ولماذا؟

ـ ...للسبب التالي: إنه يكلفني غالياً جداً. فإذا هزمته، فإنه لن يستطيع أن يلعب هنا. أليس هذا صحيحاً؟

ـ حَسَن.

ـ لكنه إذا تغلّب فسيواصل الملاكمة... وسوف استعيد نفقاتي.

ـ وما معنى ذلك؟ ماذا تريد؟

ـ إنني أعطيك مئة ميلريس لكي تدع كلوديو يغلبك. وبعدئذ، نعطيك مباراة الثأر.

رفع أنطونيو بالدوينو يده، لكنه عاد وألقاها على الطاولة.

ـ هل تكلّمت مع لويجي؟
ـ لويجي شخص مغفّل... ولا يجب أن يتدخّل في هذا الأمر.

وابتسم الوكيل ـ المنتج.

ـ على كل حال، قبل الذهاب سوف تمنح أنت مباراة الثأر... هل يناسبك هذا؟
ـ هل لديك النقود؟
ـ سأعطيك إياها بعد المباراة.

ـ غير ممكن البتة... أنا لا أوافق... أما إذا وافقت على إعطائي النقود الآن..

ـ وماذا؟... ماذا إذا كسبت أنت؟
ـ وإذا انهزمت، هل ستمرّ النقود تحت أنفي؟

نهض أنطونيو بالدوينو واقفاً. وكان «الضخم» ويواكيم يتابعان المشهد من على الطاولة الأخرى.

قال الامبريزاريو:
ـ لا داعي للغضب، أرجوك أن تجلس...

كان يراقب الزنجي الذي احتسى جرعة من الخمرة.
ـ أنا لي ثقة بك... خذ النقود من تحت الطاولة...

أخذ أنطونيو بالدوينو النقود. وعد خمسين ميلريس.
ـ لقد قلت أنت مئة ميلريس...
ـ سأعطيك الخمسين الباقية بعد المباراة..
ـ هذا غير ممكن.
ـ ليست لدي، أحلف بشرفي.

ـ الآن، أو ليس أبداً.

وتلقى أنطونيو الخمسين الناقصة، وسار نحو طاولة «الضخم». وحين خرج الامبريزاريو، قهقه أنطونيو بالدوينو ضاحكاً. حتى وجعه بطنه من الضحك.

وفي اليوم التالي، بعد المباراة، وهزيمة بطل الريو المثيرة، عاد الامبريزاريو لمقابلة أنطونيو بالدوينو، في مقهى «مصباح الغرقى». وكان هناك إحساس بأن شجاراً سيحصل.

ـ أنت نصّاب..

أخذ أنطونيو يضحك ساخراً.

ـ سوف تردّ لي نقودي!

ـ السارق المسروق، شيء جيد.

ـ سأذهب إلى الشرطة، وإلى الصحف...

ـ اذهب إلى من شئت.

ـ لصّ قذر، سارق خسيس!

وبدوره تدحرج الوكيل على الأرض. وراح الحضور يصفّقون.

ـ لقد أراد شرائي، أيها الفتيان... لقد أعطاني مئة ميلريس لكي أدع ذلك الملاكم المسلول يغلبني... وهكذا كنت سأخسر!... لقد أخذت نقود الوكيل، وهزمت رجله، اليوم... سوف يعلّمه هذا كيف يشتري الناس.. أما أنا فلا أبيع نفسي إلاّ على سبيل الصداقة، أيها الفتيان.. والآن سوف نشرب بنقوده.

كان رواد «مصباح الغرقى» يضحكون. ثم خرج أنطونيو بالدوينو وذهب حاملاً إلى الفتاة زيفا عقد العقيق الأحمر الذي

اشتراه في ذلك النهار ذاته، بنقود الأمبريزاريو من الريو. وكانت زيفا خلاسية صغيرة جاءت من المارينيون وقد كلفتها ماري ـ الملوك بإعطاء قبلة من جانبها إلى بالدوينو. فأعطته عدة قبلات بدلاً من واحدة.

وكان لويجي يتكلم جدّياً عن الذهاب إلى الريو.

لقد انتهت سيرته كملاكم عند إعلان خطوبة لينديلافنا. وفي الصحف التي أعلنت لقاءه مع بطل البيرو ميغيز، رأى بالدوينو نبأ خطوبة «لينديلافنا بيريرا الأبنة المحبوبة للغني الحاكم بيريرا، وهو من وجهاء المدينة، مع المحامي الشاب غوستاف باريراس، السليل المجيد لإحدى أشهر العائلات الباهيانية، والشاعر البارز، والخطيب الأعظم موهبة».

وقد تلقّى بالدوينو أقسى الضربات، وانسحق في الجولة الثالثة. ولم تعد لديه القوّة للقتال، وكان يكتفي بتلقيّ ضربات ميغيز، بطل البيرو. وسرت إشاعة بأن بالدينو باع نفسه. ولم يوضح هزيمته لأحد. حتى ولا للويجي، الذي كان يبكي في تلك الليلة، ناتفاً شعره، مناشداً السماء. ولا حتى إلى «الضخم» الذي كان يرى الكارثة بعيني كلب مضروب. ولم يعد لويجي أبداً يصعد إلى الحلبة.

في تلك الليلة الباردة التي تلّت هزيمته، ونظراً لانه لم يشأ الذهاب ليشرب في «مصباح الغرقى»، ذهب إلى «حانة باهيا». وجلس إلى طاولة في عمق الحانة، مع «الضخم»، وشرب في صمت حين اقترب منهما رجل، وطلب إليهما دفع ثمن كأس له. رفع بالدوينو عينيه.

ـ أنا أعرف هذا الشخص، ولم أعد أدري أين عرفته.

ومرّر بالدوينو لسانه على شفتيه.

ـ هيّا.. كأس من الخمرة... ادفع، ياحضرة الزميل...

وتعرف حينئذ بالدوينو إلى ندبة في وجه الرجل وقال:

ـ هذه الندبة هي مني..

وفكر، وفجأة ضرب على جمجمته:

ـ ألست أوزوريو؟

وأضاف «الضخم» قائلاً:

ـ ألم تكن جندياً؟

ـ بلى، لقد كنت عريفاً في الماضي... وسحب كرسياً، وجلس.

ـ لقد كنت عريفاً ـ ومرّر لسانه على شفتيه. والآن هاتوا لي كأساً...

كان بالدوينو يضحك. وأحس «الضخم» بالشفقة.

ـ ولكن في أحد الأيام جاءت امرأة، هل تسمع؟ حسناء، لكنها حسناء جداً!.. كنا مخطوبين، أنت تعلم.. وكنت أستعدّ لأصبح عريفاً...

ـ ولكن ألم تكن رقيباً؟

ـ هذا صحيح، كنت أسير في طريق النجاح... وأعتقد أنني كنت سأصبح نقيباً. لقد وعدني النقيب بذلك... النقيب... هل تدفع لي ثمن كأس أخرى؟ أيها الصغير (مخاطباً النادل) أحضر كأساً أخرى، إنه الصديق، هنا، الذي يدفع.. لقد احتفلنا بيوم العرس.. كنا ننتظر أن يكون احتفالاً عظيماً!.. لكنها ذهبت مع

رجل آخر...

ـ وهذه الندبة؟

ـ حسن، إن الشخص الذي أتكلم عنه.. لقد طيّرت له كرشه في الجو... كانت حسناء جداً، الصغيرة... جمال عظيم..

ـ أجل، يمكن أن نقول هذا...

ـ أكنت تعرفها؟

ـ إذاً ألا تتذكر أنت؟

شربا طوال الليل، وخرجا متخاصرين، صاخبين بصحبة ودّية هائلة، يقهقهان بالضحك، وقد نسيا كلياً ماري ـ الملوك، كما نسيا أن أحدهما كان جندياً، والآخر ملاكماً.

وفجأة توقّف الرجل:

ـ إذا، كان ذلك هو أنت؟...

وابتعد عن أنطونيو بالدوينو.

ـ أجل، لكنني فقدت كل شيء، أنا أيضاً...

تعانقا مجدداً، وعادا إلى سيرهما المترنّح:

ـ كم كان يمكنها أن تكون لطيفة وحبيبة...

ـ من هذه الناحية، بالنسبة لكونها لطيفة وحبيبة...

كان أنطونيو بالدوينو يخلط بين الزنجية ماري ـ الملوك، وليندينالڤا البيضاء.

مرفأ

مراكب كبيرة ساكنة على الماء الهادىء الفسيح. وكانت السفن المساحلة، المرخاة القلوع، نائمة في الليل. وحتى وهي هكذا، كانت تذكّر بعمليات الرحيل، وبالأسفار من مرفأ إلى مرفأ آخر. ومن سوق شعبية إلى سوق أخرى، في الجون. في الوقت الحاضر هي راقدة، وأسماؤها محفورة على كواثلها: «السفينة المسافرة»، «المسافر بلا مرفأ»، «نجمة الصباح»، «الوحيد». لكنها سترحل في الصباح، شاهرة أشرعتها إلى الخارج، في الريح، وهي تشقّ مياه الجون.

ستذهب إلى حيث تُشحن بالفواكه، والخضروات، والآجرّ والقرميد. وسوف تتوقّف عند جميع الأسواق الشعبية. ثم ستعود محمّلة بشحنة أناناس زكية الرائحة. إن المركب «المسافر بلا مرفأ»، المدهون بالأحمر، يجري أفضل من أي مركب آخر. والرّيّس مانويل ينام في الجؤجؤ[1]. إنه خلاسي مسنّ، ولد على السفن المساحلة، ولم يعرف في حياته أبداً ملجأ سواها.

يعرف أنطونيو بالدوينو قصة جميع هذه السفن وتاريخها. وكان وهو بعد غلام صغير، يحب أن يتمدّد على الساحل الرملي، وشعره الاسود تغمره وسادة الرمل، ورجلاه في الماء. وكم هو طيّب ودافىء،

---

(١) مقدمة السفينة.

الماء، في ساعات الليل هذه! وكان بالدوينو يصطاد أحياناً، في صمت، وتضيء وجهه ابتسامة كبيرة حين تعضّ السمكة. لكنه كان، بصورةعامة، يكتفي بالنظر إلى البحر، والسفن، وهناك، في الوراء، المدينة.

كان أنطونيو بالدوينو، يرغب في الرحيل، هو أيضاً، ومعرفة أراضٍ مجهولة، وفي أن يحب على سواحل رملية مجهولة، نساء مجهولات. لقد هزمه ميغيز، ابن البيرو.

ويتجاوز مركب يصفر رصيف المرفأ، ملقياً أضواء في الليل. إنه مركب سويدي. ومنذ زمن غير بعيد، كان البحارة يتسكّعون في المدينة، ويشربون الجعة في الحانات، ويعانقون نساء باروّكينيا الخلاسيات، من قاماتهن. وهذه الليلة، ها هم في البحر، وغداً سيكونون في مرفأ ما، بعيد، مع نساء بيض أو صفر. يجب في يوم من الأيام، أن ينخرط في البحرية، هو أيضاً، ويرتاد العالم. كان هذا حلمه منذ زمن طويل. حلمه حين ينام، أو حين ينظر، ممدّداً على الرمل، إلى السفن المساحلة والنجوم.

واختفى المركب.

كانت المدينة ترفع نحو السماء ألف ساعد لكنائسها. ومن رصيف المرفأ كانت تُرى الشوارع الصاعدة، والمباني القديمة، وأضواء تتلألأ فوق والسحب البيضاء التي تجري في السماء مشبهة قطعان الغنم. وكانت تشبه أيضاً أسنان **جوانا**. وفي كل مرة كان «أنطونيو بالدوينو يخطف فيها زنجية كان يقول لها:

ـ أسنانك تشبه السُحُب...

ولكن الآن وقد هزم، أية امرأة ستنظر إلى ناحيته؟ الجميع يقولون إنه قد باع نفسه.

كان يضيع في تأمل الأشياء. كانت ثمة نجمة، بالضبط فوق رأسه. لم يكن يعرف اسمها، لكنها كانت نجمة كبيرة جميلة، تغمزه بعينها. ولم يكن قد سبقت له رؤيتها أبداً. وظهر القمر، هائل الحجم، وسكب حتى أعماق المنازل ضوءاً غريب الشكل، إلى حد أن أنطونيو لم يعد يعرف المدينة. وحسب أنه كان بحاراً وأنه دخل إلى مرفأ أجنبي. كانت الغيوم تجري على السماء. كانت أغناماً. أغناماً بيضاء هـائلة الحجم. وفي المدينة السفلى لم يكن يوجد أحد. كانت هذه هي تماماً أوّل مرة يحلم فيها على هذا النحو وهو يقظ تماماً. ها هي باهيا لم تعد هي باهيا، وهو لم يعد أنطونيو بالدوينو، الملاكم، ذلك الذي يذهب إلى حفلات الماكومبا التي يقيمها جوبيابا. والذي هزمه الملاكم البيرواني.

ما هي حقاً هذه المدينة؟ وأين ذهب جميع أولئك الذين يعرفهم؟ ونظر إلى ناحية المرفأ ورأى المركب. مؤكّد أنه قد حان الحين للعودة؛ كانوا بانتظاره على متن السفينة.

رأى بلوزته البحرية وقال بصوت عال:

ـ أنا صاعد إلى متن السفينة...

وصاح صوت:

ـ ماذا؟

لكنه لم يسمع، وعاد إلى تأمّل المدينة المستحمّة بضوء القمر.

وتذكّر مباراة الملاكمة.

وفجأة، من قمة الجبل الصغير هناك أخذت تنحدر نحوه أنغام أغنية «باتوكا».

غطّت سحابة سوداء القمر. واختفت بزّة البحار؛ كان الآن يلبس بنطالاً أبيض مع قميص مخطّط بالأحمر.

كانت أنغام التام - تام تزداد على الجبل الصغير. كانت تأتي مثل صلاة، ومثل نداء مفعم بالقلق. حينئذ عادت المدينة باهيا، باهياه، التي يعرف كل شوارعها وأزقتها وكفّت عن كونها مرفأ ضائعاً لجزيرة ضائعة في البحر الشاسع. كانت هي باهيا هزيمته.

الآن لم يعد يراقب السماء ولا السُحُب. ولم يعد ينظر إلى قطعان الغنم في السماء. ترى، إلى أين ذهبت هذه المراكب التي فرّت بعيداً عن عينيه؟

كان يصغي.

كانت أنغام «باتوكية» تهبط الآن من جميع الجبال الصغيرة، أنغام كانت قديماً في الجانب الآخر من المحيط أنغاماً حربية، حين كانت أنغام الباتوك تصدح لإعلان القتال أو الصيد. واليوم أصبحت أنغام صلاة، وأصواتاً مستعَبدَة تطلب الغوث، من جماعات كبيرة من الزنوج الذين يرفعون أيديهم نحو السماء. لقد أصبح شعر بعض هؤلاء السّود أبيض من الشيب، وكانت أجسامهم تحمل أثر السياط.

اليوم، كانت حفلات الماكومبا والكاندونبليه تردّد كصدى هذه الشكاوى القديمة.

كان ذلك أشبه برسالة إلى جميع الزنوج، إلى الزنوج الذين ما زالوا يقاتلون ويصطادون في أفريقيا، إلى الزنوج الذين يئنون تحت هِراوةِ الرجل الأبيض. كانت أنغام **باتوكية** تأتي من **الجبل الصغير**. وكانت موجّهة أيضاً، قلِقة ومشوّشة، إلى أنطونيو بالدوينو الممدّد على الرمال. كانت هذه الأنغام تدخل أذنيه تتخلّلها بغضاء خرساء.

كان أنطونيو بالدوينو يتمرّغ على الرمل في يأس. إنه لم يعرف أبداً قبل اليوم غصّة مماثلة. كان الحقد يغلي في داخله. وكان يرى أرتالاً من الزنوج، كان يرى ذلك الذي ما زال جسمه يحتفظ بآثار السوط. كان يرى الأيدي الخشنة الكانبة تضرب الأرض، وكان يرى الزنجيات يلدن خلاسيين صغاراً، أولاد سادة بيضٍ. كان يرى «زومبي النخيل» يحوّل أنغام **الباتوك** الخاصة بالعبيد إلى أنغام باتوكية حربية. كان يرى جوبيابا، نبيلاً وهادئاً، يعلّم كل الشعب المستعبَد. كان يرى نفسه هو بالذات، ناهضاً مثل الرجل الأبيض... لكنه خسر المعركة، وانهزم أمام ميغيز، مثل مقاتل باع نفسه.

ثم لم ير بعد ذلك شيئاً لأن القمر عاود الظهور مع ضوء مضايق، مربك، والانغام تموت على المنحدرات، في الممرات المعتمة، والشوارع المبلّطة.

في أنغام **الباتوك** الأخيرة، وضوء القمر الباهر، ظهر له وجه ليندينالفا، شاحباً ومشوباً بالنمش.

كانت جميلة، وكانت تبتسم. وقد أطفأت **الباتوك** والبغضاء.

أمرَّ أنطونيو بالدوينو يده على وجهه ليبعد الرؤيا المزعجة، وأدار رأسه. نظر أيضاً إلى أضواء السفن المساحلة وإلى الريّس مانويل الذي كان يسير على رصيف المرفأ. لكن لاندينالڤا كانت ترقص في الأضواء. كل هذا لأنه سمح بأن يُهْزَم، وكونه فقد شجاعته.

أغمض عينيه، وحين عاود فتحهما لم يعد يرى سوى الضوء الصغير لحانة «مصباح الغرقى».



أغنية حزينة تأتي من البحر.

كان ضوء حانة **«مصباح الغرقى»** يتلألأ مثل دعوة. غادر أنطونيو بالدوينو رصيف المرفأ ومداعبة الرمل، ونهض متّجهاً بخطى واسعة نحو الخمّارة. كان مصباح صغير يضيء لافتة الحانة، التي تمثّل أمرأة حسناء جسمها سمكة وثدياها صلبان. وفوقها، كانت نجمة مرسومة بالحبر الأحمر، تسكب على الجسد البكر لجنّية البحر نوراً شاحباً يجعل المرأة محفوفة بالأسرار وكأنها مشعّة. وكانت تسحب من الغرق شخصاً منتحراً. وفي أسفل اللافتة، اسم الحانة:

«مصباح الغرقى»

من الداخل جاء نداء:

ـ أهذا أنت، يا بالدو؟

ـ بالضبط، يا يواكيم.

إلى إحدى الطاولات المكسّوة بالشحم كان يجلس «الضخم» ويواكيم. وصاح يواكيم، من على الطاولة، ويداه بشكل عاكسِ نورٍ، فوق عينيه لكي يرى بصورة أفضل في ضوء السراج المرتجف:

ـ ادخل. إن جوبيابا هنا.

في القاعة الصغيرة، الغارقة تقريباً في العتمة، كانت خمس أو ست

طاولات يشرب عليها بعض البحارة، وأصحاب سفن مساحلة، وملاّحون. وكانت أمامهم كؤوس ثخينة مترعة بخمرة قصب السكّر. وكان هناك أعمى يعزف على القيثارة، ولكن لم يكن أحد يصغي إليه. وإلى إحدى الطاولات، كان بحّارة بيض وشقر، ألمان، من سفينة شحن كان يجري تحميلها في المرفأ، يشربون الجعة، ويغنّون، ثملين.

كانت المرأتان أو الثلاث اللواتي نزلن هذه الليلة من **منحدر «الجسر الخشبي الضخم»** إلى «مصباح الغرقى» يجالسن البحارة الألمان. كن يضحكن بقوة ولكن كانت تظهر على وجوههن الحيرة لأنهن لا يفهمن الأغنية.

كان البحارة متماسكين بالأيدي وهم يقبّلون النساء. وتحت الطاولة كانت زجاجات جعة كثيرة فارغة. وقد مرّ أنطونيو بالدوينو قربهم وبصق.

رفع أحد البحارة كأسه، فتأهّب أنطونيو بالدوينو للعراك. وفي زاوية كان الأعمى يئنّ على القيثارة ولا يصغي إليه أحد. وتذكّر أنطونيو بالدوينو أن يواكيم كان في الخمارة، فخفض ذراعه، وذهب ليجلس إلى جانب «الضخم» ويواكيم.

ـ وجوبيابا؟

ـ إنه في الداخل مع أنطونيو[1]، وهو يتلو عليه صلاة من أجل زوجته.

---

(١) هو شخص آخَر غير أنطونيو بالدوينو كما سنعلم في تتمّة السياق. (هـ. م).

كان أنطونيو برتغالياً مسناً يعيش مع امرأة خلاسية مجدورة الوجه. وكان غلام شاحب الوجه يقوم بالخدمة راكضاً. وحيّا أنطونيو بالدوينو.

ـ مساء الخير، يا بالدو.

ـ أعطني قطرة.

أصاغ «الضخم» سمعه لأغنية البحارة:

ـ هذا جميل...

ـ إذاً أنت تفهم معنى الأغنية.

ـ كلا، لكنها تحرّكني في الداخل.

ـ تحرّكك؟ لم يفهم يواكيم.

كان أنطونيو بالدوينو، من جهته، يفهم، ولم تعد لديه رغبة في التقاتل مع الألمان. وهو الآن يريد تماماً أن يغنّي مع البحارة ويضحك مع النساء. وراح يدقّ بأصابعه على الطاولة ويصفر. وكان البحارة يزدادون سكراً، وبينهم بحّار لم يعد يغنّي. كان رأسه منقلباً على الطاولة. والأعمى يعزف على القيثارة في زاوية معتمة. لم يكن أحد يستمع إليه، باستثناء الغلام الشاحب الوجه الذي يقوم بالخدمة. وبين طلبين من الخمرة قدّمها وهو يركض، كان ينظر إلى الأعمى بإعجاب. ويبتسم.

ولكن من بعيد، من سواد البحر، جاء صوت يغنّي. وبالرغم من النجوم فلم يكن يُرَى من الذي يغني، ولا منْ أين يأتي الصوت وما إذا كان يصل من القوارب أو من السفن المساحلة، أو من القلعة القديمة. لكنها كانت تأتي من البحر، هذه اللازمة الحزينة. صوت قويّ، بعيد.

كان أنطونيو بالدوينو يراقب. كان كل شيء أسود حواليه. ولم يكن نور إلاّ في النجوم وفي غليون الريّس مانويل. وانقطع البحارة عن الغناء، والنساء عن الضحك، وكفّ الأعمى عن البكاء على أنغام القيثارة، وسط أسف كبير للغلام الشاحب الذي يقوم بالخدمة.

عاد جوبيابا إلى الطاولة وأنطونيو البرتغالي إلى مكتب المحاسبة في الحانة. كانت الريح التي تجتاح الخمارة كما تحدث مداعبةً حزناً في الصوت. من أين يمكن أن يأتي هذا الصوت؟ ليس سوى الزنوج من يغني على هذا النحو. لم ينبس الريّس مانويل بكلمة «هل لأنه كان يفكر في تحميل «السابوتيس» الذي سيتولّى قيادته صباح الغد في اتياپاريكا؟ لا إنه يصغي إلى اللحن الراقص. واستدار نحو الجهة التي كان يبدو أن ذلك الصوت المفعم بأسرار البحر يأتي منها. كان نظر «الضخم» زائغاً. كان اللحن الراقص يحرّك لواعجه بكل تأكيد. وقد التفت هو وجميع الآخرين نحو البحر: من أين كان يمكن أن يأتي صوت الزنجيّ؟ **يا رب أوقف قليلاً مرّ آهاتي**... هل هو في القلعة القديمة. وحينئذ يكون جندياً مسنّاً؟ أم هو في قارب، وحينئذ يكون شاباً قروياً يبيع البرتقال في سوق **أغوا دوس مينينوس** الشعبية؟ أهو ملاح في مركبه في «مرفأ الخشب»؟ أم هل أن صوته يأتي من سفينة مساحلة سريعة، صوت نوتي زنجيّ نسيته حسناؤه في مرفأ بعيد؟

يا رب أوقف قليلاً مُرّ آهاتي
أموت من كمدي
من دون رؤيتها...

من أين يمكن أن تأتي الأغنية الحزينة التي تجتاز السفن المساحلة،

والقوارب، وكاسر الأمواج، ورصيف المرفأ، وحانة « مصباح الغرقى »، والجون بكامله، وتمضي لتتلاشى في أزقة المدينة؟

كان « الضخم » يرى جيداً أن أنطونيو بالدوينو متوتّر الأعصاب. إنه يفكر في ليندينالڤا ويتخيّل أن الزّنجي لا يغنّي إلا له وهو الوحيد جداً. لكنّ الزّنجيّ يغنّي لجميع الناس، وليس فقط لأنطونيو بالدوينو. إنه يغني للـ « الضخم » ، وللريسّ مانويل، ولأجل البحارة الألمان، ومن أجل جميع زنوج السفن المساحلة والقوارب، ولأجل جميع الملاّحين البيض في السفن السويدية، ومن أجل البحر أيضاً...

كانت أضواء المدينة تشعّ على « الجبل الصغير ». ومنذ زمن غير طويل كانت تأتي من « الجبل الصغير » أنغام تام ـ تام من احتفالات **« الكاندوبلية » و « الماكومبا »**. والآن أصبحت المدينة بعيدة، وتألُّقُ النجوم صار أقرب إليهم من المصابيح الكهربائية. كان أنطونيو بالدوينو يرى جمرة غليون الريسّ مانويل. وكان صوت الزنجي يخترق أنطونيو، وفجأة يبتعد الصوت، ويفرّ إلى عرض البحر. لكنه يعود ويصرّ على الاهتزاز في الخمارة. وكان حزن يهبط على كل شيء:

وحدي هكذا ماذا بوسعي أن أفعل
سوى الأنين
سوى الأنين...

لم يكونوا يتكلمون. كان البحارة الألمان يصغون. ومدّ جوبيابا يديه على الطاولة. وارتعش « الضخم » ورأى أنطونيو بالدوينو ليندينالڤا، بيضاء، شاحبة، مجدورة الوجه، في المياه، وفي السماء، وفي

السحب، وفي كأس الكحول، وفي عيني الغلام المسلول الذي يقوم بالخدمة.

انقضّ ذلك القمر الأصفر، مجدداً، على حانة **«مصباح الغرقى»**. وكان الصوت يأتي خلسة، تحمله الريح. ويرتعش «الضخم»، ويدخن الريّس مانويل ببطء. ويتوّقف الصوت في الخمارة ويدور مع الهواء البحري:

أشفقي عليّ
التفتي إليّ
وحبّك المقدس
نحوي...

تلاشت الأغنية الحزينة. وكان الأعمى يبحث عنها بعينيه الفاقدتي النور.

ودمدم جوبيابا بأقوال لا يسمعها أحد.

وسأل يواكيم:

ـ قل، يا صديقي، هل لديك سيجارة؟

أخذ يدخّن بنفثات كبيرة. وكان البحارة يشربون الجعة. والبحر يجتذب نظرات النساء. ومدّ جوبيابا ساقيه النحيلتين. وراح يرقب الليل. وكان القمر ينشر ضياءه الأصفر على الباقي كله. ويفضّض البحر والسماء. ولكن ها هو اللحن الراقص يعود، أكثر قرباً بكثير.

يقتلني غيابها
وأنني لا أراها
يقتلني الغياب

ولم أعد أراها .

كان الصوت يقترب أكثر فاكثر . وأدار الريّس مانويل غليونه الذي كان يلتمع مثل نجمة . هناك سفينة مساحلة هناك في البعيد تعبر البحر . إنها تتقدم بلا صوت ، مصغية هي أيضاً إلى الأغنية الحزينة التي تحملها الريح إليها .

كان أنطونيو بالدوينو يرغب في أن يقول :

ـ رحلة سعيدة ، أيها الأصدقاء .

لكنه ظلّ صامتاً ، منتبهاً . لقد تلاشى الصوت ، تحمله الريح . ثم عاد خلسة ، منخفضاً جداً :

ولم أعد أراها . . .

دخل القمر إلى الحانة . كان الملاحون يصغون وكأنهم يفهمون معاني اللحن الراقص الذي كان يغنّيه الزنجي . والنساء اللواتي صرن يفهمن الآن كففن عن الضحك . وقال يواكيم .

ـ ما فائدة العودة ؟

انتاب الخوف الشاب الملقب بـ « الضخم »

ـ ماذا قلت ؟

وقال أنطونيو بالدوينو لجوبيابا :

ـ أيها الأب جوبيابا ، لقد حلمت اليوم حلماً غريباً ، وكنت نائماً على الرمل . .

ـ ماذا حلمت ؟

كان جوبيابا ذاوياً ، وصغيراً جداً على كرسيّه . وتساءل

« الضخم » في دخيلته عن عمر جوبيابا. مئة وكم عاماً؟ وكان أنطونيو بالدوينو، الجالس قرب جوبيابا، قوياً وهائل الضخامة. لم يكن يروي حلمه، بل استمر يقول:

ـ لقد رأيت ذلك الزنجيّ، الموسوم الظهر، أيها الأب جوبيابا...

كان الصوت يغني، في صميم الحانة:

وحدي هكذا، ماذا بوسعي أن أفعل
سوى الأنين
سوى الأنين...

كان أنطونيو بالدوينو يتكلم:

ـ ...وكان يئنّ، يا أبتِ، كان يئنّ... هذا الزنجي الذي جُلد بالسوط على ظهره... لقد رأيته في الحلم... كان منظره فظيعاً. أحسّ برغبة في ضرب هؤلاء البحارة البيض.

أحسّ « الضخم » بالحيرة:

ـ ولماذا تضربهم؟

ـ الزنجيّ ملطّخ جسمه بالبقع... البقع...

نهض جوبيابا عن كرسيّه. كان وجهه المغضّن متوتّراً من البغضاء. وكان الجميع يصغون إليه.

ـ لقد حدث هذا منذ زمن طويل، يا بالدو...

ـ ما الذي حدث؟

ـ القصة التي سوف أرويها.. كان والد والدك ما زال صغيراً جداً. في مزرعة سيّد أبيض وغنيّ، من جهة محلة « اليد المقطوعة ».

كانت أغنية حزينة، لحن راقص كان يغنيّه زنجيّ لا يُعْرَف مكانه، تسود كل شيء:

أوقف قليلاً مُرّ آهاتي...

أخذ جوبيابا يروي:

ـ لم نكن سوى مجموعة من الزنوج... وكنّا قد نزلنا من السفينة إلى البرّ منذ وقت قليل، ولم نكن نعرف بعد لغة السيّد الأبيض... كان ذلك منذ زمن بعيد... هناك. في محلة «اليد المقطوعة».

ـ وماذا حدث؟

ـ السنيور ليال لم يكن لديه وكيل أعمال. ولكن كان لديه حارسان، هما عبارة عن قردين أسودين هائلي الجسم، مقيّدين بسلسلة حديدية ضخمة. وكان السيد يسمي الذكر «المتدلّل» والأنثى «المتدلّلة». وكان للذكر هراوة ضخمة معلقة بسلسلته وفي يده سوط... كان هو وكيل الأعمال.

ماذا حدث للأغنية الراقصة الحزينة والقديمة، بحيث لم تعد تملأ قلوب هؤلاء الزنوج، وهي تتركهم وحيدين أمام قصة جوبيابا؟ أين هو صوت الزنجيّ الذي كان يغنّي؟ لم يعد هناك الآن سوى الأعمى الذي يئنّ على صوت قيثارته والجميع يسمعونه. كان الولد الشاحب والمسلول يجمع على طبق من التنك النقود من أجل الأعمى، الذي هو أبوه. وقال رجل:

ـ أنا لا أعطي أيّ شيء. فالعجوز لا يحسن العزف...

لكن الجميع نظروا إليه نظرة مؤنّبة بحيث وضع الرجل قطعة من النقود على الطبق.

ـ كنت أمزح، يا صديقي...

صوت جوبيابا:

ـ كانت السعدانة «المتدلّلة» تقتل الدجاج، وترتاد المنازل. والسعدان الزنجي كان يقود الشغيلة إلى الحقول ويجلس على هراوته. فإذا توقف زنجيّ عن العمل، كان ينهال عليه ضرباً بالهراوة. وأحياناً كان يضرب بلا سبب. وكان يضرب الزنجي بسوطه حتى الموت.

كانت الأضواء ترتعش في حانة «مصباح الغرقى». وكان الأعمى يوقّع لحن «ماكومبا» على قيثارته.

ـ كان السنيور ليال يحب إطلاق «المتدلّل» على الزنجيات. وكان المتدلّل يقتلهنّ، ليضاجعهن بعد ذلك... وفي أحد الأيام أطلق السيدّ «المتدلِّلَ» على زنجية صبيّة، متزوّجة من زنجيّ شاب. وكانت للسنيور ليال زياراته...

ارتجفت فرائص «الضخم» بشدّة. وفي البعيد عادت الأغنية الحزينة ولم تعد تُسمع قيثارة الأعمى الذي كان يحصي النقود المجموعة.

ـ انقضّ «المتدلّل» على الزنجية، والزنجي على «المتدلّل».

راح جوبيابا ينظر إلى الليل في البعيد. وكان القمر أصفر اللون

ـ أطلق السنيور ليال النار على الزنجي، الذي كان قد طعن القرد بمديته مرتين. وماتت الزنجية هي أيضاً. ولم يبق منها سوى بقعة من الدماء في ذلك المكان. أمّا النساء اللواتي كن يتلقين زيارة السنيور

ليال، فقد كنّ فرحات جداً، وكنّ يستغرقن في ضحك شديد. باستثناء بنت صغيرة بيضاء أصيبت بالجنون ليلاً، حين رأت القرد والزنجي...

كان اللحن الراقص يغنّي من مكان أقرب.

ـ ولكن أثناء الليل قتل شقيق للزنجي السنيور ليال. لقد عرفت أنا شقيق الزنجي. وهو الذي روى لي القصة..

كان «الضخم» يجلس قبالة جوبيابا. وغليون الريّس مانويل يشعّ مثل نجمة. وفي سواد البحر كان صوت يغني لازمة حزينة

يقتلني غيابها
وأنني لا أراها.

كان الصوت يغنّي، عالياً، ويرّن رنيناً مفعماً بالحسرات. وقال جوبيابا:

ـ لقد عرفت الشقيق...

تحسّس أنطونيو بالدوينو مديته على مستوى صدره.

أجل، كان أنطونيو بالدوينو يعرف جيداً أن عين الرحمة قد فُقئت فعلاً، وأنه لم يبق سوى عين الشرّ. وفي الليل المليء بالأسرار، ليل رصيف المرفأ، المدندن بموسيقات متنوعة، كان أنطونيو يريد أن يطلق أقوى ضحك لديه، الذي كان صيحته للحرية. لكنه فقد هذه الصيحة. لقد خسر معنوياته. ولم يعد امبراطور المدينة، ولم يعد بالدو، الملاكم. الآن تشدُّه المدينة كما يشدّ الحبل عنق المشنوق. كان الناس يقولون إنه باع نفسه. لذلك كان للبحر الذي يضرب الصخور، والسفن التي ترحل مغمورة بالأضواء، والسفن المساحلة التي

تبحر حاملة كل منها مصباحاً وقيثارة، كل هذا كان يشكل جاذباً لا سبيل لمقاومته. كانت هذه هي طريق المنزل. لقد سلكها فيرياتو ـ القزم، وسلكها سالوستيانو العجوز وغيرهما أيضاً. وعلى صدر أنطونيو بالدوينو كانت توجد ثلاثة وشوم: قلب، وحرف «ل» وقارب.

«اختطف» بالدوينو رفيقه الملقب بـ «الضخم» وفرّ معه إلى البحر على متن إحدى السفن المساحلة. إنه سوف يجهد ليعثر، في الأسواق الشعبية، وفي المدن الصغيرة، وفي الريف، وعلى البحر، على ضحكته الضائعة وعلى **«طريق المنزل»**.

سفينة مُساحِلة .

كانت السفينة « المسافر بلا مرفأ » تشقّ الماء الذي يعكس النجوم . وكانت هذه السفينة مدهونة بكاملها باللون الأحمر ، وهي تحمل مصباحاً ينشر حوله ضوءاً أصفر مثل ضوء القمر الذي بزغ الآن بالضبط خارجاً من سحابة . وجاء نداء بعيد من سفينة مساحلة أخرى كانت تعبر الجون :

ـ من هناك ؟

ـ رحلة سعيدة ! رحلة سعيدة !

طريق البحر واسعة . وتهمس المياه عند العبور . وتقفز سمكة في ضوء المصباح . كان الريّس مانويل على دفّة المركب . و« الضخم » يتابع دون أن يفهم . وكان أنطونيو بالدوينو ، الممدّد على طوله ، ينظر مشهد البحر . ومن قعر السفينة كانت تصل رائحة أنـانـاس ناضج .

مرّ هواء لطيف جداً ، وها هي نجمة نقيّة تتلألأ في السماء . وفي رأس الزنجي أنطونيو بالدوينو كانت تتكوّن أغنية « سامبا » وينتظم إيقاعها بضربات صغيرة على ركبتيه . ثم أخذ يصفر ، وبعد قليل ، سوف يستعيد ضحكته الضائعة . كانت تتشكل في رأسه أغنية السامبا هذه ، التي تتحدث عن امرأة ، وتشرّد ، وعبد حرّ ، والنجوم في السماء ، وعن طريق البحر الواسعة . وسأل :

إلى أين تقود هذه الطريق ، يا ماريا ؟

وأضاف:

نجمتا عينيك هما في السماء
ونغم ضحكتك هو على البحر
وأنت موجودة في مصباح المركب.

هذا ما كانت تقوله أغنية «السامبا». وكانت تقول أيضاً إن أنطونيو بالدوينو لا يحب سوى شيئين: ماريا، وأن لا يفعل أي شيء. وعدم فعل أي شيء، في لغته، كان يعني أن يكون حراً. وماريا كانت تعني الأنثى الخلاسية.

إلى أين يمكن أن تؤدي، هذه الطريق؟ بالنسبة إلى الريّس **مانويل**، الذي كان ذئب بحرٍ مُسِنّاً،لم يعد لهذه الطريق سرّ. وقد أعلن قائلاً:

ـ هنا، هو الموضع الذي يضاجع فيه البحر النهر.

اجتاز المركب موضع الأمواج الكبير الناشئة عند ملتقى النهر بالبحر. ودخلوا في **باراغواسّو**. على السواحل والضفاف، كانت قصور إقطاعية قديمة، وخرائب **«أنجانهوس ـ بانغيس»**، ومعالم غنى ماضية، وكلّها تشبه ظلالاً خارقة: إنها أشبه بأشباح. وكما يقول الضخم: إنها أشبه ببغلة الخوري.

هدير الماء الآن، هو البحر والنهر اللذان يمارسان الحب. والصوت القادم منهناك، من الدغل، لا بدّ أنه صوت عشيقة خوري ماتت، وتحوّلت إلى بغلة بلا رأس وهي تهيم على غير هدى في هذه الأدغال الكثيفة التي غطّت قبور الزنوج في زمن الرقّ.

كانت السفينة المساحلة تنزلق بلطف على ماء النهر الهادئ. وعلى

دقّة المركب، كان الريّس **مانويل** يدخّن الغليون. وهو يشير لدى مرور المركب إلى دكك الصخور السوداء. هذه الطريق لا تخفي عليه سراً. وأنهى أنطونيو بالدوينو إنشاد أغنية «السامبا» التي حفظها «الضخم» عن ظهر قلب. وهو يجد أنها أجمل أغنية وضعها أنطونيو حتى الآن، ذلك لأنه يتكلم فيها عن المرأة والتشرّد، والنجوم. وطلب إلى بالدوينو «أن لا يبيع الأغاني بعد الآن». فانخرط الزنجي في الضحك. وكانت السفينة المساحلة تجري على مياه النهر.

- لا أحد يستطيع منافستها، هكذا قال الريّس **مانويل** وهو يداعب بيده مركبه وكأنه يداعب امرأة.

هبّ هواء نَفَخَ الأشرعة، وأنعش الأجساد. ومن قاع المركب كانت تتصاعد رائحة أناناس ناضج.

منذ أعوام طويلة يملك الريّس مانويل مركباً مساحلاً. وقد عرفه أنطونيو بالدوينو، كما عرف السفينة «المسافر بلا مرفأ»، حين كان صغيراً. وهذا لا يمنع كون الريّس مانويل، قبل ذلك بزمن طويل، كان يرتاد بسفينته المساحلة مرافىء **«ريكونكافو»**، حاملاً الفواكه إلى الأسواق، وعائداً بآجرّ وقرميد لورشات البناء في المدينة الجديدة.

كان الناظر إليه يرى أنه في الثلاثين من العمر، ولكن أبداً لا يعتبره في الخمسين، التي يحملها على كاهله. وجسمه كله من سحنة موحّدة اللون، برونزية غامقة، ومن الصعب جداً أن يعرف الناظر إليه ما إذا كان أبيض، أو زنجياً، أو خلاسياً. إنه ملاّح برونزيّ اللون، قليل الكلام، أو صامت كلياً، وهو يحظى بالاحترام في كل

منطقة مرفأ باهيا، **وسوق أغوا دي مينينوس الشعبية**، وحانات أرصفة المرافىء الكبيرة والصغيرة التي ترسو سفينته فيها.

قطع «الضخم» الصمت بسؤال:

ـ هل سبق لك أن أنقذت غرقى، يا معلّم؟

ترك الريّس مانويل الغليون، ومدّ ساقيه:

ـ في أحد أيام عاصفةٍ، عند مدخل الحاجز انقلب قارب. وأطفأت الريح كل المصابيح. يا لها من ليلة، فكأنما هي يوم القيامة...

اطمأن «الضخم» إلى أن الليلة هي اليوم صافية وودّية تماماً.

كانت سفينة «المسافر بلا مرفأ» تجري، مائلة إلى جانب، تبعاً لمسيرة النهر ذات المنعطفات والتعاريج الكثيرة، والتي اتسعت بعد قليل إلى أحواض ثم أخذت تضيق إلى أقنية ضيّقة.

كان «الضخم» يظن أن نجمة كبيرة جديدة هي التي يراها تتلألأ قليلاً عند مؤخرة السفينة. وصاح مبتهجاً باكتشافه:

ـ انظروا ما أجمل هذه النجمة الجديدة! إنّها لي، إنّها لي!

وكان يخاف من أن يسرقها أحد، أو أن ينتزعها منه، منه هو الذي اكتشفها.

نظر الباقون. قال الريّس مانويل مدمدماً:

ـ نجمة؟! لا، إنها **«السفينة الطائرة»** تبحر نحونا، .... لقد كانت في ايتاباريكا لدى مرورنا، وهي تريد اللحاق بنا.

ـ مركبنا يستطيع أن يهزمك في السباق؛ هكذا قال الريّس

مانويل موجهاً كلامه إلى سفينة « المسافر بلا مرفأ »، ماسحاً على خشبها في مداعبة. ونظر إلى رفاقه.

ـ إنها سفينة تسير جيداً، وغوما يحسن قيادتها. لكن حظّها سيكون سيئاً معنا، وسوف ترون...

كان الضخم حزيناً جداً لأنه فقد نجمته. وسأل أنطونيو بالدوينو:

ـ كيف عرفت يا ريّس مانويل أنها « السفينة الطائرة »؟

ـ من ضوء مصباحها.

لكن النور كان يشبه نور مصابيح جميع السفن المساحِلة، وإذا كان أنطونيو بالدوينو لا يعتقد مثل « الضخم » بأن هذا النور هو نجمة جديدة، فذلك فقط لأنه لا يكفّ عن الانتقال. ومع ذلك كان يتساءل ما إذا كان هو حقاً ضوء **« السفينة الطائرة »**. ولعله كان لإحدى السفن المساحلة السريعة، من المرفأ. وانتظر بالدوينو ليرى. كان « الضخم » ينظر إلى السماء ويسعى لاكتشاف نجمة أخرى تحل محل النجمة التي فقدها. لكن النجوم التي كانت تتلألأ، يعرفها جميعها، وهي لكل منها صاحب. اقتربت السفينة المساحلة. وأبطأ الريّس مانويل لكي ينتظرها.

إنها حقاً **« السفينة الطائرة »**. لقد صاح غوما:

ـ هل نقوم بسباق، يا مانويل؟

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى **ماراغو جيب**.

ـ أما أنا فذاهب إلى **كاشويرا**، ولكن ليس علينا سوى الجري

نحو ماراغو جيب... والرهان مئة فلس.

ـ اتفقنا.

وقد راهن أنطونيو بالدوينو، هو أيضاً. وتولّى غوما الدَّفة.

ـ هيا بنا.

كانت السفينتان المساحلتان تتسابقان وجانباهما متلاصقان، وقد سبقت «السفينة الطائرة» بعض الشيء السفينة المنافسة. ولاحظ بالدوينو قائلاً:

ـ قل لي، يا مانويل، هل أن العشرة ميلريس خاصتي، قد ضاعت؟

ابتسم الريّس:

ـ لا بأس، دعك من هذه المسألة.

ونادى الريّس:

ـ يا «ماريا كلارا!».

استيقظت المرأة التي كانت نائمة تحلم، وظهرت. وقدمها الريّس مانويل:

ـ إنها الريّسة.

كانت دهشتهم كبيرة بحيث ارتج عليهم ولم ينبسوا بكلمة. وهي أيضاً لم تقل شيئاً، وهي، حتى ولو كانت دميمة، فإنها ستبدو جميلة، وهي واقفة على القارب المنحني، والريح يطاير ثوبها، وشعرها يرفّ مسترسلاً. كانت رائحة بحر تختلط برائحة الأناناس. وفكر أنطونيو بالدوينو في أن رقبتها وشفتيها لا بدّ أنها تفوح منها رائحة البحر، والماء المالح. وانتابته رغبة مباغتة. وفكر «الضخم» في أنها ملاك

حارس، وأراد أن يتلو صلاة. لكنها لم تكن كذلك، إنها زوجة الريّس مانويل، الذي نبّهها قائلاً:

ـ إنني أتسابق مع غوما. غنّي لنا شيئاً.

كانت الأغنية تساعد الريح والبحر. وهذه أسرار يعرفها ذئب بحر قديم وحده، من تلك التي يتعلّمها الذي يرتاد المحيط دائماً.

ـ أريد أن أغنّي لحن «السامبا» الذي كان هذا الفتى[1] يغنيه منذ لحظة.

كانوا جميعاً تحت سحرها، لا أحد يعرف ما إذا كانت جميلة أم دميمة، لكنهم كانوا عاشقين لها الآن. إنها الموسيقى التي تخضع البحر. كانت واقفة، وشعرها يتطاير مسترسلاً مع الريح. وغنّت:

إلى أين تؤدي هذه الطريق، يا ماريا؟

كانت سفينة «**المسافر بلا مرفأ**» تجري في هدير الماء. وعادوا يرون «**السفينة الطائرة**» التي كانت نقطة مضيئة في الليل.

نجمتا عينيك هما في السماء...

كان البياض المرئي، هو شراع «**السفينة الطائرة**» التي كانت تقترب.

صوت ضحكتك هو على البحر...

إلى أين سيقودهم هذا السباق المجنون؟ ألن يصطدموا بدكّة من الصخور السوداء، أو لن يذهبوا في النهاية للرقاد في قاع البحر؟ على

---

(١) تقصد أنطونيو بالدوينو (هـ.م.).

الدفة، كان الريّس **مانويل** يرتعد، إنه يتمتّع بهذه المرأة التي تغنّي. وبالنسبة لـ «الضخم»، كانت ملاكاً، وراح يصلي.

أنتِ موجودة في مصباح المركب.

مرّوا بقرب **«السفينة الطائرة»**. وألقى غوما على متن **«المسافر بلا مرفأ»** لفَّة من الأوراق المالية. **خمسة عشر** مليريس، ووضع الريس مانويل خمسة منها في جيبه وصاح:

ـ سفر ميمون، يا غوما، سفر ميمون!

ـ سفر ميمون، أجاب صوت آتٍ من المؤخرة. وأخذ أنطونيو بالدوينو العشرة ميلريس التي ربحها.

ـ سوف تشتري لها فستاناً بهذه النقود. إنها هي التي كسبتها.

كان أنطونيو بالدوينو يتساءل أين يمكن أن يكون ذلك الرجل الأبيض الأصلع الذي جاء به يوماً إلى «ماكومبا» **الأب جوبيابا**. أين هو هذا الرجل الذي ظنه **بيدرو مالازارته** المغامر؟ يجب أن لا ينسى أن هذه الرحلة هي في السفينة المساحِلة، حين سيكتب الأغنية الشعبية البطولية عن أنطونيو بالدوينو، الباسل والمقاتل، الذي يحبّ البحر والحرية.

عهد الريّس مانويل بمقبض الدفة إلى أنطونيو بالدوينو الآن وقد أصبح النهر واسعاً.

ولحق بزوجته إلى عمق المركب. كان متن السفينة يخفيهما، ولكن كانت تسمع كل أصوات الجسدين وهما يمارسان الحب. ومن تحت كانت تأتي أنّات مهموسة، وصلوات وقبلات. وجاءت موجة عالية، وغطت العاشقين. كانا يضحكان بين قبلاتهما. وأصبحا الآن مبلّلين،

بحيث لن يكون الحب، والحالة هذه، إلا أفضل.

تصوّر أنطونيو بالدوينو ماذا سيحدث إذا دفِعَ المركب لقاء الصخور. سوف يموتون جميعاً، وستنطفىء القبلات والضحكات والصيحات في البحر. إن «الضخم» الذي فقد نجمة هذه الليلة، قال:

ـ ما كان ينبغي له أن يفعل هذا...

★ ★ ★

نكهة التبغ اللطيفة

يا لَنكهة التبغ اللطيفة! يا لَنكهة التبغ اللطيفة! إنها تملأ منخـريْ «الضخم» الواسعين، ورأسه يدور. لم تبق السفينة المساحلة في المرفأ إلاّ لفترة قيام الأسواق الشعبية في الجوار، في **كاشويرا وسانت ـ فيلكس**. ثم أبحرت مجدّداً نحو مرافىء أخرى صغيرة، ماراغو جيب، وسانتو أمارو، ونازاريت ـ الدقيق، وإيتابارسيـا، مقلّـة مـانـويـل وزوجته التي كانت تغني في الليل والتي كانت لها رائحة البحر. ولقد فتحت السفينة أشرعتها وأبحرت في الصباح المفعم بالحنين.

بقي أنطونيو **بالدوينو و «الضخم» في كاشاويرا**، متسكّعين على طول شوارع المدينة القديمة في تشرّد إلزامي. كانا يحسّان المدينة من رائحتها، من هذه النكهة العـذبـة للتبـغ الوارد مـن سـانـت ـ فيلكس، المواجهة، من المصانع البيضاء التي تشغل وحدها مجموعات من الأبنية، الكبيرة الكرش مثل مالكيها. نكهة تدير الرأس، وتدفع إلى التفكير بأشياء نائية، وهي كانت ترغم «الضخم» على أن يبتكر أو يستعيد قصصاً لا نهاية لها. ولم يجد الشابّان عملاً في المصانع. وهذه لم تكن تستخدم سوى نساء، نساء شاحبات الوجوه ومنهكات من التعـب، ذوات عيـون محاطـة بـدوائـر سـوداء، لأجـل صنـع السيغارات الغالية الثمن التي تقدم في نهاية المآدب الوزارية. وكان الرجال يفتقرون إلى المهارة، وأيديهم كانت سميكة جداً بالنسبة لهذا العمل الدقيق.

وفي يوم وصولها، في فترة أصيل ممطر، اجتازا في القارب باراغواسو الفاصل بين المدينتين. وكان «الضخم» يروي قصة أثناء الطريق. لقد ولد ليكون شاعراً. وهو لو كان يعرف القراءة والكتابة، لاستطاع أن يكسب رزقه من كتابة الأغاني الشعبية والقصص الشعرية. لكن، نظراً لأنه لم يذهب أبداً إلى المدرسة، فقد كان يكتفي بأن يروي، بصوته الرنّان الخفيض، الوقائع المتعدّدة والمختلفة التي كان يسمعها، والخرافات القديمة التي عرفها في المدينة والقصص التي كان يبتكرها بعد الشراب. ولكانت القصص أفضل لو أنه لم تكن له تلك العادة السيئة، عادة وضع ملائكة في كل مكان من قصته. ذلك لأنه كان أيضاً متديّناً جداً.

كان الزورق يتلافى العبات الصخرية. وكان النهر جافاً، وكان الرجال، مشمّرين بنطالاتهم، وبجذوع عارية، يصطادون عشاءهم. وروى «الضخم» قصته، قائلاً:

ـ حينئذ قال بيدرو مالازارته، الذي كان ماكراً عريقاً، للرجل: «يوجد هناك قطيع هائل من الخنازير، ويزيد عددها على خمسمئة، ماذا أقول؟ خمسمئة؟ بل إنها كانت أكثر من ألف، بل ألفين، ثلاثة آلاف، لقد نسيت عددها، لكثرتها». ولم يكن الرجل صاحب القِدر يرى سوى الذيول التي كانت تخرج من الرمل، كمية من الذيول السوداء، كانت تخفق بشدة في الهواء. كانت تتحرّك وكأن ثمة خنازير حيّة مدفونة حقيقة في الرمل. وكان بيدرو مالازارته يقول: «إنها خنازير سحرية... وهي حين تقضي حاجتها، تصنع نقوداً، وفقط أوراقاً مالية من فئة المئة فلس. وحين تبدأ بالسمنة، فهي لا تصنع سوى أوراق مالية من فئة العشرة فرنكات، بل وهي

تصل إلى الأوراق من فئة الألف حين تكون مسنّة. إنني أبادلك كل شيء لقاء قِدرك».

قاطعه قائد الزورق سائلاً:

- ألم يحذر الشخص؟

- كلا، فقد كان أبله، وكانت الخنازير تروق له. لقد أخذ قدره المليئة باللحم وبادلها بالقطيع. حينئذ أضاف **مالازارته** قائلاً: «ليس عليك سوى أن تدعها مدفونة حتى صباح الغد. وفي الصباح تخرج وتصنع النقود». ظلّ الشخص منتظراً خروج الخنازير. ومرّ النهار، ثم الليل، ثم اليوم التالي... والرجل الطيّب ما زال ينتظر، وهو ما زال ينتظر إلى اليوم... وما عليك سوى أن تذهب بنفسك لترى، إذا كان هذا يمتعك...

كان قائد الزورق يضحك، وغدا أنطونيو بالدوينو يطالب الآن بقصّة القِدر. كان يحب قصص بيدرو مالازارته، هذا النذل الذي كان يعرف أن يخدع قريبه والذي كان يعيش حياة صغيرة هادئة تماماً. كان بالدوينو يتصور مالازارته حياً، يجوب العالم ويعرف جميع البلدان، وحتى السماء، بما أن بيدرو مالازارته قد تولّى مرة حمل مال الأرملة الغنية إلى زوجها الذي كان يتضوّر جوعاً في فندق رديء في **الفردوس**. وكان أنطونيو بالدوينو متأكداً تقريباً من أن الشخص الأصلع الذي التقاه في «ماكومبا» جوبيابا كان هو حقاً وصدقاً بيدرو مالازارته متخفياً. ألم يَجُبْ ذلك الرجل الأصلع هو أيضاً العالم بأسره، أوَلم يشاهد كل شيء؟

- لا يمكن أن يثنيني أحد عن اعتقادي بأن ذلك الشخص الأصلع الذي كان يحضر «ماكومبا» الأب جوبيابا، هو بيدرو مالازارته.

ـ أيّ رجل أصلع تعني؟ هكذا سأل «الضخم» الذي لم يعد يذكر.

ـ ذلك الرجل الذي التقيناه حين امتلك الإلّه أوشالا ماري ـ الملوك...

رسا الزورق في وحل المرفأ.

من المصنع كانت تأتي هذه الرائحة التي كانت تدير رأسه. والرجال الذين كانوا يصطادون عادوا إلى مساكنهم، وقد عادوا بالسمك لأجل عشائهم. في تلك اللحظة أحدثت المصانع صفيراً حاداً وطويلاً. إنها نهاية يوم العمل. وقد جاء انطونيو للبحث عن امرأة بين عاملات المصانع: إنه يرغب في ممارسة الحب. وكان ينتظر، كامناً في زاوية الشارع، مرور العاملات، ضاحكاً بشدة من قصص «الضخم».

ولكن ها هن العاملات يخرجن: إنهن حزينات ومتعبات، مذهولات من نكهة التبغ التي كانت تفعم أجسادهن بكاملها، أيديهن وثيابهن وفروجهن. إنهن لسن فرحات، وهناك كثيرات منهن، طابور من النساء المريضات المظهر. إن بعضهن، اللواتي صنعن منذ قليل سيغارات ثمينة ،يقمن بتدخين سيغارات رخيصة. وكلهن تقريباً كنَّ يمضغن التبع. وكان شخص أشقر يثرثر مع فتاة خلاسية صغيرة لم يُذبل المصنع بعد لون بشرتها الزاهي. كانت تضحك، وهو يهمس في أذنها:

ـ سأزيد راتبك.

قال أنطونيو بالدوينو لـ « الضخم »:

- لا يوجد سوى هذه، يمكن شربها... لكن المدير قد وضع يده عليها.

النساء يمررن، صامتات، وكأنهن سكارى: كن يدخلن في الطرقات الضيقة التي سادها الظلام منذ ذلك الحين، ويسلكن الأزقة الخالية من النور. كن يتبادلن الأحاديث بصوت منخفض، ويبدون كأنهن يخشون إيقاع الغرامة بهن، كما في المصنع، لأنهن تبادلن الحديث. ومرّت واحدة، حامل؛ وقفت في مكان أبعد، وعانقت رجلاً يحمل سمكاً بيده. وها هما قد شبكا الذراعين إحداهما بالأخرى. وأخذت تروي له أنها أُوقِعتْ بها غرامة لأنها توقّفت لحظة عن العمل، حين كان بطنها يتوتّر ويؤلمها. وفجأة قالت:

- والأيام التي سأخسرها حين سيولد لي طفل... كم من الأيام...

كان صوتها مفعماً بالقلق. وخفض الرجل رأسه وشدّ قبضتيه. وانطونيو، الذي سمع حديثها، بصق.

كان « الضخم » يرتجف بشدة. واستمرت نساء المعامل في المرور. وكانت ترى أسماء أنواع السجائر والسيغارات على لافتات كبيرة. وفي إحدى الحانات، كانت اللافتة تؤكد: « أفضل سيغارات في العالم. خاصة للمآدب، ولولائم العشاء والفطور ». واستمرت في المرور النساء اللواتي يصنعن السيغارات. كن حزينات المظهر بحيث لا يبدو عليهن أنهن سيرين منازلهن، وأزواجهن، وأولادهن. ولاحظ « الضخم » قائلاً: « يخيل للمرء أنهن يسرن في جنازة ».

ذهبت الخلاسية الصغيرة الجميلة مع الالماني. وكانت المرأة الحامل

تبكي على ذراع زوجها .

في فندق كاشاويرا ، وهو فندق مريح بل وفخم، كان الشبان الألمان يشربون كؤوس الويسكي ويتناولون عشاء أُعِدَّ خصيصاً لهم. وقد جاءت نساء من باهيا للنوم مع هؤلاء الفتيان الشقر الأشدّاء ، أبناء مالكي المعامل التي خرجت العاملات منها. منذ وقت قليل. وكان الشبان يتحادثون وهم يشربون ويتكلمون عن خلاص **المانيا** بالهتلرية؛ وعن الحرب العالمية المقبلة التي سوف يكسبونها ، حسب قولهم. وحين يصعد المشروب إلى رؤوسهم كانوا ينشدون أناشيد حربية .

أمّا القمر البدر الذي خرج من **الجبال الصغيرة** والذي صار الآن فوق النهر ، فلم يكن يراه الالمان الشقر . وعلى ضفة الماء ، كان أزواج العاملات يغنّون على أنغام القيثارات ، والنساء يقدّمن أولادهن إلى القمر .

باركيني أيتها السيدة القمر
خذي طفلي الذي أعطيه لك .
وساعديني في تربيته .

حوالي نهاية هذه الأمسية المبلّلة بالرذاذ ، اقترب **قائد** الزورق من أنطونيو بالدوينو ومن « الضخم » :

ـ ماذا ، أيها الرفيق؟ ألن نأكل؟

ـ بلى ، سوف نأكل...

ـ إذا كنتم تريدون أن تأكلوا عندي... إنه عشاء رجل فقير ،

أنتم تعلمون. ليس هناك سوى السمك، لكنه على كل حال شيء صالح للأكل، ثم إنه مقدّم من صميم القلب...

ثم التفت النوتيّ نحو «الضخم»:

ـ هيّا واحْكِ قصصاً، فإن سماعها سوف يسرّ العجوز. لا بدّ وأنها عادت من المعمل.... إنّ لذي خمس بنات وغلامين...

ابتسم، لأنه يعرف الجواب مسبقاً. ودخلوا في زقاق يؤدي إلى طريق موحلة، وهذه الطريق تذكّر أنطونيو بالدوينو بجبل «خصي الزنجي» الصغير. وفي المنازل كانت تشعّ تألقات المصابيح الحمراء. وكان أولاد يلعبون أمام الأبواب بصنع أشخاص وثيران بوحل الطريق الأسود.

ـ هذا هو المنزل، قال صاحب الزورق.

الجدران سوداء من الدخان. وبمثابة زينة، كانت صورة وحيدة تمثل القدّيس بونفان، وقيثارة معلقة بالحائط. وطفل صغير ينام على سرير من الألواح الخشبية. ويبدو تماماً أنه في شهره الثالث على الأكثر.

أيقظته قبلة الرجل، ومد نحوه يدين صغيرتين وهو يضحك بكل فمه الصغير الأسود. وكان قد أصبح له البطن المنتفخ للأولاد الآخرين الذين يصنعون أشخاصاً من الطين أمام الباب.

وقام الملاّح بواجب التعريف:

ـ إنهما صديقان. وهذا ـ وأشار إلى «الضخم» ـ هو رائع في رواية القصص. سوف ترين...

كانت المرأة تمضغ التنباك. وكانت شفتاها مقلوبتين، وسحنتها صفراء مثل شخص يعاني من الحمّى. أخذت الاسماك التي جاء بها زوجها وذهبت إلى المطبخ. وسُمعت وهي تنادي الأولاد.

تناول انطونيو بالدوينو الغيتار. وسأل الضخم:

ـ هل الحياة قاسية هنا؟

ـ ما هو قاسٍ هو أن تجد عملاً. لا عمل هنا إلاّ للنساء. أما الرجال فيذهبون الى صيد السمك أو يحصلون على بعض الفلوس من تشغيل قواربهم.

ـ والنساء، هل يربحن كثيراً؟

ـ كثيراً؟ ثلاث مرات لا شيء... من غير أن نحسب الغرامات، والتغيُّب بسبب الأطفال، والأمراض. ولهذا سرعان ما يَشِخْن وينتهين... وهنا نجد بعضهنّ صلبات، أيها الأخ!

ـ هذا مُحزن...

ـ محزن؟ (وأخذ الرجل يضحك) يجب ان ترى كم من الأشخاص يموتون جوعاً. حين تترك امرأة مصنعاً، لا تجد عملاً في مكان آخر. هذا ترتيب يتّفقون عليه فيما بينهم... وليس كلّ يوم يوجد سمك للصيد.

كان زنجيّ شاب على الباب يصغي صامتاً، ويومىء برأسه موافقاً.

وأحسّ الضخم بالذنب لكونه باشر موضوعاً حزيناً إلى هذا الحدّ.

ـ ولكن الله الطيّب يساعدكم...

ـ أجل، على التقاط الأمراض. هذا كل شيء. إن زوجتي البورجوازية هي التي وضعت هذه الصورة، اما أنا فلا أصدّقها بعد... لقد سبق ان مُتّ جوعاً، وبأية طريقة! وذات مساء، لم يكن

هناك حتى ما تأكله الصغرى، تلك (واومأ إلى خلاسيّة صغيرة ذات خمسة أعوام). لقد نسي الله الفقراء...

ظهرت المرأة على الباب الداخلي ولفظت بصقة من اللّعاب المسودّ.

ـ إن ما تقوله هرطقات يا عزيزي. والربّ سوف يعاقبك.

أجاب الشابّ الواقف على الباب:

ـ وأنا، في أعماق قلبي، لا أصدّق ذلك أيضاً. إلا من أطراف شفتيّ. أتريد ان أقول لك؟ إن ذلك الألماني القذر قد وقع على مارييت. وقال لها إنه سيزيد راتبها... أين تراه يكون، الله؟

صلّى الضخم بصوت خافت. وابتهل إلى الله ألاّ يَدَعَ الألماني يستولي على مارييت، وكذلك ألاّ ينقص الغذاء قطّ على طاولة صاحب الزورق. وكان انطونيو بالدوينو يعرف ان الضخم كان يصلّي وان ذلك لن يجدي شيئاً. فقال:

ـ ربما كان هذا إثماً، أيها الأولاد... ولكن الرغبة التي أحسّها، أنا الذي يكلّمكم، هي أن أقتل جميع البيض... أودّ أن أقتلهم بلا شفقة.

السمكة موضوعة على الطاولة. وقد اختفى الزنجيّ الشابَ (سيُحكم عليه بعد بضعة أشهر بثلاثين عاماً من الأشغال الشاقّة لأنه قتل الألماني الذي كان قد تخلّى عن مارييت مع ولدٍ وبلا عمل) ليس هناك كثير من الطعام لمثل هذا العدد من الأفواه، والأولاد يطلبون منه المزيد. وكان ضوء السراج الأحمر يرسل ظلالاً هائلة.

روى الضخم قصّة قِدْر بدرو مالازارته، ونام الصغار. وكانت إحدى الفتيات الصغيرات ما تزال تشدّ في يدها الصغيرة السوداء

تمثالاً صغيراً من الطين فَقَد إحدى ذراعيه. وفي حُلمها، كانت دميةٌ شقراء من البورسلين تقول «ماما» وتغمض عينيها لتنام. وخرجوا من ناحية النهر. كان الرجال يغنّون في ضوء القمر، وكانت نساء ذوات ثياب مرقّعة يتنزّهن على حافة النهر. وكان النهر يمرّ ويختفي تحت الجسر.

ويغنّي الضخم أغنية «شكوى فيلالا» يرافقه بالذوينو على الغيتار. ويصغي الرجال إلى قصة العراك البطوليّ لقاطع الطريق فيلالا مع «قائد سفينة نقل العبيد». انها قصة بطوليّة. كان قائد السفينة شجاع، ولكن فيلالا كان أشجع:

كان القائد مقداماً

إلى حدّ أنه شنق نفسه

اما قاطع الطريق فقد مات

كقديس وفاز بخلاصه.

قال أحدهم: ـ جميل.

ثم أضاف ملتفتاً إلى الضخم:

ـ غنِّ لنا أغنية أخرى، يا رفيق.

وكان انطونيو بالدوينو هو الذي شرع يغنّي ألحان «سامبا» و«مودينياس» أثارت حزن النساء.

ومن قبّة جرس الكنيسة سقطت الضربات التسع للساعة التاسعة.

واقترح زنجيّ صلب:

ـ ما قولكم يا أولاد في ان نذهب إلى «سامبا» حانة فابريس؟

وتوجّه بعضهم إلى الحانة، بينما توجّه الآخرون إلى بيوتهم او تسكّعوا قليلاً على الشطّ ينظرون الى القمر والنهر والجسر: إن هذه هي «سينما» هم.

كان فابريس يستقبل مدعوّيه وقدحٌ من « الغنول » في يده:
ـ هل تريدون أن تأخذوا شيئاً ؟

الجميع قالوا نعم، وانتقل القدح من يد إلى أخرى، قدح كبير كان فابريس يملأه حتى الشفة بكل دقّة.

وقدَّم المعدّي والضخم قائلاً: « صديقان ».
ـ ادخلوا، ادخلوا.. إن الاصدقاء هنا في بيتهم...
قال هذا وهو يوزِّع ضربات كبيرة على الظهور.

ودخلوا. وكان خلاسيّ ذو شارب قصير يعزف على الأكورديون. وكان ازواج الراقصين يدورون في القاعة. ولم يكن انطونيو بالدوينو يبعث رائحة الزنجيّ المميّزة. فقد كانت رائحة التبغ هي المسيطرة في هذه الضاحية البعيدة. ويظلّ ازواج الراقصين يدورون، وينحني عازف الأكورديون ثم ينهض، وفي آخر الرقص بلغ من الهياج أنه كان يعزف واقفاً وأنه أخذ يرقص هو أيضاً ملامساً الراقصين الذين كانوا يمرّون في متناول يده.

وحين توقّفت الموسيقى، صرخ المعدّي:
ـ اسمعوا: إن هنا شخصاً يعزف على الغيتار كالربّ... وهذا الضخم يعرف كومةً من الحكايات الجميلة.

قال انطونيو بالدوينو للضخم:
ـ إن لديّ فكرة أن ألتقط امرأة هنا.

وذهب يشرب قدحاً مع معلّم البيت، ولدى عودته، نزولاً على إلحاح الزنجيّات، عزف على الغيتار أجمل ألحانه « السامبا » التي غنّاها الضخم. وقد نقم عليه عازف الاكورديون، ولكنه لم يقل شيئاً.
وحين انتهى انطونيو بالدينو، قال له:
ـ هل نشرب قدحاً، يا صديق؟ إنك تعزف جيّداً في الحقيقة.

ـ أنا... أخربش العزف... بل أنت العظيم!

وأراه الآخر نساءً:

ـ هذه تمشي... ولكن اسمع! إن لصغيرتي صديقة... فلماذا لا تمشي معها؟

وعاد يعزف على الاكورديون. وأخذت القاعة كلها تدور. وكانت الاقدام تضرب الأرض، وكانت العانات تلامس العانات، والرؤوس تتماسّ، وكان الجميع سكارى، البعض بالكحول والآخرون بالموسيقى. وكان الرجال يتابعون التام ـ تام وهم يصفّقون، والأجساد تتشابك عند الخصر، ثم يترك بعضها بعضاً، فتدور وحدها وتلتقي من جديد، بطناً لبطن، وفرجاً لفرج.

وكان التام ـ تام يتتابع، والعازفون يختلطون بالراقصين. وكان رأس القاعة في الأسفل، كانت مقلوبة، وفجأة عادت إلى طبيعتها، ثم سرعان ما فقدت هذه الطبيعة، وكان الجميع يمشون على السقف. وكانت أضواء السُرُج تزيد البلبلة. إذ كانت الظلال ترقص هي أيضاً، ترقص على الجدران ضخمةً مفزعة. كانت الأرض قد اختفت، ولم تعد الأقدام تُحسّ بها. لم يكن المرء يحسّ بعد إلا الجسم الذي يلمسه ويعطيه دُفعة. وكانت النساء مطّاطات، تطويهنّ اختلاجاتهن إلى نصفين، وتتّسع كشوحهن، والأفخاذ تتحرّك وحدها، كأنّها منتعشة بحياة مستقلّة. لم يكن ثمة من قاعة بعد، ولم يكن ثمة من ضوء، ولم يكن أحد ليرى شيئاً بعد. وحدها باقية أنغام التام ـ تام، ورائحة التبغ الْمُسْكرة والعانات التي تلتقي. وها هي ذي الشهوة تختفي أيضاً بدورها، ولا يبقى الآن بعدُ إلا الرقص المحض.

خطّ انطونيو بالدوينو على رمل النهر اسماً: ريجينا. والمرأة

المستلقية على مقربة منه، مُسترخيةً بعد الحبّ، ابتسمت بسمة رضى وعانقته. ولكن موجة صغيرة أتت اذ ذاك تمحو الاسم الذي كان قد خطّه بـرأس سكّينه. وانفجر انطونيو بالـدينـو بضحكـة، ضحكـة كانت تهزّ كلّ كيانه، واستولى الغضب على المرأة، فأخذت تبكي.

يد

كانت مزرعة التبغ تشغل « الجبل الصغير » بكامله وتبدو كأنها لا حدود لها. وهي، بعد أن امتدّت في السهل، أخذت تتسلّق « الجبل الصغير » وتهبط من الجانب الآخر للجبل: مناظر خضراء، على مدّ البصر، مكسوّة بنباتات منخفضة ذات أوراق واسعة. كان الهواء يهزّ الأوراق، ولولا الكيس القماشي الصغير الذي يحميها، لكانت البذور ستضيع في أرض قاحلة.

كانت النساء، المنحنيات، يقطفن أوراق التبغ بحركة متعبة، ثم ينهضن ويشرعن في الحركة. وكان الرجال قد تقدّموهن، وهم يسيرون مقوّسي الظهور. كانوا يحملون أعباء من أوراق التبغ التي يضعونها إثر ذلك أمام منازلهم، فيحجبونها من أشعة الشمس الشديدة ومن المطر. وكانت الأوراق الجافّة تخلي المكان لأوراق نديّة، طازجة، تشكل ما يشبه الستارة أمام منازل الشغيلة. وكان ثمة فسحة بين المنازل يجتمع فيها الرجال للتحادث ولعزف القيثارة. وتتألف هذه الفسحة من أربع تربيعات. وقد دخلت العجوز إلى إحدى هذه التربيعات، حيث كان بعلها مترفصاً يراقب الفاصولياء التي كان يطهوها. وتأخرت المرأة الصبيّة لتتحادث قليلاً مع الرجال، في « الساحة » كما كانت تدعى قطعة الأرض القائمة بين المنازل.

كان الضخم يفكر بحزن في جدّته ويقول:

ـ لقد بقيت وحدها تماماً بحراسة الربّ الرحيم... فمن الذي سيقدّم لها الطعام؟

ـ لا تحزن، إنها لن تموت جوعاً.

ـ ليس هذا ما أقصده (كان «الضخم» شديد الارتباك)، أنا أقول إن..

استندت المرأة بيديها إلى الكرسي لكي تصغي وهي مرتاحة.

ـ حسناً، ماذا تعني؟

ـ ألا تعلمين؟ إنها عجوز مسكينة. وهي لا تأكل إلاّ إذا زُقَّتْ

انخرطت المرأة في الضحك، وكان الرجال يمزحون:

ـ يبدو لي أنها حبيبته.... إنه يزقّها! يا لها من قصة! هل هي جميلة؟

ـ أقسم لكم بأنها جدّتي، أقسم لكم. لقد فقدت أسنانها وأضاعت صوابها...

وصل رجال آخرون. وتمدّد أنطونيو بالدوينو على الأرض، وبطنه إلى الأعلى. وسأله «الضخم»:

ـ أليس صحيحاً أن لي جدّة وأنني أزقّها بالطعام؟

ارتفعت ضحكات جديدة. وقاطعته المرأة:

ـ لا بدّ أن امرأتك مسنّة جداً يا «ضخم»، بحيث تدعوها جدتك؟

كان الضحك العام والمزاح والصياح تزيد في ارتباك «الضخم».

ـ أنا أحلف على ذلك... أحلف على ذلك. وقَبّل أصابعه التي أقام بها شكل صليب.

ـ أحضرها إلينا. أنا سوف أزقّها، وسأتزوجها أيضاً. وأنا لا أبالي إذا كانت عجوزاً.

نهض أنطونيو على مرفقيه:

ـ أتريدون أن أقول لكم؟ إنكم جميعاً مجانين، وحق الله! وضرب بيده على جبينه. وأضاف: وبالضبط، إن للـ «ضخم» جدة، ثم إن له ملاكاً حارساً. ولدى «الضخم» كثير من الأشياء التي ليست لدى الآخرين. إن «الضخم» شخص طيّب، ولعلكم لا تعرفون ذلك...

انتاب «الضخم» الارتباك. ولزم الرجال الصمت، وراحت الفتاة تنظر مذهولة.

ـ «الضخم» طيّب، ونحن أشرار... «الضخم».. وضاع نظرها في تأمل حقول التبغ.

وهمس ريكاردو:

ـ حتى ولو كانت عجوزاً، سوف أحصل عليها...

لكن المرأة اقتربت من «الضخم» قبل أن تعود إلى منزلها:

ـ هل ستصلّي لأجلي؟ اتْل صلاة لكي يجعل الملاك زوجي انطونيو يكسب أربعة فلوس، وهكذا سيكون باستطاعتنا الذهاب إلى مزارع الكاكاو.

وألقت نظرة على أوراق التبغ وقالت:

ـ « هناك نقود كثيرة في مزارع الكاكاو »

قال ريكاردو:

ـ العمل شاقّ هذه السنة... وهناك محصول ضخم، وزيغينيا لا يريد أن يأخذ أيّ عامل زيادة. بل إنني أتساءل كيف وافق على تشغيلكما، أنتما الاثنين...

ـ لقد كدنا نموت جوعاً في كاشويرا... ولهذا جئنا إلى هنا.

ـ أجل، لكسب عشرين فلساً كل يوم.

راح بغل ينهق في السهل. وقال أنطونيو بالدوينو للرجل المسنّ الذي كان خارجاً من منزله، وفمه ملآن:

ـ هيّا، يا صاحبي، حيّ أباك.

انفجرت ضحكات. وعاد بالدوينو يقول، وهو يخفض نبرته:

ـ لا بأس، إن توتونيا قطعة جميلة...

ـ حاول أن تحتكّ بها... إن في ذمة زوجها أربعة قتلى. إنه لا يمزح، وهو يحسن الرماية...

ـ على كل حال، لم أعد أطيق الصبر. شهران بدون امرأة...

كان العجوز يضحك. ونظر إليه ريكاردو بغضب:

ـ تستطيع أن تضحك أنت. إن لديك زوجة. ولا بأس بكونها لوحة قديمة، فانّها امرأة على كل حال. في حين أنني منذ عام لم أر فرساً في سريري.

لزم الرجال الصمت. كان الهواء يهزّ نبتات التبغ، التي كانت أوراقها العريضة تشبه فروج نساء غريبة الشكل. ابتلع ريكاردو

لعابه، وقد جف حلقه، وقال:

- لا أستطيع... كيف يستطيع المرء أن يعمل بدون امرأة... وهنا لا يوجد سوى هاتين آلانثَيَيْـن، وهما متزوجتان.

- وابنة الماما لورا؟

قال ريكارود: إنني مستعدّ تماماً لأتزوجها، إذا كانت تريد.

غرز أنطونيو بالدوينو مديته في الأرض. وأكّد زنجي كبير الهامة قائلاً: في أحد الأيام، سوف أومىء لها باشارة، سواء ارادت أم لا...

- لكنها بنت صغيرة في الثانية عشرة من عمرها. هكذا قال «الضخم» مشدوهاً.

الجبال في العمق، مغطّاة بالضباب. السكة الحديدية. وبين حين وآخر، قطار يصفر، ونساء يُشرن من نوافذه. الطريق حيث يمر الرجال الحاملون أكيـاس الفـواكـه إلى الأســواق الشعبية، والذين يسوقون بغالاً محمّلة، أو هم يقودون الماشية لبيعها في سوق القديسة - حنّة الشعبية. تـارة كانت أيديهم تمسك بأكياس هائلة الضخامة، وطوراً كانوا ينخسون بهائمهم أويقودون ثيرانهم. وكانت قطعان، في انتجاع[1]، تمرّ وكان يسمع صوت البقّارين الحزين يغني:

أوووووووو بوي ي ي ي.

والأيدي التي كانت تنخفض نحو الأرض، عـريضـة وخشنـة،

---

(١) ارتيـاد الماشيـة الكلأ في مـواضعـه وانتقـالها مـن أجـل ذلـك (عـن «المنهل»).

لقطف أوراق التبغ العطرة. كانت الايدي تنخفض وترتفع على إيقاع متساوٍ دائماً. وكأنما كانت تلك هي حركات الصلاة. هذا العمل كان يسبّب ألماً في الظهر، ألماً حاداً وعاصياً يستمر في الإيلام، حتى ليلاً. كان زيغينيا يراقب العمل، ويصدر أوامر، ويغضب. وكانت أكوام من الأوراق تتكدّس، وحين يأتي المساء، تكون أيدي الرجال قد كسبت العشرين فلساً التي لم يكونوا يرون لونها أبداً. لأنهم مدينون لرب العمل بمبلغ كبير وغير معروف.

بأيديهن الدميمة والخشنة كانوا يقومون باشارات للقطارات التي كانت تمر وهي تصفر.

كان أربعة رجال يسكنون كوخ اللّبن: وهم ريكاردو، والزنجي فيلومين، وأنطونيو بالدوينو و«الضخم». لم يكُن فيلومين يتحدّث إلاّ عن طلقات البندقيّة وجرائم القتل وذلك في الحالات النادرة التي كان فيها يفتح فمه، ذلك لأنه كان عادة يصغي في صمت. وكان ريكاردو قد ألصق على الجدار، فوق ألواح الخشب التي كان ينام عليها، صورة ممثلة سينمائية عارية تماماً، وذلك بالضبط مع مروحة تغطي فرجها. وكان ابن رب العمل هو الذي أعطاها لريكاردو قبل ثلاثة أعوام أثناء زيارة الابن للمزرعة. وقد ألصقها ريكاردو بأكبر عناية. وكان يضع المصباح بحيث يَسْقُط الضوء الأحمر بكامله على الممثلة، ذات العري المستفزّ. وقد وضع «الضخم» فوق سريره قديساً «قايض» به مقابل عشرة فلوس في احتفالات «بونفان». وكان أنطونيو بالدوينو يضع عند أسفل سريره التعويذة التي كان قد أعطاه إياها جوبيابا، والخناجر التي كان يحملها أنطونيو في حزامه. أمّا فيلومين، فلم يكن لديه أي شيء.

بعد العشاء، كانوا يجتمعون في الخارج. ونظراً لعدم وجود سينما أو مسرح أو حانات ليلية. فقد كانوا يعزفون على القيثارة، ويقومون بمباريات مرتجلة. وكانوا يغنّون أغاني مأساوية أو ألحان «سامبا» فرحة، وكان ريكاردو بارعاً في الارتجال. كانت أيديهم تنزلق على القيثارة. لم تكن هي ذات الأيدي التي جعلتها الأرض والمعاول خشنة وكانبة، بل كانت أيدي فنانين، رشيقة وثابتة، تحمل إلى قلوب الناس قصص حب وعِراك. وبعد الخبز، كانت هذه الأيدي تعطي الفرح لبلد بلا نساء. كانت الأيدي البارعة تنزلق على طول الأوتار، والموسيقى تنتشر عبر مزارع التبغ التي كانت تتخذ، في ضوء القمر، مظهراً عجائبياً.

حين كان الصمت يهبط على كل شيء، وحين لم يعد يُسمع صوت القيثارات، والرجال أصبحوا ممدّدين على حواجز مراقدهم، كان ريكاردو، بعد إطفاء السراج، يأخذ بتأمّل صورة الممثلة. كان نظره مثبتاً عليها، وها هي قد بدأت تتحرّك. لكنها الآن مرتدية ثيابها، وقد غادرا معاً مزرعة التبغ. إنهما في مدينة كبيرة، مدينة لم يسبق لريكاردو أن رآها أبداً، وهي حافلة بالأضواء، تعبرها سيارات وجادات، وهي أكبر من كاشاويرا وسانت ـ فيلكس مجتمعتين. لا بدّ أنها مدينة باهيا، بل وربما، من يدري، ريودي جانيرو. كان يرى مرور نساء شقراوات، وكلهن يبتسمن لريكاردو، ذلك لأنه يرتدي بذلة أنيقة جداً من الجوخ، وينتعل حذاء أحمر مثل تلك الأحذية التي رآها في أحد مخازن سوق «القديسة حنّة» الشعبية. كانت النساء يضحكن، وكلهن يرغبن فيه، لكنه هو لا يريد هجر

الممثلة التي عرفها في أحد المسارح، وهي تتعلق بذراع ريكاردو ملامسة صدره بنهديها. ثم يذهبان للعشاء في مطعم فخم مليء بالنساء المتعرّيات العنق والكتفين، حيث يحتسيان خموراً ثمينة. وهو قد قبّلها مراراً عديدة، وهي تحبّه بالتأكيد، ذلك لأنها تسمح له بملامسة ثدييها، وبأن يرفع تحت الطاولة تنورتها الحريرية. ولكن ها هي قد عادت إلى إطارها على الجدار، وأعادت وضع مروحتها على فرجها، ذلك لأن حاجز المرقد يَصـرّ كثيراً، ولأن أنطونيو بالدوينو راح يتحرك على سريره المؤلف من ألواح خشبية في الجانب الآخر من الحجرة.. وقد انتظر ريكاردو غاضباً عودة السكون. وسحب حتى الذقن غطاءه المثقوب. ثم عاد ريكاردو إلى المرأة في المطعم واستقلّ بعد قليل سيارة للذهاب إلى حجرة تضم سريراً وعطوراً. عرّاها شيئاً فشيئاً متمتّعاً بمفاتنها واحداً واحداً. ولم يعد يبالي الآن بصرير حاجز المرقد وبكون أنطونيو بالدوينو يتحرك. كلا، ليست يد ريكاردو الخشنة التي يحس بها بل هو يلمس فرج الممثلة الشقراء المجرّدة من ثيابها ومن مروحتها، وهي تضاجع الآن ريكاردو. وليستيقظ من يشاء: إنه لا يفعل أي شيء سيّىء، بل إنه يضاجع امرأة حسناء، صلبة الثديين، مدورة البطن.

عادت الممثلة لتحتل الصورة، وفرجها مستور بالمروحة. وعلى الطريق يشع ضوء مصباح يضيء مزارع التبغ. وألقى ريكاردو رأسه على ألواح السرير الخشبية وأغفى.

في يوم أحد ما، أعلن ريكاردو بأنه ذاهب لصيد السمك في مياه النهر. وقد اشترى مفرقعات، وهو يأمل في الحصول على كثير من

الأسماك. وقد دعا الأصحاب للذهاب معه. لكن «الضخم» هو وحده الذي وافق على مرافقته.

وراحا يتبادلان الأحاديث على طول الطريق. وخلع ريكاردو قميصه على ضفة النهر، ورقد «الضخم» على العشب. كانت مزارع التبغ تمتدّ في البعيد وراءهما. ومرّ قطار. وأعدّ ريكاردو المفرقعة، وأشعل الفتيل. كان يبتسم. وقام بحركة، ولكنه قبل أن يتاح له الوقت لإلقاء المفرقعة، انفجرت ممزقة يديه وذراعيه، ملطخة مياه النهر بالدم. ونظر ريكاردو إلى بقايا أطرافه: كان الأمر وكأن ريكاردو قد انتحر.

سهرة

إن **أرميندا**، البنت الصغيرة **لماما لورا**، التي كانت بعد انتهاء عملها، تقفز عبر الحقول ببهجة أعوامها الاثني عشر، لم تعد الآن تقفز ببهجة،فهي تعمل مبدية نظرة قلقة. بل إنها طلبت مرة من زيكينيا الإذن بالعودة إلى المنزل. ذلك لأن ماما لورا ترقد منذ أسبوع على سريرها، وقد تورّم جسمها بسبب داء مجهول. في الماضي كانت **أرميندا** بَهِجة: كانت تستحمّ في النهر، وتسبح كسمكة، مثيرة شهوة الرجال وهي تظهر جسدها المراهق. أما الآن فهي كلها للعمل، ذلك لأن الذي لا يعمل في هذه المنطقة، يموت جوعاً.

في ذلك اليوم لم تُرَ في المعمل. وقد أعلنت توتونيا القادمة من عند المرأة المريضة قائلة:

ـ لقد وضعت العجوز سلاحها على اليسار [1]...

رفع الرجال أنوفهم عن العمل:

ـ إنّها الشيخوخة ولا شكّ....

ـ إنها متورّمة بحيث تبدو مثل ثور... بل إن منظرها مخيف...

ـ يا له من مرض غريب!...

ـ لا يمكن أن أتخلّى عن فكرتي بأن روحاً خبيثة قد ركبتها...

دخل زيغينيا. وانحنى الرجال مجدداً على أوراق التبغ. وهمست له

---

(١) يقصد الكاتب أن حياتها العملية قد تعطلت (هـ. م.).

توتونيا بعض الكلمات في أذنه ثم أعلنت بصوت عال:

ـ سأذهب لألازم الصغيرة. وفي هذه الليلة ستكون سهرة...

وأسرّ الزنجي فيلومين في أذن أنطونيو بالدوينو خفية:

ـ أنا الذي سأذهب.

شرب « الضخم » جرعة من خمرة القصب. ذلك لأن الموتى كانوا يخيفونه كثيراً. وفي ساعة الغداء، روى كل شخص قصص مرحومين كان يعرفهم. وجرى التذكير بحالات مرض وبموتى. ولم يكن الزنجي فيلومين ينبس بكلمة. لقد كانت لديه خطة في رأسه.

كان يبدو أن المشاعل تسير وحدها. وكان ألقها المتراقص يقترب من كوخ التراب المدكوك. لم يكن بوسع الناظر أن يتميّز لأشخاص، بل فقط هذا الاحمرار المتراقص، القلـق مثـل روح معـذّبـة. وعلى العتبة، كانت توتونيا تستقبل القادمين الذين جاؤوا للسهر على المرأة الميتة، وتوزّع المعانقات، وتصغي إلى التعازي، تماماً وكأنها قريبة الماما لورا. وكانت عيناها دامعتين وهي تروي آلام المرحومة.

ـ المسكينة، كم صاحت من الألم... ويا له من داء قذر!...

ـ في رأيي أنها روح...

ـ لقد نفخ الداء بطنها، فأصبح مثل لحاف الريش...

ـ الآن لم تعد تتألم...

رسمت امرأة شارة الصليب. وسأل الزنجي فيلومين:

ـ وأرميندا؟

ـ إنها في الداخل، وهي تبكي. يا للمسكينة الصغيرة، لم يبق لها أحد...

وأدارت كؤوس الخمرة على الحضور. وشرب الجميع.

في الحجرة كان مقعدان مصفوفين قرب جدار. وكان بضعة رجال وبضع نساء، حفاة، ورؤوسهم مكشوفة، يسهرون على الجثمان. ومن جانب القاعة الآخر، كانت أرميندا جالسة على كرسي قديم تبكي. كانت تبكي، بكاء بلا دموع تقطعه انتحابات عالية. وتقدم الذين وصلوا لتوّهم، نحوها، وشدّوا على يدها دون أن ينبسوا بكلمة.

في وسط الغرفة التي تستخدم عادة كمائدة، كان الجثمان يثوي ممدّداً على طاولة منتفخاً، وعلى وشك الانفجار. وكانت تغطّيه قطعة قماش مطبّع بأزهار صفراء وخضراء، لا تكشف سوى وجه مغضّن وفم ملتوٍ، وقدمين مسطّحتين هائلتي الضخامة، متباعدتي الأصابع. كان الرجال، لدى مرورهم أمام الجثّة، يلقون على الوجه نظرة خاطفة، وترسم النساء شارة الصليب. وكانت شمعة قرب وسادة المتوفاة، تنشر ضوءها على ملامح الوجه المجمّدة في تعبير ألم وعذاب. وكان يبدو أن عيني الميتة تنظران نظرة ثابتة إلى الرجال والنساء الجالسين على المقاعد، والذين دبّ فيهم النعاس. وتداولت الأيدي، واحدة بعد الأخرى، زجاجة خمرة القصب. كان الحضور يشربون جرعات طويلة، من فم الزجاجة. ونهض رجلان وذهبا للتدخين. وجاء زغينيا إثر ذلك ومسح على رأس أرميندا. حينئذ بدأت صلوات الموت يتلوها «الضخم».

يا إلهي، تولّ أمر هذه الروح...

وكان الحضور يجيبون في جوقة:

صلّوا لأجلها...

كانت زجاجة الخمر تدور على الحضور. وكانوا يشربون من فم الزجاجة. وكانت الشمعة تضيء وجه الميتة، التي كانت تزداد انتفاخاً باستمرار. في حين كانت الجوقة تتلو منتحبة:

صلّوا لأجلها.

رفع انطونيو بالدوينو عينيه نحو أرميندا. من الجانب الآخر للقاعة؛ كانت تبكي. لكن وجه المرأة المنتفخ كان يمنع أنطونيو من أن يرىَ جيداً.

من جهته، كان الزنجي فيلومين يراقب البنت اليتيمة. وكان أنطونيو بالدوينو يرى جيداً أن عيني الزنجي مثبتتان على نهدي أرميندا، اللذين كانا يرتفعان وينخفضان، على إيقاع النحيب. انتابت أنطونيو هبّة غضب. وهمس لجاره:

ـ هو لا يحترم حتى الموتى، هذا الزنجي القذر...

لكن أنطونيو كان ينظر هو أيضاً، إلى الثديين المهتزّين تحت الصدار. وفجأة حوّل الزنجي فيلومين نظره عنهما. لقد انتابه الخوف، والجميع يرون ذلك. من أي شيء كان يخاف؟ إنه يفكر في انطونيو بالدوينو. وقد ابتسم تقريباً وهو يدسّ عينيه في فتحة الصدار. كان ضوء الشمعة الكبيرة ينصبّ كاملاً على أصل الثديين. وكأنما الضوء يريد الدخول... أجل، كان الضوء يسعى للتغلغل بين ثديي أرميندا، مثل يد. ها هو الضوء يحاول... كان أنطونيو بالدوينو يراقب المشهد، وعيناه متوهّجتان. وكان يبدو الآن أن الضوء قد نجح في النفاذ إلى عري الفتاة. وهو بالتأكيد يقوم الآن بعجن الثديين الصاعدين الهابطين. ابتسم أنطونيو وقال صارّاً على أسنانه: لقد بلغ

الضوء أغراضه، هذا الماكر...

لكنه هو أيضاً حوّل نظرته وراح يرتجف. ألا تثبّت المرأة الميتة عليه عينين غاضبتين؟ نظر أنطونيو إلى الأرض، لكنه كان يحسّ بأن نظرة العجوز، الحاقدة، تطارده. وفكر، في دخيلته:

ـ لماذا بحق الشيطان لا تهتم هذه العجوز اللعينة بهذا القذر فيلومين الذي يشتهي الصغيرة؟

وتذكر أنطونيو بالدوينو أنه هو أيضاً نشأت لديه أفكار سيّئة، واجتنب نظرة الميتة. وجعل ينظر إلى «الضخم» الذي كان فمه ينفتح وينغلق أثناء ترتيله أناشيد الموتى.

افتراض أن هذه الذبابة ستدخل إلى فم «الضخم»... ولكن على أنطونيو بالدوينو استمرت العجوز تثبت عينيها، وفيلومين لا يحول نظرته عن ثديي الصدار.

ـ يا لَهذه العجوز الشيطانية! إنها ما زالت تحرس ابنتها... إنها ليست ميتة كما يبدو عليها...

ـ ماذا؟... قال جار.
ـ لا شيء... لم أقل أي شيء.

كان «الضخم» يرتّل. وعاود أنطونيو بالدوينو التلاوة مع الجميع:

صلّوا لأجلها..

أكيد، هذه الذبابة ستدخل إلى فم **«الضخم»** وكادت تدخل حين أطبق **«الضخم»** فمه. وها هي مجدّداً تقف على أنفه. وهي

تنتظر أن يفتح **«الضخم»** فمه مجدداً. انتهى الأمر. ولكن الذبابة حلقت تحليقاً كبيراً. وذهبت لتحطّ من الجهة الأخرى، على **أرميندا**. اهتزّ الزنجي فيلومين على كرسيّه. وفاجأ أنطونيو نفسه وهو يتخيّل كيف هما، ثديا أرميندا. أنت تتحدث عن ثدييها: إنهما تشكلان طابتين تحت الصدار. وبالضبط وقفت الذبابة على إحداهما، بالتمام على حلمة الثدي الايسر، المروّسة. إنها لا تلبس رافعة نهدين، وهذا ظاهر على الفور... وفكر أنطونيو: لماذا هي تبكي؟ إن لها عينين واسعتين، ورموشاً طويلة. إن الانتحاب وهو يهزها، يكاد يسبّب انبثاق أحد النهدين خارج الصِدار. وفرّت الذبابة، متجهة إلى وجهالمرحومة. لشدّ ما انتفخت هذه! لم يعد يمكن أن تبقى على الطاولة. لقد أصبح وجهها هائل الضخامة، واخضرّت بشرتها، وجحظت عيناها. ولكن لماذا هي تنظر هكذا إلى أنطونيو بالدوينو؟ أي شرّ ارتكبه؟ إنه لم يعد ينظر إلى جهة أرميندا. (أما الزنجي فيلومين فنعم، إنه يفترس الفتاة بعينيه). إذاً ماذا تنتظر الميتة لكي تتركه، وتدعه في سلام، وتنظر إلى موضع آخر!... ويا لَشدّ ما انتفخت! لقد أصبحت مشوّهة الشكل. الذبابة الآن على أنفها. أليس عرقاً هذا الذي يتصبّب الآن على وجه الميتة؟ طبعاً إنها تريد صلوات. وانطونيو بالدوينو ،بدلاً من الصلاة مع الآخرين، يراقب ابنتها... وانضم الزنجي إلى الجوقة:

صلّوا لأجلها..

إنه مسرور لأنه قال ذلك بصوت عالٍ بحيث انتفض فيلومين، وردّد في وقت غير مناسب.

صلّوا لأجلها.

لقد تأخر. كان «**الضخم**» يتلو شيئاً آخر. زجاجة الخمر تدور. وشرب **أنطونيو بالدوينو** منها جرعة كبيرة، وبعد ذلك، أدار عينيه مجدداً نحو **أرميندا**. لكن المرحومة اعترضت نظرته. والآن كانت الميتة قد انتفخت بحيث لم يعد يستطيع أن يرى سوى نصف وجه أرميندا. لكنه كان يرى جيداً، ويرى كثيراً جداً، عيني المرحومة المفعمتين حقداً. ألا يعني هذا أنها حزرته كونه سيطلب من أرميندا شربة ماء، وذلك فقط ليرافقها إلى الغرفة الأخرى. ويجسّها؟ إن الموتى يعرفون كل شيء. وقد كان يرى الوجه الفظيع للميتة العجوز. إنه لم يسبق له أبداً أن رأى نظير هذا الوجه. أما وجه أرميندا فهو ضاحك، مشرق. وهي، حتى حين تبكي، مثلها الآن، تكون ذات وجه فرح، فلمَ الأمر هكذا؟ إن وجه المرحومة أخضر مكسوّ بحُبَيْبَات عرق. إنه دبق. ومسح بالدوينو يديه إحداهما بالأخرى، للتحرّر من هذا الإحساس. ورفع عينيه نحو السقف. لكنه أحسّ بنظرة الميتة تدبّقه. وقضى فترة طويلة يتأمل تفصيلاً الرافدات الصغيرة والقرميد الأسود. وفجأة خفض عينيه ونظر إلى ثديي أرميندا: لقد احتال على الميتة العجوز. لكن الأمر أصبح أسوأ، أسوأ بكثير: التوى فمها بغضب مسعور، وجحظت عيناها. وحطّت ذبابة على شفتيها. فكأنها عَقِبُ سيغارة سوّده اللعاب. وبذل أنطونيو بالدوينو جهده لمتابعة الصلوات. وأخيراً، حين اعتقد أن الميتة لم تعد تنظر إلى ناحية فتح فمه ليطلب شربة ماء من أرميندا. لكنّ عيني المتوفاة كانتا هنا، مغروستين في عينيه، بنظرة تَحَدٍ. وعاود الصلاة. وشرب الخمرة. فكم مرة مرّت الزجاجة أمامه؟ لقد أصبحت شبه فارغة. فكم زجاجة ما زالت متوفّرة لتفتح هكذا؟ إن السهرة تكلف

الخمرة فيها غالياً... والآن، والميتة لم تعد تنظر إليه، نهض أنطونيو بكل هدوء، ودار حول الطاولة حيث يرتاح الجثمان، وذهب ولمس كتف أرميندا:

- تعالي لتعطيني شربة ماء.

نهضت. وذهبا نحو عمق الباحة، حيث يوجد برميل ماء وإبريق. انحنت أرميندا لملء الإبريق، ومن فتحة الصدار رأى أنطونيو الثديين. حينئذ طوق البنت الصغيرة، وأدارها بين ذراعيه، وأوقفها في مواجهته تماماً، وهي مشدوهة. ولم يعد يرى سوى هاتين العينين وهذين النهدين أمامه. وأراد شد عناقه واتّجه فمه نحو ثغر أرميندا التي لم تفهم، حين رأى عيني الميتة تقفان ما بين الفتاة وبينه. وتركت العجوز لورا الطاولة لتحمي البنت الصغيرة. إن الموتى يعرفون كل شيء، وكانت تعلم ماذا يريد بالدوينو أن يفعل. كانت هناك، بين الاثنين، تنظر إلى الزنجي. وترك هو أرميندا، وأخفى وجهه بيديه، وقلب إبريق الماء وعاد إلى الحجرة مثل أعمى. وقد زاد قليلاً انتفاخ المرحومة وهي على الطاولة.

ضحك الزنجي **فيلومين** هازئاً وكأنه فهم نيّة بالدوينو، حين كان يطلب شربة ماء. إنه بالتأكيد سوف يفعل الشيء ذاته. وفكر بالدوينو في دخيلته: يا لَه من أحمق إذا كان يظنّ نفسه أكثر دهاءً. وهو، أي فيلومين، حين يصل إلى هناك، فإنه سيلتقي بالمرحومة وهي تترصّد. إن المرحومة تعرف كل شيء، وتحزر كل شيء... ومع ذلك فإن عينيها لم تكونا تتابعان فيلومين. ترى هل ستترك هذا الزنجي القذر يفعل فعلته بأرميندا؟ لقد نهض هو أيضاً، وطلب شربة ماء، ولم تتحرك الميتة - احتجاجاً. وهمس أنطونيو بالدوينو

مخاطباً الوجه العديم التأثر:

ـ ماذا! ماذا! ألست ترين، إذاً؟ هذا الزنجي النذل...

لكن الميّتة لم تحسب أيّ حساب للتحذير. بل بالعكس. كانت تبدو راضية. والآن عادت أرميندا: كانت تبكي أيضاً، ولكن بشكل مختلف. كان صدارها مدعوكاً على مستوى الثديين. وعاد الزنجي فيلومين مبتسماً. وتقلّصت يدا أنطونيو بالدوينو من الغضب الشديد، ونهض وقال لـ «الضخم» بصوت عال:

ـ ألم تقل إنها بنت صغيرة في الثانية عشرة من عمرها؟ إذاً ماذاً؟ هذه الميتة ما شأنها هادئة لا تتدخل لحماية بنتها الصغيرة؟

قال زيغينا لأنطونيو:

ـ أنت سكران...

وأغمض أحدهم عيني الميتة.

★ ★ ★

فرار

يحمل انطونيو بالدوينو في حزامه تحت السترة خنجرين.

انقضّ «زيغينيا» عليه والمنجل في يده. تعاركا وتدحرجا على ارض الطريق الصلبة. ها هوذا «زيغينيا» على الأرض وقد طار المنجل بعيداً. نهض وجرى مجدّداً هاجماً على انطونيو بالدوينو، ولكنه رأى عندئذٍ الخنجر في يد الزنجي. توقّف متردّداً ليعمل حساب محاولته... ثم قفز قفزة. أنطونيو بالدوينو يتراجع خطوة وتنفتح يده ويسقط الخنجر. وينحني «زيكينيا» في رشاقة هرّ، وفي لحظة ضحكة، ليلتقط سلاح عدوّه. ولكن بينما هو ينحني استلّ انطونيو بالدوينو من حزامه الخنجر الآخر فغرسه في ظهر «زيكينيا».

كان الوقت ليلاً، وها هوذا الزنجيّ قد بلغ منطقة الأدغال. إنه يشقّ لنفسه طريقاً في الادغال راكضاً بين الأشجار التي لا تلبث أغصانها أن تتجمع على نفسها من جديد. لقد مضت ثلاث ساعات كاملات وهو يركض هكذا، مثل كلب يطارده أولاد أشقياء. وفي هدأة الليل كانت تسمع أصوات الجداجد. إنه يركض هائماً، يركض كيفما اتفق؛ يضرب بقدميه الموجعتين في الأجم متجنّباً الدروب متمزّقاً بالاشواك. لقد تمزّق بنطلونه من أعلى إلى أسفل، ولكنه لم يلحظ ذلك. وتنبسط أمامه الأدغال التي لا نهاية لها. إنه لا

يرى شيئاً في هذه الظلمة. ويقف فجأة وقد سمع طقطقة أغصان تتكسّر. من هناك؟ أيمكن أن يكونوا قد جدّوا في أثره؟ ها هوذا يتربّص ويده على السكين، آخر ما بقي له من سلاح. إنه مختبىء خلف شجرة وسيجدون مشقّة في أن يروه. وابتسم إذ مرّ في خاطره أن أوّل شخص يمرّ سينام إلى الأبد. ها هي ذي السكين مفتوحة في يده. ومرّ من أمامه أحد سكان الأدغال سريعاً كلمح البصر. ترى أيّ نوع من الحيوان هو؟ إن انطونيو بالدوينو لم يتمكّن حتى من معرفته، وها هوذا يضحك من الفزع الذي اعتراه. واندفع من جديد إلى أمام فاتحاً لنفسه طريقاً بيديه. الدم يسيل من وجهه، فالأدغال لا ترحم من ينتهكون حرمتها. لقد مزقت شوكة وجه الزنجي، ولكنه لا يرى شيئاً ولا يشعر بشيء. إنه لا يعرف سوى أمر واحد: لقد ترك رجلاً ملقى على الأرض في مزارع التبغ، وفي ظهر هذا الرجل خنجر له هو، مزروع بيده هو. ولا يشعر انطونيو بالدوينو ازاء ذلك بأيّ ندم. الذنب كلّه ذنب «زيكينيا». هو الذي فعل كل شيء لجلب هذه المشاجرة. لقد اضطهد بالدو كثيراً! وكان ينبغي أن يحدث ذلك. ثم إنه لو لم يحضر والمنجل في يده لما كان استلّ أنطونيو بالدوينو خنجره.

لقد أصبحت الأدغال أكثر تفرّقاً. وها هو ذا الزنجي يرى النجوم تتلألأ خلال الأوراق. وتتراكض في السماء مِزَق من الغيوم البيضاء. ولو كان مع أنطونيو بالدوينو امرأة لقال لها إن أسنانها تشبه غيوم السماء البيضاء. وتوقّف يُكبِر سماء الليل المضيء بالنجوم. قعد. إنه في فرجة، وهو لا يذكر أنه تشاجر. بلى، لقد كانت «ماري دي روا» هناك... ولكنها ذهبت مع إحدى العائلات إلى

« سان لوي دو مارانيون ». ذهبت بطريق البحر على مركب أسود تغمره الاضواء. لو كانت هنا لضاجعها في هدأة الأدغال. ها هو ذا الزنجيّ ينظر إلى النجوم، ومن يدري ما إذا كانت « دي روا » لا تنظر إليها هي الأخرى؟ النجم موجود في كل مكان في آن واحد. ويظن أنطونيو بالدوينو ان النجوم ينبغي أن تكون هي إياها بالتأكيد. إن « دي روا » تراه، هذا النجم، و « لندنلڤا » تراه أيضاً. لماذا يفكّر فيها؟ إنها بيضاء، وعلى وجهها بقع نمشٍ، وليس لزنجي مثله حظّ فيها. خير له أن يفكّر في « زيكينيا » ممدّداً على الأرض وخنجر في ظهره من أن يفكر في « لندنلڤا » التي تكره الزنجي. لو كانت تعلم أنه لاذ بهذا المكان لكانت وشت به إلى الشرطة. ان « دي روا » كانت ستخبئه، وأما « لندنلڤا » فلا. فرج انطونيو بالدوينو شفتيه الغليظتين عن ابتسامة. انه يتذكر أن « لندنلڤا » لا تعرف شيئاً وأنها لا تستطيع أن تشي به. انه حانق على النجوم التي جعلته يفكر في « لندنلڤا ».

كان « ڤيرياتو القزم » يمقت النجوم. ولقد قال له ذلك ذات يوم. متى كان ذلك؟ إن انطونيو بالدوينو لا يتذكر. فما كان « ڤيرياتو » يخوض قط في الحديث إلا للكلام على حزنه من جراء كونه وحيداً. وذات يوم سلك طريق البحر كالعجوز الذي انتُشل من الماء في الليلة التي كان عمّال الرصيف يحمّلون فيها باخرة سويدية بالبضائع. أتراه وجد منزله، « ڤيرياتو »؟ يقول « الضخم » إن من يقتل نفسه يذهب إلى الجحيم. ولكن « البدين » أبله يهرف بما لا يعرف. إن أنطونيو بالدوينو ليأسى لـ « البدين ». هو أيضاً لا يعرف شيئاً، لا يعرف أن بالدو قتل « زيغينيا » بطعنة سكين في

الظهر. ها قد مضى خمسة عشر يوماً على رحيل «الضخم» متبرّماً أشد التبرّم بجدّته التي ليس لها في «باهيا» من يزقمها «الضخم» طيب جداً، وهو عاجز عن طعن أحد بسكين. إنه لم يكن يوماً رجل عراك. ويذكر أنطونيو بالدوينو جيداً أيام صباهما التي كانا يتسولان فيها في «باهيا». لم يكن هناك من يحسن طلب الصدقة إحسان «البدين». وأما في العراك فإنه ما كان يساوي شيئاً. لقد كان «فيليب الجميل» يهزأ به. كان جميلاً، «فيليب». وحين مات تحت السيارة يوم ذكرى مولده بكى جميع القوم. كان في الإمكان القول إنها جنازة ثري. لقد جلبت نساء «الشارع الأسفل» ازهاراً. وكانت فرنسية عجوز تبكي. كانت أم «فيليب». لقد البسوه ثوباً جديداً وعقدوا له ربطة عنق جديدة. لا بدّ أن «فيليب» كان مسروراً جداً. كان أنيقاً، وكان يحب أن يعقد ربطة حول عنقه. لقد تعارك انطونيو بالدوينو ذات مرة دفاعاً عنه. وابتسم وهو يتذكر هذه الحكاية. ضربات متواصلة رائعة سدّدها إلى «بلا أسنان». لقد انقضّ عليه «بلا أسنان» بسكين، كما فعل «زيغينيا» بالضبط، ومع ذلك فإنه، هو، لم يستلّ سلاحاً في تلك المرة. وأما مع «زيكينيا» فإنه استلّ خنجراً. وها هوذا الآن متأكد من أنه لم يكن يحب «زيكينيا». فمنذ اليوم الأول لم يستمرىء ذلك الرأس. ولو لم يكن هو الذي طعن طعنة السكين تلك لكان شخص آخر طعنها. لقد كان الزنجي «فيلومين» يحقد هو الآخر على «زيكينيا». وكلّ ذلك بسبب «ارميندا». لماذا ساكنها «زيغينيا»؟ لم يكن له حق في ذلك. هو وهي كانا في البداية. وإذا كان انطونيو بالدوينو لم يصطحبها لليلة السهرة إلى منزله فذلك فقط لأن الميتة لم تدعه

يغيب عن نظر عينيها المنتفختين. والزنجي « فيلومين »، ألم يكن قد داعبها؟ لماذا جاء « زيغينيا » إذن يحشر نفسه في الأمر، ولماذا خطف الصبية؟ لقد كانت صبية في الثانية عشرة. وكان « الضخم » يقصد بذلك أنها لم تكن قد بلغت بعد مبلغ النساء، وأنه من المقرف أن يفعل هذا معها. وهكذا فإن « زيغينيا » الذي فعل ذلك كان يستحق كل الاستحقاق أن يطعن بالخنجر... ولو لم يفعل هو ذلك لكان فعله بالطبع الزنجي « فيلومين »، أو حتى أنطونيو بالدوينو. أجل، هو يعلم جيداً أنه لم يزرع خنجره في ظهر « زيكينيا » بسبب ذلك..وإذا كان قد قتل رئيس المزارعين فلأنه أقام معها في حين كان يريدها هو في سريره. إنه لم يكن لها من العمر إلا اثنتا عشرة سنة، ولكنها كانت قد اصبحت امرأة... هل كانت كذلك؟ وإذا كان ما قاله « الضخم » صحيحاً؟ لو لم تكن بعد سوى طفلة لكان الأمر مقرفاً. وعلى كل حال فإن « زيكينيا » لن يستطيع قطّ أن يفعل هذا، فهو ممدّد على الأرض وسكين في ظهره. ولكن ماذا أفاد ذلك؟ ها إن الزنجي « فيلومين » يقودها الآن بالتأكيد إلى بيته. إنه قانون مزارع التبغ؛ عندما تبقى إحداهنّ بلا رجل تجد على الفور واحداً يقودها إلى منزله. إلا إذا كانت تفضل الذهاب إلى مواخير « كشويرا » أو « سان فيلكس » أو « فوار سانت آن ». وهذا هو الذي سيكون مقرفاً. ولما كانت صبية في الثانية عشرة فإن جميع الرجال سيرغبون فيها. وعليه فإنها ستهرم، وستتعاطى الكحول، ولن تغسل شعرها أبداً، وسيذوي نهداها، وستصاب بأمراض خبيثة، وستبدو في الأربعين وهي في ذكرى ميلادها الخامسة عشرة. وقد تسمّم نفسها. وهناك أخريات يلقين بانفسهن إلى الماء في ليلة حالكة

الظلام... لقد كان من الأفضل أن تظل مع « زيغينيا » تقطف التبغ في الحقول. ولكن « زيكينيا » قد طُعن.

ها هوذا أنطونيو بالدوينو يسمع اصواتاً يخترق جرسها الأدغال. إنه يقترب ليصغي. ما تزال الاصوات جلبة غير واضحة. أهُم رجال يسلكون الطريق؟ ولكن الطريق بعيدة، هي في الجانب الآخر، والذي هنا مجرّد درب. ويتقدم أنطونيو بالدوينو خطوات قليلة. ها هوذا الآن يسمع. الرجال قريبون جداً ولا يفصله عنهم سوى ستار من الأوراق. إنهم رجال المزارع، وجميعهم يحملون البنادق الأوتوماتيكية ويدخّنون جالسين على الدرب. هم في أثر الزنجي انطونيو بالدوينو الذي طعن بالخنجر رئيس المزارعين، ولا يدرون ان الزنجي هنا قريب جداً منهم وأن رغبة في الضحك تساوره. ومع ذلك فإنه اخذ يرتجف حين سمع الرجال يقولون إنه محاصر في الخيس وإنه ينبغي أن يموت جوعاً أو يخرج فيستسلم. ويبتعد انطونيو بالدوينو بكثير من التؤدة متجنّباً إحداث ضجّة، ويوغل في الأدغال من جديد. الطريق له في الجهة الأخرى. ولكنْ هناك رجال في تلك الجهة، كما حوالي الخيس. إنه محاصر، محشور ككلب مسعور، فإما أن يموت جوعاً وإما أن يقبض عليه بوصفه قاتلاً. لقد أمسى صرير الجداجد مثيراً. وهناك في بيت « زيكينيا » يسهر الناس. والزنجي « فيلومين » ينبغي، كما يظن أنطونيو بالدوينو، أن يكون هنا متسلّحاً ببندقيته، أو هناك في السهرة ينظر إلى « ارميندا » متأهّباً لاصطحابها إلى منزله. لو كان باستطاعته فقط أن يطعن الزنجي « فيلومين »... ولكنه محاصر ككلب مسعور، محشور في الخيس وقد بدأ يشعر بالجوع والعطش.

إن قدميه تؤلمانه من كثرة ما سار. لقد كان في وسعه الاكتفاء بتسديد بعض الضربات إلى «زيكينيا». أليس بالدو الملاكم؟ ألم يصرع كثيرين غيره في «باهيا» في ساحة الكاتدرائية؟ أجل، كان في وسعه أن يطرح «زيكينيا» أرضاً ببضع ضربات من قبضته. ولكن الآخر كان قد حضر ومنجله في يده. حين يكون الرجل رجلاً فإنه لا يقاتل هكذا، والعنف لا يُدفع إلا بالعنف. ولذلك فإنه استلّ خنجره وتركه يقع ليغرس الآخر في ظهر «زيكينيا». والرابع في هذا هو «فيلومين» الذي لا بد أن يكون الآن في السهرة يتـربص بـ «ارميندا». لو كان في مكنته أن يذهب إلى بيت «زيكينيا» لقتـل «فيلومين». ينبغي أن يكون الجثمان بالجرح الذي في الظهر مسجى فوق الدكة الخشبية. لا بدّ أن يكون «فيلومين» قد شكّ سكينه في زناره، ولسـوف يقـود «ارميندا» بعـد ذلـك إلى بيتـه. الحق أن «فيلومين» هو الذي كان يجب أن يُقتل. ولكن هو الآن محشور في الخيس محاط من كل الجهات. كان يمكن ان يكون كل شيء على ما يرام لولا هذا العطش اللعين... ولكن بلعومه جافّ. قدماه اللتان تؤلمانه، وجهه الممزّق بالأشواك النازف دماً، ملابسه التي اصبحت اسمالاً، كل ذلك لا يهمّه؛ وأما بلعومه الملتهب من العطش فلا. كان في ودّه أن يأكل أيضاً. لا ثمار في هذه الأدغال. إنه ليس موسم ثمار الغوافة. ها هي ذي حيّة تمرق صافرة. والجداجد تضجّ ضجيج الجحيم. إنه لا يرى النجوم الآن، فالأدغال صفيقة. والعطش يتزايد. ها هو ذا يدخّن. من حسن الحظ ان السكائر وعلبة الثقاب في جيب البنطلون. كم الساعة يا ترى؟ منتصف الليل، وربما اكثر. التبغ ينسي العطش والجوع. متى بدأ يدخّن؟ إنه لا يذكر قط. كان يدخّن حين

كان يقطن في جبل « شاتر نيغر ». لقد ضُرب بسبب ذلك. ولو رأته عمته« لويزا »الآن فماذا كانت تقول؟ كانت تضربه، ولكنها كانت تحبّه كثيراً. المسكينة، لقد أصيبت بالجنون لكثرة ما حملت من ثمار حديقتها إلى سوق « ترّيرو ». كان الرجال يتجمّعون للثرثرة أمام منزلها على نهر « المورن ». وذات يوم جاء الرجل القادم من « إلهيوس » يحكي حكايات عن قطّاع الطرق. وها انطونيو بالدوينو اليوم مطارد وكأنه هو الآخر قاطع طريق مشهور. لو أن الرجل القادم من « إلهيوس » يراه لكان أكبره بالتأكيد. ولكان أضاف حكايته إلى الحكايات التي كان يحكيها حتى ساعة متأخرة من الليل. هو الآخر بالدو كان قد اراد أن تكون له اغنية مأسوية مرتبة على حروف الهجاء. كان يفكر أن الرجل الأصلع الذي جاء إلى حفلة طرد الأرواح الشريرة عند « جوببابا » قد يكتب يوماً اغنيته المأسوية. آه لو كان فقط يخرج من هذا الخيس الذي يحاصره فيه رجال مسلّحون ببنادق أوتوماتيكية، لاستحق حتماً أن تُغنّى اغنيته المأسوية. كم عدد أولئك الذين يلاحقونه؟ إذا كان جميع رجال المزارع قد فعلوا فالعدد ينبغي ان يكون أكثر من ثلاثين. ولكنهم لم يأتوا جميعاً بالتأكيد. لم يأت الزنجي « فيلومين »، بل ظلّ مع « ارميندا »يقصّ عليها الأكاذيب ويقدّم لها الوعود. إنه يعرفه، هذا الزنجي... زنجي قليل الكلام لا يساوي شيئاً كثيراً. ها هوذا يضغط على سكينه. يكفيه هذا السلاح لمهاجمة « فيلومين » لو أنه يلتقيه الآن. سوف يحكي ذلك أيضاً في اغنيته المأسوية.لقد هاجم وقتل قاطع طريق يحمل بندقية بمجرد سكين... إنه يرمي سيكارته. ياللشيطان! البلعوم جافّ، والمعدة تؤلم، وهو يحسّ في الوجه ألماً مبرّحاً. ويُمرّ يده

ويلمس الجرح الذي أحدثته شوكة. إنه شقّ كبير شطب وجهه بكامله. وهو الآن يؤلمه وقد توقّف الدم عن السيلان. هناك أيضاً قدماه اللتان تنزفان، ويداه المجروحتـان، والعطش الذي يعـذّبـه، والرجال الذين يحيطون به، والجداجد وصخبها... ها هوذا يرى النجوم من جديد خلال الأدغال التي اصبحت أقلّ كثافة. آه لو كان هناك ماء، لو كانت السماء تمطر! ولكن ليس في السماء غيوم سوداء. لا شيء سوى مِزق من غيوم بيضاء تتقاذفها الريح. والقمر الذي برز، القمر الكبير الشاحب الأكثر جمالاً منه في أيّ وقت مضى. ما كان أشدّ رغبته في أن يكون على رصيف «باهيا» ومعه قيثارته وتلك المرأة ذات الصوت الذكوري يغنيّان ڤالساً، شيئاً قديماً جديداً يحكي عن الحب. ثم يتدحرج جسداهما كُرةً على رمل الرصيف... آه ما ألذّ ما كان يكون ذلك! ذلك النجم هناك، لكأنه نور «مصباح الغرقى». لكانا شربا بعض الشيء واستمعا إلى موسيقى العجوز الأعمى الذي يغنّي على القيثارة وتحدّثا مع «الضخم» و «يواكيم». وربما ظهر «جوبيابا» فطلبا إليه أن يباركهما. هو أيضاً، «الأب جوبيابا»، لا يعرف أنه محشور في الخيس. لا يعرف أنه قتل «زيكينيا». ولكن «جوبيابا» سيتفهّم، وسيمسح بيده على رأسه ثم يروح يتكلم بلهجة «الناغو» الافريقية. لا، لن يقول إن عين التقى قد انفقأت وعين الخبث وحدها بقيت... ولماذا يقول ذلك؟ إن أنطونيو بالدوينو ما زال يحتفظ بعين التقى مفتوحة جيداً. قتل «زيكينيا»، وهذا صحيح. ولكن لأنه كان يريد أن يماشي طفلة في الثانية عشرة. ولكن لا، لا يجدي الكذب على «الأب جوبيابا». إنه يعرف كل شيء، إنه «أبو قديس»، وهو نافذ عند «اوشالا».

يعرف كل شيء كالعجوز المرحومة... لا، لقد قتل لأنه كان يريد «ارميندا» لنفسه فقط.. لم تكن قد بلغت الثانية عشرة، ولكنها كانت قد أصبحت امرأة... «الضخم» لا يعرف من ذلك شيئاً. فكيف يمكن تصديق ما يحكيه؟ «الضخم» لا يعرف شيئاً من أمر النساء، إنه لا يفهم إلا في الصلوات. ثم إن «الضخم» طيب جداً، وهو لا يملك عين الخبث. وما يُحتاج إليه هو سحر يصنعه «الأب جوبيابا» لقتل الزنجي «فيلومين». الزنجي «فيلومين» شرير، هو أيضاً فقأ عين التقى. سحرٌ لقتله، شيء قوي بشعر إبط امرأة وريشات عُقاب. ولكن لماذا يهزّ «الأب جوبيابا» رأسه؟ آه، إنه يقول بـ «الناغو» إن أنطونيو بالدوينو قد فقأ هو الآخر عين التقى. هذا ما يقوله، أجل... ويستلّ انطونيو بالدوينو سكينه وبلعومه جافّ من العطش. لو كررّ «جوبيابا» كلامه فسيقتله ثم يغرس السكّين في عنقه هو. ها هوذا يرى الزنجيّ العجوز في السماء الزرقاء ـ لا، ليس هذا القمر. إنه «جوبيابا». وهو يكرّر ويكرّر.. ويندفع انطونيو بالدوينو والسكين في قبضته وقد كاد يسقط وسط أولئك الذين يلاحقونه ويثرثرون على الطريق. لقد اختفى «جوبيابا». وبالدوينو عطشان. ويرجع راكضاً إلى حيث الأدغال أشد ما تكون صفاقة، إلى حيث لا يرى القمر، إلى حيث لا يرى النجوم، إلى حيث لا يرى رصيف «باهيا» و«مصباح الغرقى». وتمدّد على الأرض ومدّ يديه باتجاه الطريق:

ـ غداً أريهم كيف انسحب. رجلٌ أنا.

وجهه يؤلمه وهو عطشان. ولكن ما إن أغمض عينيه حتى نام نوماً لا أحلام فيه.

وأيقظته زقزقة العصافير. ألقى نظرة حوله ولم يفهم كيف صادف أنه هنا لا فوق دكّته في المزرعة. ولكن العطش الذي يهصر بلعومه والجرح الذي يعذّبه في وجهه ذكّراه أحداث اليوم السابق. إنه محشور هنا، وقد قتل أمس رجلاً. وهو عطشان عطشاً غير معقول. لقد تورّم وجهه خلال الليل. ومرّ بيده على الندبة:

ـ شوكة خبيثة... ما كان ناقصاً سوى هذا البلاء الفاحش!

وتساءل وهو مُقعٍ عمّا عساه يفعل. لعلهم لم يتركوا كثيراً من الناس لحصاره نهاراً... وجهه يؤلمه. إنه عطشان. خرج على مهل وهو يزيح الأشواك ويتلافى الضجيج. هو الآن يُحسِن التوجّه بفضل نور النهار. الطريق عن يمينه. ولكن ها هوذا يتّجه نحو الدرب: لا بدَّ أن الناس فيه أقلّ. لو لم يكن عطشان لما اهتمّ. إنه لا يشعر بالجوع في هذه اللحظة، غير أن معدته تؤلمه، ولكن في وسعه أن يحتمل. العطش، هذا هو السيّىء في الأمر، إنه يشدّ على حلقومك كالحبل. يجب أن ينتهي حتى ولو تعرّض لخطر القبض عليه. ما عاد يحتمل العطش. إنه خليق بأن يصارع إلى أن يضع عيارٌ ناريّ حدّاً لكل هذا. ومع ذلك فيا للعجب: لم يكن أحد يحب «زيكينيا»، كل الناس كانوا يحبونه هو. ولكن لا بدّ أن يكون ربّ العمل قد أصدر أمراً: من لا يساعد في محاصرة المجرم يُصرف من العمل. إذا كان من ناس على الدرب فسينشب عراك... سيموت بالدو، ولكنه لن يموت وحده.

ـ هناك واحد سيقضي معي.

ورنّت ضحكته عاليةً بقدر ما كان فرحاً. أجل، إنه فرح لأنه قرّر أن ينتهي من الأمر وأن يقاتل للخلاص بجلده. إن أحب ما

يحبّ في الدنيا القتال. وهو لم يفطن إلى ذلك إلا الآن. لقد خلق ليقاتل وليقتل وليموت ذات يوم بطلق ناري في ظهره أو بطعنة خنجـر في صدره، أو ربما بطعنة سكين. وسيكون في مكنة الذين يعودون أن يقولوا إنه مات ميتة رجل، ميتة فحل حقيقي، والسكين في يده... ومن يدري إذا كانوا لا يقصّون على أولادهم وعلى اصدقائهم قصّة أنطونيو بالدوينو الذي كان متسوّلاً وملاكماً ومؤلفاً لأغاني السامبا ومولعاً بالمشاجرة والذي قتـل رجلاً بسبب طفلة والذي مات بعد أن واجه عشرين خصماً للدفاع عن نفسه؟ من يدري؟

عثر على حفيرة ماء فعبّ منه عبّات كبيرة وغسل جرح وجهه.

ماء! ماء! هو الذي لم يسبق له قط أن لاحظ مدى طيب الماء! أفضل من البيرة وأفضل من النبيذ وأفضل حتى مـن الكونيـاك. في وسعهم محاصرته الآن، حشْره ككلب، فلا أهمية لذلك. إنه يملك ماء للشرب ولغسل جرح وجهه الذي يؤلمه والذي تورّم. وتمدّد على حافة الحفيرة وراح يستريح آمناً مبتسماً سعيداً. لم يستطع أثناء الليل رؤية حفيرات الماء. هناك كثير منها. الماء مـوحـل قذر، ولكن ما أشدّ ما يمكن أن يكون طيباً! وبقي ممدّداً طويلاً وهو يجترّ افكاره. إلى اين يذهب إذا قدّر له الخروج من هنا؟ يستطيع الإيغال إلى الداخل والاختباء في مزرعة والاعتناء بالثيران. هناك كثير من القتلة في البلاد... وإذا قُدِّر أن لجوا في مطاردته فسوف يلتحق بعصابة ويعيش العيشة التي طالما أُعجب بها. أسوأ ما في الأمر أنه بدأ الآن يشعر بالجوع. ربما انتهى به الأمر إلى العثور على فاكهة كما عثر على الماء. وها هوذا يضرب الأدغال متفحّصاً الأشجار. على غير طائل. ولكن قد يقتل خلال النهار حيواناً ويأكله. معه ثقاب وفي وسعه

إشعال نار. لا، لن يشعل ناراً: قد يلفت انتباه الرجال الكامنين على الطريق. ولاحت له فكرة الذهاب للنظر فيما إذا كانوا كثيرين. هـا هوذا يلامس بيده وجهه الذي أخذ يؤلمه أكثر فأكثر. سيّـيء هذا. لا بدّ أنها شوكة سامّة.

يعرف «الأب جوبيابا» لهذا النوع من الجروح أدوية خارقة. نباتات، نباتات، من الريف. لا بدَّ أن يكون بعض منها هنا. ها هوذا ينظر إلى الأرض. أجل، ولكن أيّها هو الجيّد؟ ليس هناك من يعرف سوى «الأب جوبيابا»، هو الذي يعرف كل شيء. ويقترب من الأعشاب الطويلة التي تفصله عن الدرب. ويتربّص. ها هم. إنهم جميعاً هناك، لم يذهب أيّ منهم للعمل. لقد قرّر ربّ العمل بما لا رجعة فيه الخلاص من الزنجي انطونيو بالدوينو. وقد منح العمال إجازة. هم يأكلون القديد ويثرثرون. ويعود أنطونيـو بـالـدوينـو أدراجه على مهل. لقد أعاد وضع سكينه في زناره. ها هوذا يمشي متفكـراًولكنه يأخذ فجأة بالضحك:

ـ لن تكون لهم الغلبة عليّ.

أسوأ ما في الأمر ألا يكون لديه ما يأكله. وأن يبقى وحيداً أثناء الليل. لم يسبق له قط أن خاف من البقاء وحيداً. أما اليوم فالأمر لا يعني له شيئاً. وراح يفكّر في كومة من الحماقات، وفي رؤية الموتى الذين عرفهم، ورؤية «الأب جوبيابا» والأماكن التي مرّ بها و و«ليندينلڤا». ليس هناك ما يقلق إن هو لم ير «لندينلڤا». إنـه الآن يفكـر في «ارميندا» التي لا بـدّ أن تكـون قـد صحبـت الزنجي «فيلومين». ولكن الذنب ليس ذنب الزنجي. إن لم ترقد «ارميندا»

معه فسترقد مع غيره. لا وجود للنساء في المزارع. ولهذا السبب كان «ريكاردو» يجعل دكّته تُصرّ صريراً كثيراً اثناء الليل. وها هوذا الآن يعيش متسوّلاً في «كشويرا» أيكون قد وجد امرأة؟ من يدري، قد يكون له الآن واحدة، وربما كانت تعتني بشؤونه. لقد استحقّ ذلك كل الاستحقاق، فهو ولد طيّب، رفيق مستعدّ دائماً لإسداء خدمة... ترى لو كان مقيماً في المزرعة في هذا الوقت أفكان يحاصر أنطونيو بالدوينو هو الآخر؟ أمام عيني الزنجي غمامة. لقد سبق له أن سمع بذلك، إنه الجوع. وينطلق فاقد الأمل باحثاً عن غذاء.

وعند هبوط الليل كان قد دخّن آخر سكائره ولم يعد يرى تقريباً شيئاً أمامه. وأخذ الوجه المتورّم يؤلمه إلى درجة الجنون.

ويتقدّم ناحية حفيرات الماء مترنّحاً كسكّير. لم يكن في معدته سوى غداء أمس، لأنه لم يكن قد تناول عشاءه ساعة المشاجرة. وتقدّم مترنّحاً تواكبه طائفة من الرجال الذين يعرفهم. أين سبق له يا ترى أن رأى هذا الرجل الهزيل الذي يصرخ:

ـ اهذا هو بالدو؟ أهذا هو صارع البيض؟ مطلق الضحك؟

ترى أين رآه؟ إنه يتذكّر الآن. خلال حفلة الملاكمة مع الألماني الذي صرعه. وابتسم. لقد سبق لهذا الشخص أن قال هذا مرة، ولم يمنع ذلك من أن يصرع الأبيض ويتركه ممدّداً على الحلبة. وسيكون الأمر مشابهاً هذه المرة: سيتمكّن من الهرب واستعادة حريته. ولكن لماذا أخذ «الضخم» يتلو صلاة الموتى؟ إنه لم يمت بعد على كل حال... فلماذا إذن يجيب الآخرون بصوت واحد متناسق:

ـ صلّوا لأجله.

لماذا؟ ألا يرون أن هذا يؤلم الزنجي أنطونيو بالدوينو الجائع الحامل فوق وجهه ندبة بشعة أخذ البعوض يحطّ فوقها؟ ما زالوا مستمرّين. ورقد انطونيو بالدوينو قرب حفيرة. لقد شرب. وراح بعدها يطيل النظر إلى الموكب الذي يرافقه. إنه يمدّ يديه. يطلب منهم أن يبتعدوا، أن يتركوه يموت بسلام.

ـ اذهبوا من هنا! اذهبوا من هنا!

ولكنهم لا يذهبون. البارحة كانت العجوز «لور»، أم «ارميندا» قد وصلت لتوّها. عيناها منتفختان، وجسمها منتفخ، ولسانها متدلٍ. وقد سخرت به.

ـ اذهب إلى الجحيم! اذهب إلى الجحيم!

ونهض. وراحوا جميعاً يتبعونه. حتى «الضخم» الذي كان صديقاً صدوقاً. لقد قال «جوبيابا» إنه فقأ عين التقى. صحيح، أجل، هذا صحيح. ولكن دعوه وشأنه لأنه سيموت، وهو يريد أن يموت ميتة رجل، وبهذا الشكل لا سبيل إلى ذلك، لا سبيل إلى ذلك.

إنهم يتلون صلوات الموتى... وها هوذا بالدو يتعثّر بجذر ويقع. وترك نفسه ممدّداً على طوله. وعندما نهض كان قرارٌ قد جعل لحظه يلتمع.

الطريق عن يمينه. إنه يتوجه بخطى ثابتة نحو تلك الناحية. يمشي منتصباً تماماً وكأنه ليس جائعاً، وكأنه لم يُمض يومين من دون أن يرى كائناً حياً، لا شيء غير اشباح، وهو يمسك بسكينه:

ـ هناك واحد سيموت معي.

وفجأة أصاب ظهورُه المباغت على الطريق الرجالَ بالذهول. إنه ما يزال يملك من القوة ما يكفي ليطرح ارضاً واحداً من بينهم يكون أمامه. ويجتاز بالعصبة وسكينه اللامعة في يده.

إنه يختفي في الظلمة. ولعلعت بعض العيارات النارية التي كانت قد اطلقت كيفما اتفق.

مقطورة

« لقد دبّ فيه الدود ».

كان العجوز يعالج وجه انطونيو بالدوينو الذي ورّمته الندبة وكان أحمر منتفخاً مثل تفاحة. لقد وضع على الجرح لزقة من الأعشاب الممزوجة بالتراب. تماماً كما كان « جوبيابا » سيفعل.

ـ سوف يندمل في مدّة لا تكاد تذكر. إنها عشبة مباركة تفعل المعجزات.

كان الزنجيّ الذي هرب من مزارع التبغ قد وصل على آخر رمق من كثرة الركض. وكان العجوز يسكن كوخاً متداعياً قذراً ضائعاً في الأدغال تنبت أمامه بعض شتلات المنهيوت. وقدّم له طعاماً وفراشاً وعالج جرحه وشرح له بعد ذلك أن « زيكينيا » نجا بأعجوبة ولكن رب العمل كان يريد القبض على بالدوينو لينهال عليه بضربات تكون عبرة لغيره.

ـ ما زال في وسعه المجيء أيها الجدّ...

وابتلع كوز ماء:

ـ سوف أهرب الآن إلى بعيد... وسأجازيك على هذا بمثله ذات يوم...

ـ تهرب بعيداً، لماذا؟ لن ينشف جرحك على هذا الشكل.

الأفضل أن تظلّ هادئاً. اختبئ هنا. لن يرتاب أحد في الأمر، فأنا رجل وديع.

وانتظر انطونيو بالدوينو ثلاثة أيام حتى يندمل الجرح. وكان يأكل لحمة العجوز ويشرب ماءه وينام على فراشه.

واستودعه اخيراً: «أنت طيّب جداً»

ها هوذا يتبع سكة الحديد. ما إن يصل إلى «فوار سانت آن» حتى يتدبّر أمره مع شاحنـة تقلّه إلى «باهيا». إنه سعيد بأن كانت له مغامرة، بأنه قد قاتل، بأنه حوصر ثم هرب. إنه لا يقهر... هو الرجل الأكثر شجاعة في المنطقة بأسرها. لقد استطاعت النجوم أن ترى أنه يحسن القتـال. ولو أن شجاعته لم تذهل الرجال الذين كانوا يحاصرونه لاستطاع أن يحضر واحداً منهم معه إلى حيث النجوم، إلى حيث السماء الزرقاء. وأطلـق أنطونيو بالدوينو ضحكته التي تخرس الجداجد وتخيف الوحوش في مخابئها. وانتشرت رائحة اوراق في الليل الساكن. الريح المارّة تنذر بهطول المطر. وتهتز الأوراق ويفوح منها عطر. وبعيداً فوق السكة شيء أسود وفانوس يتلألأ. أصوات رجال في نقاش. هوذا قطار قد توقّف ـ لا بدّ أنه سيقود إلى «فوار سانتآن». ركاب الباخرة التي وصلت اليوم بالذات إلى «كشويرا» قادمة من «باهيا». يتفحّص الرجال إحدى الطرق. ويمر انطونيو بالدوينو من الناحية الأخرى ويقترب من عربة بضائع. إذا كان الباب مفتوحاً فسيركب في القطار. ودفعه بكل قواه فاستجاب. حسناً، ها هوذا مفتوح. وقفز، مثل حيوان، سريعاً خفيفاً. أقفل الباب من داخل، وعندها فقط لاحظ أطيافاً مفزّعة تحاول الاختباء

في قاع العربة بين بالات التبغ.

ـ مرحباً ايها الرفاق... لا تخافوا... أنا مثلكم: لا أحب دفع ثمن التذاكر.

وضحك.

المرأة حبلى. وتشبّث أحد الرجلين، وهو عجوز، بعصا. إنه يدخّن وهو وسنان. وعندما كان جمر السيكارة يرسل وميضاً في ظلمة العربة، كانت العصا تبدو وكأنها حية تتحفّز للوثوب. الرجل الآخر يلبس بنطلون جندي وسترة قديمة من القماش. لم يكن ملتحياً ولكنه يحاول أن يضع لنفسه شاربين من الشعيرات القليلة النابتة تحت أنفه. هوذا لا ينقطع يمرّ بيده وهو يتحدث فوق شاربيه الوهميين.

« إنه غلام »، هكذا فكر انطونيو بالدوينو.

صمتوا جميعاً لأن القطار توقّف. ينبغي أن يكون قد طرأ عطل ما، وهذا يحدث كثيراً على الخطّ. لقد مضى نصف ساعة وهم صامتون بانتظار انطلاق القطار من جديد. من الممكن أن يسمعوهم من الخارج وعندها يغضب رئيس القطار على هؤلاء المسافرين بالسرّ. وفتح العجوز عينيه عندما تكلم انطونيو بالدوينو وقال له: « إذا كنت تريد السفر معنا يا بني فلا تتكلّم... وإلاّ رمونا على السكة ».

ثم رمق المرأة الحبلى. انطونيو بالدوينو يتساءل عما إذا كان زوجها أو أباها. هو بحسب العمر أبوها، ولكن قد يكون أيضاً زوجها. إنه يتصور هذه المرأة ذات البطن الكبير ذاهبة على قدميها إلى « فوار سانت آن ». لسوف تلد في الطريق. وضحك الزنجي بصوت منخفض جداً. نظر إليه الرجل اللابس بنطلون جندي وراح يمسّد شاربيه ـ

إنه لا يبدو مسروراً بمجيء انطونيو بالدوينو. ولكن ها هي ذي اصوات تقترب. رئيس القطار يشرح أسباب التأخّر لركاب الدرجة الأولى:

ـ حادث سخيف... سوف ننطلق الآن.

وما هي إلا أن دوى صفير معلناً الانطلاق. وعلى الرغم من أن انطونيو بالدوينو مختبيء في عربة مقفلة فقد أشار إشارة الوداع.

سأل العجوز: «أتخلّف وراءك مَنْ تحزن لفراقهم؟»

أجاب: «لا أحد باستثناء الأفاعي».

ثم خفض رأسه وأضاف من غير أن ينظر إلى أحد:

ـ بلى، فتاة... واحدة حقيقية...

ـ حلوة؟ سأل الشاب وهو يفتل شاربيه.

ـ مدهشة يا صغيري..: يمكن القَسَم بأنها من المدينة.

ـ وقد تركتها؟

ـ كانت مع آخر... والآخر لم يمت.

قال العجوز:

ـ ولكن، عرفت رجلاً خطف امرأة.

ـ أنا عرفت واحداً طعن آخر بسكين بسبب عاهرة. وبعدها بقي يومين بلا طعام مختبئاً في الادغال (كان انطونيو بالدوينو يحكي حكايته هو).

ـ لأنه كان خائفاً

ـ احفظ لسانك أيها الغرّ. انت لا تعرف شيئاً... السبب أنه كان

محاصراً من كل صوب. وإذا كنت تريد أن تعرف ما إذا كان رجلاً أم لا فما عليك سوى أن تتفضّل...

ـ هو أنت إذن؟ قال الشاب ذلك وراح ينظر إليه على الفور بمزيد من الاحترام.

استمرت المرأة في الصمت. ولكنّ أنّة تفلت منها فيقول العجوز عندها:

ـ إذا كان لهم الحق في الشكوى وهم ركاب الدرجة الأولى، فما عسانا نقول نحن المسافرين مجاناً بالسرّ؟...

قالت المرأة بصوت منتحب:

ـ لقد دفعت أربعين فلساً إلى عامل الحقائب ليضعنا هنا.

وقال الجندي نافخاً صدره:

ـ حين كنت جندياً كنت أسافر في الدرجة الأولى، وبالمجّان أيضاً.

قال أنطونيو بالدوينو مرتاباً: «في الدرجة الأولى؟».

ـ بالطبع في الدرجة الأولى... عجيب، أنت لا تعرف أن للعسكر امتيازات. ذاك ما يسمى العيش في أعمق أعماق الجحيم، أنت لا تعرف شيئاً.

ـ إليك إيها المجنّد القذر، لست من هنا أنا... لست هنا إلا عابراً، لكي أتنزّه... أنا ولدت في «باهيا»... لقد سبق لك أن سمعت بمصارع يسمّونه بالدو. حسناً هو أنا في خدمتك...

ـ آه، هو أنت؟ رأيتك تقاتل «جيزييه الصغير»...

ـ معركة جميلة، أليس كذلك؟ قالها الزنجي وهو يبتسم.

ـ رائعة، أجل. ثم إني لم أدفع أجر الدخول. حين يكون المرء جندياً فإن له امتيازات.

ـ لِمَ تَخلّيت إذن عن البزّة؟

ـ أنهيت مدتي. ثم إنه...

وفتح العجوز عينه:

ـ ماذا حدث لك؟

ـ بسبب عريف... لأنه كان يحمل شريطاً على الكمّ... يا للعنة، لم يكن ينظر إلى نفسه على أنه غائط...

وسأل العجوز وهو يتوكّأ على عصاه:

ـ كان يكرهك؟

ـ بالضبط... الصغيرة، أنا من كانت معجبة به. راح يفتّش لي عن متاعب، وكنت أقضي وقتي في الحجز. وعلى هذا لم يكن يجدي شيء للخروج حين أكون في إجازة. ولكن اذهبوا وانظروا كيف رتّبت له وجهه...

ـ تعجبني أيها الصغير، كم عمرك؟

ـ تسعة عشر عاماً...

وردّ العجوز بمرارة:

ـ لم تر شيئاً بعد أيها الصغير... أما أنا فقد تعبت من الحياة.

وسأله أنطونيو بالدوينو:

ـ تعبت؟ لِمَ أيها الجدّ؟

ـ لقد فعلت من كل شيء أيها الصغير، وجست خلال هذه

المنطقة بأسرها. كل الناس هنا يعرفون «اوغست ذا الكرسي»... «ذو الكرسي» بسبب حكاية حدثت لي... وماذا ربحت من كل ذلك؟ أن مرضت، هذا كل شيء.

قدّم الجندي السابق بعض السكائر فأشعل انطونيو بالدوينو واحدة. وعلى لهب عود الثقاب رأى وجه المرأة المحدّقة إلى السماء من شقوق الباب. إنها تبدو متعبة تعب إنسان عاش طويلاً. واستمر العجوز يحكي:

ـ أتى حين من الدهر كان لي فيه كثير من الماشية، وكنت أذهب لبيعها في «فوار سانت آن»... كنت أملك ما يكفي لأن أرميكم به على مدّ النظر. ولقد زرعت التبغ أيضاً قبل أن يصل الألمان إلى هنا بكثير. كانت لي أراضٍ... طائفة من الأشياء، هه...

وتوقّف. كان من الممكن الاعتقاد بأنه عاد إلى النوم، ولكن لا، ها هوذا يعود قائلاً بصوت متحشرج:

ـ حتى إنه كان لي أسرة... أيمكن تصديق ذلك؟ أبداً. ومع ذلك فقد كان لي ابنتان، وقد وضعتهما كذلك في الثانوية. كانتا في غاية اللطف، كلتاهما... لقد اخذوا مني كل شيء، هل تسمعون؟ كل شيء. بعضهم ساقوا الماشية، واحتفظ الألمان بالتبغ. حتى بنتاي رحلتا... واحدة سحرها رجل أبيض فاحتذت خطاه إلى حيث يعلم الله... والأخرى تعيش في «كشويرا»، من الممكن القول إنها مجنونة بشعرها المقصوص، لقد استسلمت للملذّات. هذه أعرف أين هي، أما الأخرى؟...

وأدارت المرأة بصرها عن الباب:

ـ أتحقد كثيراً على النساء اللواتي يستسلمن للملذّات؟

ـ أولئك فتيات ضائعات... بشعورهن المقصوصة والأحمر على وجوههن...

ـ أنت لا تعرف حتى الحياة التي يحيينها. لا تعرف شيئاً. ماذا تعرف؟

أسقط في يد العجوز. وعندها قال الجنديّ السابق:

ـ كان لي ذات مرة عشيقة تقتنص الرجال على الأرصفة... كانت تصلح سريرها في كل مرة حتى منتصف الليل، وبعد ذلك كنت أذهب إليها فأبقى إلى الصباح. كان ذلك رائعاً.

ـ وأنت لماذا تتكلم؟

ـ أنا، لم أقل شيئاً.

وأجابت المرأة مسعورة:

ـ لم تقل شيئاً. تهرف بما لا تعرف. تتكلم للكلام. أنا، الحق أني هنا، وإذا كنت لم أمت جوعاً فلأن الله لم يشأ.

انطونيو بالدوينو مندهش أشد الدهشة لرؤيتها حبلى. ولكنه لا يسألها شيئاً. ويفتح العجوز عينيه مجدّداً ويقول:

ـ أنا لا أريد أن أتحدّث بالسوء، معاذ الله... لو لم تكن لي ابنتي فبأي شيء كنت أتبلّغ؟ إنها تحترمني كثيراً. وحين اذهب إليها تطرد الرجال. لو أنها فقط لم تقصّ شعرها...

توقّف القطار في إحدى المحطات. وعادت العربة إلى الصمت. هناك رجال يسيرون قريباً منهم في الخارج. أحدهم يقول: «إلى اللقاء، إلى اللقاء»؛ والآخر: «سلامي إلى جوزفين». وقريباً منهم

جداً يُهمس: «سوف تنساني». إنه صوت امرأة يساورها الأسى. ويحتجّ الرجل أن لا، لن ينساها.

ـ لا تنس أن تكتب، هيه...

قبلة، وصوت الصافرة يقطع الوداع. الآن تسمع ضجة العجلات على السكّة. ويشرح الجندي السابق:

ـ القاطرة، إنها تقول: «ذاهبة إلى الله، أنا ذاهبة إلى الجحيم». اسمعوا، أليس الأمر كما أقول؟

ـ صحيح، يبدو كما لو كان كذلك...

ـ أمي هي التي علّمتني ذلك عندما كانت تحملني بين ذراعيها. كان هناك قاطرة غير هذه، واحدة أكبر، كانت تجرّ عربات كثيرة، وكانت تحدث ضجة غير هذه الضجة. كانت تقول هكذا: «قهوة بالحليب، خبز بالزبد». ذلكم هو، أليس كذلك؟

واستسلم إلى ذكرياته. وسألت المرأة:

ـ ألا تزال أمك حيّة؟

ـ أنا ذاهب للعيش معها... لشدّ ما بكت حين انخرطت. انتم تعرفون كيف هنّ النساء... ما زالت العجوز تنظر إليّ على أني غلام.

وأخذ على الفور يفتل شاربيه.

قالت المرأة:

ـ إنها القصّة نفسها دائماً.

والتفتت إلى أنطونيو بالدوينو:

ـ أرأيت هذه التي كانت تطلب في المحطة من رجلها أن يكتب لها ؟

ـ أجل سمعتهما يتحدثان.

ـ لن تراه قط بعد الآن. إنها مثلي!

وصمتت بغتة. فسأل العجوز وهو يعيد فتح عينيه:

ـ ماذا ؟

ـ لا شيء... سخافات.

وراحت تصفر لحناً.

قال العجوز وهو يبصق بحنق:

ـ الدنيا خبيثة. نُخلَق للعذاب، نحن أولاء...

وأجاب الجندي السابق وهو يضحك:

ـ ولكن لا أيها العجوز، الحياة جميلة. تقول ذلك لأنك سئمت منها...

وأكّدت المرأة:

ـ الحياة حلوة لمن يملكون المال.

وسأل أنطونيو بالدوينو وهو يلتفت إلى الشاب:

ـ لك أمّ أنت إذن؟ أما أنا فلم أر قطّ أمي. وقد جُنّت عمتي. «الضخم» له جدّة...

ـ من يكون «الضخم»؟

ـ شخص لا تعرفه. إنه طيب...

ـ طيّب؟ (كانت نبرة العجوز تقطر مرارة) ليس هناك إنسان طيّب. من هو الطيّب على هذه الأرض...

ـ « الضخم » طيّب...

ولكن بدا على العجوز أنه عاد إلى النوم. وأجابت المرأة:

ـ بلى هناك أناس كرام... ولكن الفقراء تعساء منذ ولادتهم. والفقر يجعل الإنسان شرّيراً.

القطار يسير. لقد تمدّد الجندي السابق. هو يختلس النظر إلى وجه المرأة. تبدو أكبر من عمرها بكثير، وبطنها بدأ يبدو بشعاً. ومع كونها كذلك فإن على شفتيها ابتسامة، وقد لاحظها أنطونيو بالدوينو جيداً. ها هي ذي تنظر إلى السماء من خصاص الباب.

ـ اعلموا أنه الفقر... ولهذا فأنا لست حاقدة عليه. لقد تركني وبطني منتفخ...

سأل الجندي السابق بلطف:

ـ من يكون؟ زوجك؟

ـ أمارس الهوى. لم أكن يوماً متزوّجة...

ـ آه! ظننت...

ـ ماذا كان في وسعه أن يفعل؟ لم يكن يملك شروى نقير. كيف كان سيربّي طفلاً؟ هرب في الليل كما يهرب اللصّ... ترك كل شيء وراءه في البيت... وعلى الرغم من ذلك فإنه كان يحبني، أعلم ذلك.

ـ هرب؟ حين رأى أنك على وشك أن تلدي؟

ـ ذاك هو... تركت العمل لأعيش إلى جانبه. رحت أغسل الغسيل. كان من الممكن القول إننا كنا متزوّجين. كان طيّباً... طيّباً

جداً في الواقع. يستأهل ان يوضع فوق مذبح... وذات يوم قلت له بلا مقدّمات والسرور يملأ كياني إني سأنجب طفلاً. وبدا ساهماً، ثم راح ينظر إلى الفضاء... بعد ذلك أخذ يضحك عالياً وقبّلني... كان لذيذاً ذلك كلّه.

وقال الجندي السابق:

ـ لي خليلة في بلدي. صبية حلوة. سوف نتزوّج ذات يوم.

وهزّت المرأة رأسها. ثم شعرت بشفقة على الجندي السابق. هو شابّ جميل جداً ومعرفته بالحياة قليلة جداً. سوف يتزوّج... وسأل أنطونيو بالدوينو:

ـ وبعد؟

ـ وذات ليلة أطلق ساقيه للريح. لم أر شيئاً. ترك كل شيء، علمت أنه هرب لكيلا يرى الطفل فيما بعد يتضوّر من الجوع.

ـ والآن؟

ـ يقال إنه يشتغل في «فوار سانت آن». سوف أوافيه...

ها هي ذي محطة «غونزاغ». مسافرون ينزلون. المدينة نائمة خلال حدائقها. أيقظت ضجّة القطار طفلاً في أحد البيوت وقد سُمع صوت بكائه، وابتسمت المرأة، إنها سعيدة.

قال لها أنطونيو بالدوينو:

ـ سيكون حسناً أن يكون لك واحد. سوف يبكي في الليل...

ـ أريد أن يكون صبيّاً...

وأيقظت صافرة القطار المنطلق مجدّداً العجوز:

ـ صحيح، هناك أناس كرام. كنت أكذب. ابنتي كريمة. أريد التحدّث عن «ماري». لا عن «زيفا». زيفا عاهرة. لم تُخبر قطّ عن نفسها. ربما ماتت؟ أما «ماري» فإنها تعطيني مالاً... ليس ما ينغّص سوى أمر واحد هو أنها تشاكسني لأني أشرب... ولكن إذا كنت أشرب فبسبب «زيفا»، لأني لا أدري أين هي...

ترك العجوز رأسه يسقط وعاد إلى النوم. وقال الجنديّ السابق للمرأة:

ـ إنه يهذي... تريدين إذن صبياً؟ أنا أيضاً أريد صبياً عندما أتزوّج... يقال إن هناك رجالاً يقاسون الآلام عندما تتمخّض زوجاتهم.

إنه سعيد من جديد، ينظر إلى المرأة بلا أيّ رغبة. قلبه نقيّ، وهو يشعر بحنان عارم لمجرّد التفكير في «ماري دي دولور» التي تنتظره في «لاپا». وابتسم وهو يتخيّل دهشتها حين تراه. من المؤسف أن الشاربين لم يقرّرا أن يطرّا. ما كانت عندها لتعرفه...

استيقظ العجوز. هو يرتجف من البرد. لقد عادت الريح، وهي تنذر بالعاصفة. إنها تغلّف القطار فيترنّح فوق السكّة. قال أنطونيو بالدوينو:

ـ كل هذا البؤس سينتهي بأن يفري جلدنا.

ـ خلق الفقراء ليتألموا. هناك من يخلقون ليكونوا سعداء: إنهم الأغنياء. وآخرون ليتألموا: إنهم الفقراء. كذلك هي الحال منذ بداية العالم.

الجنديّ السابق هو الآن الذي ينام نوم السعداء. إنه يشخر

شخيراً خفيفاً. هو لا يسمع صفير الريح العابرة. وها هو ذا العجوز يجرّ نفسه حتى الباب وينظر.

ـ سيسقط شيء ما...

ـ لقد جئت أيها الجدّ من مكانٍ الشعبُ فيه تعيس جداً. كنت أكسب عشرين فلساً في اليوم.

ـ في مزارع التبغ؟

ـ أصبت.

ـ آه! إنك لا تعرف شيئاً يا بنيّ. أنا رجل عجوز. لقد شاهدت أشياء تجعل المرء يرتعد. أتريد أن أقول لك؟ (في عينيه بريق غريب، وهو يبعد عصاه لينهض) الفقراء من التعاسة بحيث لو درج الناس على أن يتبرّزوا مالاً لأصيبوا هم بالقبض.

راح أنطونيو بالدوينو يضحك. لقد فقد العجوز توازنه، وها هو ذا يتدحرج فوق بالات التبغ. وتهرع المرأة لنجدته:

ـ هل أصابك سوء؟

الجنديّ يشخر. والمرأة تقترب من أنطونيو بالدوينو وتقول له بصوت خافت:

ـ لم أقل ذلك لأنه كان سيحزنه ـ وأشارت إلى الجندي السابق ـ ولكن الحقيقة هي أنني حتى لا أعرف لماذا رحل «روموالد». ربما كان الفقر... أنا التي تملك هذه الفكرة... لكن هناك جارة قالت لي إنه ذهب من أجل امرأة أخرى، امرأة تدعى «دولشي». ماذا لو كان كذلك؟.. ولكن لا، مستحيل. ما كان ليتركني هكذا!

الجندي نائم سعيداً كميت.

ـ أجل هكذا... وطفل في بطني...

دَعَك أنطونيو بالدوينو عود ثقاب فأراه اللهب المرأة تبكي وكتفاها تهتزّان بفعل النشيج. إنه مُحرَج، وهو يفتّش عن شيء يقوله، وتمتم:

ـ لا تهتمّي... سيكون صبيّاً...

إعلان إلى الجمهور

الخميس المقبل
الساعة الثامنة

السيرك الدولي الكبير

يمثُل، بعد جولة باهرة في جميع عواصم أوروبا وفي « باهيا »، أمام جمهور « فوار سانت آن » المحترم.

الخميس ١٨ — الساعة الثامنة مساء

« بوبول »، المهرّج المضحك: ضحك! ضحك! ضحك!!! ـ القرد السكّير ـ الدبّ الملاكم ـ الأسد الأفريقي ـ البهلوانة الشهيرة « فيفي » ـ الرجل الأفعى ـ « جوجو » وجواده ـ الرجل الذي يأكل ناراً ـ البهلوان الكبير « روبير »

و

« روزندا روزيدا » التي لا تضاهى

ملكة الجماهير المحبوبة في أوج حياتها المسرحيّة

وأخيراً

بطل المصارعة العالمي في الملاكمة والمصارعة بالأيدي والأرجل

« بالدو » ـ العملاق الاسود

يتحدّى كل رجل في « فوار سانت آن » طوال مدة إقامة « السيرك الدولي الكبير » القصيرة في هذه المدينة الشجاعة.

٥ كونتوات **جائزة للمنتصر** ٥ كونتوات.

الخميس المقبل ١٨ اسعار معتدلة

جميعاً إلى « السيرك الدولي الكبير »

سيرك

ها هو ذا يلتقي « لويجي » بفضل أكبر الصدف. كان قد أمضى بقيّة الليل في التسكّع بالمدينة. فالجنديّ السابق لم يلبث أن مضى في طريقه إلى « لاپا »، وكان هناك من ينتظر العجوز في مكان ما، وذهبت المرأة تبحث عن صديقة. وفي الصباح حاول أنطونيو بالدوينو إيجاد شاحنة لنقله مجاناً إلى « باهيا ». كانت هناك واحدة تؤمّن حمولتها : اقترب بالدو من السائق وكأنه لا يتوجّه إليه.

ـ إيه أيها الأخ، أتذهب إلى « باهيا »؟

أجاب السائق، وكان خلاسياً نحيلاً، وهو يضحك :

ـ أجل... هل لديك ما ترسله معي؟

ـ أود إرسال هذا الزنجي الذي يضمّه قميصي.

وراح يقرع صدره وهو يضحك.

وغمز السائق بعينه :

ـ الحق معك يا صاح. الموسم موسم أعياد. ما أروع ما يتسلّى المرء في هذه الأيام في « باهيا ».

وقرفص أنطونيو بالدوينو على عقبيه بقرب السائق وقَبِل سيكارة.

ـ شدّ ما أوحشتني « باهيا »، أتعرف... مضى أكثر من عام على تركي إياها...

فغنى السائق:

« باهيا »، إنها الأرض الطيبة
شرط أن يعيش المرء بعيداً عنها

واحتجّ بالدو:

ـ مهما قلت فإنها بلدة أنيقة. لا تخامرني إلا فكرة واحدة، العودة إليها.

ـ ألست تودّ الذهاب إليها في شاحنة؟ الوقت اللازم لكسر الصفراء وننطلق...

ـ ولكن، اسمع أيها الصديق، إني مفلس...

ضحك السائق: « النساء اللعينات... »

وغمز بالدوينو بعينه:

ـ قد يحدث أحياناً أن يكون ذلك...

ـ لا تهتمّ. لن يحضر معاوني. سوف تركب مكانه.

ـ حسناً.

ـ إذا احتجتُ إلى مساعدة فستكون حاضراً.

ـ في أيّ ساعة تقول إننا سنذهب؟

ـ بعد كسر الصفراء... بعد ساعة، ساعة ونصف.

ـ سأكون هنا.

تابع أنطونيو بالدوينو التنزّه في المدينة. لم يكن هناك من يراه، ولكنه لم يرد أن يرتاب السائق في أنه لن يُفطر في هذا اليوم. ما إن يصل إلى « باهيا » حتى يُفطر مع « الضخم » أو « يواكيم » أو حتى مع « جوبيابا ». كان يفكّر في ذلك، وكذلك في وسيلة للاحتيال من

أجل سيكارة، حين سمع صرخة تنمّ عن دهشة:

ـ بحق السيدّة العذراء!... هذا بالدو!

والتفت فألقى نفسه وجهاً لوجه مع «لويجي» بشعراته النادرة وسترته الرثّة.

ـ لويجي...

وأمسك «لويجي» بكتفيه ودار حوله وقال متحمّساً:

ـ رائع...

ـ ماذا تفعل هنا يا «لويجي»؟

ـ تجري الرياح بما لا تشتهي السفن يا صغيري... تجري الرياح...

ـ ولكن ما دخل الرياح بحق الشيطان في هذه الحكاية؟

ـ منذ تركتَ المهنة يا بالدو ما عاد شيء من أحوالي يسير كما يجب...

وتفرّس في الزنجي بحزن:

ـ كانت حرفة حلوة تلك التي كنت في طريقك إلى تعاطيها... مؤسف حقاً... ترك كل ذلك والذهاب دون أن تقول إلى أين...

ـ لم أتمكّن من هضم قرص الدواء ذاك...

ـ بلاهة... بلاهة... من هو الملاكم الذي لم يخسر قط؟ ومن جهة ثانية كنت سكران كخنزير...

ـ ولكن ماذا تفعل هنا؟ هل عثرت على ملاكم آخر؟

ـ ملاكم؟ قلّما تسنح الفرصة للعثور على واحد مثلك...

ضحك أنطونيو بالدوينو سروراً وربّت على كتف «لويجي»:

ـ قلّما... أنا الآن في سيرك...

ـ سيرك؟

ـ لا خير في الحديث عنه... بؤس...

ودخلا مشرباً. قال له أنطونيو بالدوينو:

ـ أشترِ لي السكائر يا «لويجي»... ليس معي أيّ...

كان يعلم أنه بالامكان التحدث إلى «لويجي» بصراحة. وبعد برهة صمت قال له:

ـ أنت الوحيد الذي لم أره حين كنت ملاحقاً في الغابة، شبه ميت...

ـ لكنني لا أدري شيئاً عن ذلك أيها الصغير. ما الذي حدث؟

ـ لا شيء... سوى أني كنت شبه ميت من الجوع. وعندها استرجعت صور جميع الناس، أتعرف؟... جميع الناس كانوا يأتون للسهر عليّ وهم ينشدون أشياء لأجل الموتى...

ظلّ «لويجي» غير فاهم شيئاً. وعندها قصّ عليه بالدوينو المشاجرة مع «زيكينيا»، والهرب إلى الغابة، والرؤى. تكلّم من غير تفصيل ولا تنميق لأنه كان يتحرّق شوقاً لمعرفة المزيد عن السيرك.

ـ ما هي تلك القضية؟

هزّ «لويجي» رأسه:

ـ هه! بؤس... حين رحلت لم أدر ماذا أفعل... وعندها مرّ سيرك... «السيرك الدولي الكبير» وهو يخصّ أحد مواطنيّ، «جوسيپ». لقد جنى مالاً طيباً في «باهيا». ولكنه كان طافحاً بالعاملين بعض الشيء، وكان عليه أن يدفع من المال فوق ما كان

يملك. ودخلت شريكاً في العملية... يا للعملية اللعينة... طفنا جميع المدن... بحق السيدة العذراء! النحس الأسود يلاحقنا. سوف نقوم بتصفية.

وقام «لويجي» بحركة يائسة وقدّم تفاصيل. ولاحظ أنطونيو بالدوينو:

ـ النحس...

وحملق «لويجي» فيه مجدّداً وقال فجأة:

ـ ولكن حضرتني فكرة قد تغيّر كل شيء... إني أوظّفك.

ـ أنا؟ إنها مزحة. ولكن لم يسبق لي قطّ أن اشتغلت في سيرك!

ـ ولم يكن قد سبق لك أبداً أن لاكمت، وقد جعلت منك ملاكماً...

راح الاثنان يبتسمان وهما يستعيدان الزمن الماضي. وعندما نهضا عن المائدة كان أنطونيو بالدوينو موظفاً في «السيرك الدولي الكبير» مصارعاً. وذهب يخبر السائق بالأمر:

ـ قل أيها الصديق، لن أذهب إلى «باهيا».

وضحك السائق:

ـ مع النساء لا شيء يقنع.

ـ من يدري؟...

وغمز الزنجي بعينه.

كان العقد الشفوي المعقود مع «لويجي» ينصّ على أنه سيأكل ويسكن، وأنه سوف يحصل على المال حين يتوافر المال. ولكن المال كان أصغر هواجس الزنجي أنطونيو بالدوينو.

كان الإعلان منشوراً على الأرض. وكان يقرأ فيه بحروف زرقاء:

« السيرك الدولي الكبير »

كان « جوسيپ » نائماً قرب الإعلان. ونبّه « لويجي »:

ـ إنه سكران. الأمر هكذا دائماً...

ودفعه بقدمه. وهمس الآخر بكلمات غير مترابطة:

ـ أطالب بالسكوت... قفزة مميتة... كلمة واحدة والبهلوان الكبير... يفقد... الـ... حياة..

كان هناك رجال يحفرون أوكاراً في الأرض. وآخرون يقيمون مدرّجات. كان الجميع، فنّانين وخدماً وموظّفين، يعملون. وقاد « لويجي » بالدوينو إلى داخل الخيمة. وكان أول ما رآه الزنجي صورته ملاكماً كما ظهر في إحدى صحف « باهيا ».

ارتمى « لويجي » على سريره (الذي لم يكن سوى ديوان ينقل إلى مسرح الألعاب هو الآخر مع الرجل ـ الافعى) وأكمل شروحه:

ـ خمسة كونتوات للمنتصر... لن يرفع أحد إصبعه، أنا الذي يقول لك ذلك...

ـ ومع ذلك فإنه ينبغي أن يكون هناك عراك، وإلاّ طالب الجمهور به؟

ـ من قال لك إنه لن يكون عراك؟ يُتفق مع شخص من الأشخاص لقاء عشرين ميلريساً. المتطوّعون أكثر من المطلوب.... تنهال عليه بوابل من الضربات الأستاذية...

ـ ولكن ماذا لو حضر بالصدفة شخص جبّار، لو انبغى قتال كما يكون القتال؟

ـ لا خطر...

ـ ومع ذلك، فماذا لو حضر أحد كهذا؟

وأشار «لويجي» إلى الصورة المعلّقة بالدبابيس إلى الحائط:

ـ ماذا بعد؟ أنت ملاكم، نعم أم لا؟

وأجاب أنطونيو بالدوينو أن نعم بهزة من رأسه. ومرّ بيده على الصورة وصفّر. وعلّق «لويجي»:

ـ يخامرك الندم؟ إنك إذن تشيخ...

ـ لم أكن في تلك الأيام أحمل هذه الندبة في وجهي.

ـ هذا رائع للتأثير في المشاهدين.

قرع الباب ففتح «لويجي». كان الطارق امرأة قصيرة القامة جاءت تطالب بأجر متأخّر عن شهر ونصف الشهر:

ـ بهذه الشروط لن أعمل أبداً... لا تعوّلوا عليّ غداً...

ـ غداً تقبضين، يا لله.

ـ كل يوم على هذه الشاكلة «غداً تقبضين». لقد مرّ شهران وأنا أسمع هذا النغم...

ـ غداً تقبضين، غداً... لا تعرفين ما الذي سيجري (التفت إلى بالدوينو): هذه «فيفي» البهلوانة... إنها غاضبة.

ونظرت المرأة القصيرة القامة إلى الزنجي.

ـ إليك بالدو المشهور... لا بدّ أنك سمعت به...

لم تكن تعرفه، ولا حتى بالاسم، ولكنها وافقت بهزّة من رأسها. كان «لويجي» يتكلم بطلاقة ليؤثر في المرأة القصيرة:

ـ أكبر مصارع في البرازيل... لم يتمكن احد في «ريو» من الصمود في وجهه... وقد وصل اليوم إلى «باهيا» بعد أن تعاقدت معه. استقلّ سيارة، وها هوذا عندنا...

ظلّت المرأة غير مصدّقة:

ـ وبأيّ مال وظّفت هذه الأعجوبة يا «لويجي»؟ لا تبدو لي قابلة للتصديق جداً، هذه الحكاية... في ذهني كما لو تقول فكرة بأني رأيت هذا الزنجي خلف مقود شاحنة في هذه الناحية... اسمع قليلاً يا صاح، إذا كنت قد تركت شاحنتك ظانّاً أنك ستكسب هنا أكثر فقد غرزت اصبعك في عينك... المال، إنه شيء لا نرى في الغالب لونه.

ودفعته بحركة واتجهت صوب الباب. ولكن أنطونيو بالدوينو لحق بها وقال لها بحنق وهو يمسك بذراعها:

ـ دقيقة ايتها السيدة الصغيرة... أنا ملاكم، بالتمام. كنت بطلاً باهياوياً في جميع الأوزان... أترين هذا، على الحائط؟ خادمك.

وبدا أن المرأة اقتنعت:

ـ صحيح إذن... وماذا جئت بالله تفعل هنا؟ لا يوجد مال هنا...

ـ جئت أسدي خدمة إلى صديق ـ وربّت تربيتة على كتف «لويجي» ـ صديق حقيقي.

ـ آه! في هذه الحال...

ـ وستحصلين على المال غداً وكأن السماء تمطره.

وانخرطت المرأة في تقديم الاعتذارات:

ـ هناك سائق، أتعرف... كأنه أنت بالضبط...

كانت لا تزال مبتسمة وهي تمرق من الباب. والتفت بالدوينو إلى « لويجي »:

ـ هذه القصة عن « ريو »، لم تمرّ، أيها الأخ العزيز...

كان « لويجي » يسطّر البرنامج الذي سيتم توزيعه في اليوم التالي. وكان بالدو يقرأ من فوق كتفه:

ـ أريد أسمي بحروف كبيرة جداً. بهذا الحجم...

وفتح ذراعيه ليشير إلى الحجم المراد.

كان « جوسيپ» إذا نام بعد الخمر واستيقظ يتحرّك كثيراً. حتى ليظنّ أنه سوف ينقذ كل شيء ويحلّ كلّ معضل ويدفع رواتب الفنانين والخدم. ولكن نشاطه كان يقتصر على الحركات والكلمات.

ـ لننظر قليلاً إلى هذا. هذا ليس كما ينبغي. هذه المقاعد كان ينبغي أن تكون الآن قد وضعت. ليستالأمور جدّية. وبعد فإنكم تأتون وتطالبون بالمال... وأنا الذي أموت وأنا أعمل! إذا غبت لم يسر شيء كما ينبغي.

وإذا رفع أحد الفنانين صوته مطالباً بحقّه:

ـ أنت أيضاً لا تعرف غير المطالبة... والفن، ألا يساوي شيئاً؟ في أيامي كان الناس يعملون من أجل الفن، من أجل التصفيق، من أجل الأزهار. الأزهار، أتسمع؟... كان هناك شابات يرشقننا بالأزهار، بالمناديل المطرّزة. كان في وِسعي أن اجمع منها مجموعة. ولكن هذه الأشياء لا تهمّني. لم يكن الناس قديماً يفكّرون في غير الفنّ.

ويلتفت نحو « فيفي »:

ـ كانت البهلوانة بهلوانة...

وتبلع البهلوانة سخطها فيتابع:

ـ واليوم ماذا نرى؟ بهلوانة مثلك، تؤدّي مع ذلك عملاً جميلاً، لا تفكر بغير المال، كما لو أنه ليس للتصفيق حساب...

ـ ليس هذا هو ما يقيم الأَوَد.

ـ ولكن هناك المجد، ما بالك! ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، إنه المسيح الذي قال هذا.

ـ لم يكن المسيح بهلواناً.

ـ في أيامي... التصفيق، الأزهار، المناديل، فهمتِ، كان لكل ذلك ثمن ما. تريدين مالاً، هيه؟... حسناً تماماً. غداً تحصلين عليه، مالك. سأدفع كل شيء حتى آخر فلس!

ولكنه كان ينتهي دائماً متوسّلاً:

ـ تعلمين يا صغيرتي « فيفي »، الأوقات عصيبة... ماذا تريدين أن أفعل؟ أنا فنّان عجوز. جلت في أوروبا بأسرها. تستطيعين رؤية ألبوماتي في خيمتي... ينبغي أن يعرف المرء كيف يسلّم أموره. صبراً يا « فيفي ». أنت فتاة طيّبة...

ـ لكن ليس لديّ ما ألبسه يا « جوسيپ ». هذا المايو الأخضر الرثّ جداً الذي أخجل...

ـ أقسم أنّ أوّل مال أقبضه سيكون لك.

وعلى هذا كان يخرج ليوزّع أوامر بلا جدوى، ويحتجّ على خدمة تأخّر القيام بها، وينتقد كل ما فعله « لويجي »، وينتهي من ذلك كله

بالوقوف على البار قاصّاً على مجهولين يتبرعون بدفع ثمن المشروب أمجاده الماضية بهلواناً.

وإذ عاد هذه الليلة إلى الخيمة وهو يمشي مواربًا، بعد أن سجّل بقطعة من الفحم الأولاد الذين لا يُعدُّون للسماح لهم بحضور المسرح مجاناً، التقى بانطونيو بالدوينو الذي كان يتظاهر بالنظر إلى النجوم، في حين أنه كان يراقب في الحقيقة عربة «روزندا روزيدا» الراقصة السوداء فتنة «السيرك الدولي الكبير» الرئيسية. إذ أنه كان قد لمح على ضوء شمعة الزنجية التي كانت قد بدأت تنضو ملابسها وتكشف عن ظهر...مـخـمل حقيقي.

كان الزنجي يغنّي واحدة من أكثر ما استحسنه الناس من أغاني «السامبا» التي كان يؤلفها:

زنجيتي مخلوقة من المخمل،
حتّى ليجعلكم هذا ترتعشون...

وعندما رأى «جوسيپ» مقبلاً تظاهر بالنظر إلى النجوم. أيّها نجمُ «لوقادولافوار»؟ لقد أروه ذات مرة النجم الذي صعد إليه «زمبي دي پالمييه». ولكنه لم يكن يتلألأ من ههنا. هناك في «باهيا» فقط يتلألأ، ليالي المهرجان، عندما يحتفل الزنوج بـ «أوشوسي» إله الصيد. إنه يحمي الزنوج لامعاً حين يكونون فرحين، خامداً حين تحزبهم الشجون. أليس «الضخم» من قصّ عليه تلك الحكايـة؟ لا، إنه «الأب جوبيابا»، ذات ليلة عند المرفأ. لو كان «الضخم» لوضع ملاكاً في الحكاية... والآن في وسعه إلقاء نظرة أخرى على العربة لأن «جوسيپ» يترنّح إلى درجة أنه لن يصل قريبا. ولكن ألا يرى

أن النور انطفأ؟ لولا هذا الـ « جوسيپ » السكّير لكان رآها عارية تماماً. إنها امرأة مستهترة... وسواء كان هناك مال أو لم يكن فسيبقى أنطونيو في السيرك ما بقيت. ما أحلاها... فتاة كهذه في « مصباح الغرقى » لا بدّ أن تلقى رواجاً باهراً. لا بد أن يسيل لعابهم لرؤيتها، الرفاق...

كان « جوسيپ » قد وصل. وحين أراد التسليم على الزنجي كاد يفقد توازنه.

ـ إني متعب. هذا العمل ينهك قواي. أعمل مثل كلب.

ـ هذا واضح.

وأكمل طريقه. واستغرق نصف ساعة من الوقت للعثور على مدخل خيمته. وفكر أنطونيو بالدوينو الذي اقترب:

ـ إنه كفيل بإشعال حريق عندما سيشعل شمعته.

ولكنه كان قد أشعل الشمعة، وها هو ذا يُرى جالساً إلى مائدة عرجاء. كان على هذه المائدة كتب. والفضول يهصر الزنجي الذي يتربّص عند المدخل مثل لصّ. ماذا يمكنه أن يكون في هذه الكتب حتى يلاطفها « جوسيپ » بهذا القدر من الحبّ؟ كما يفعل الزنجي تماماً بأفخاذ خلاسياته. إنه يُمِرُّ يده بعذوبة كبيرة، بعناية فائقة، بشهوة عارمة. ولكنه التفت، ورأى بالدوينو عينيه. خمرة « جوسيپ » كئيبة اليوم. أنطونيو بالدوينو لا يتمالك نفسه، وها هوذا يدخل خيمة « جوسيپ » الحزين كل الحزن لأنه شرب كثيراً.

كان ذلك في إيطاليا في فصل الربيع. وهذا الذي يُرى في الألبوم بشاربين كثّين كان والده. كلّ أسرته ملكت سيركات. وعلى هذه

الصورة التي تبدو أقدم، تلك التي بدأت تصفرّ، يُلمح جدّه بالبزّة... لا، لم يكن جنرالاً. كان مالك السيرك. «السيرك الدولي الكبير». ولكنه كان في تلك الأيام سيركاً حقيقياً. لا شيء غير الأسود، كان منها أكثر من ثلاثين. واثنان وعشرون فيلاً. ونمور... جميع حيوانات الخليقة...

ـ شربت بضع كؤوس، ولكني لا ابالغ، أتعرف...

انطونيو بالدوينو لا يشكّ في ذلك.

كان لشارليْ أبيه سحر لا يوصف. كان «جوسيپ» صغيراً يومذاك، ولكنه يذكر جيداً. فحين كان الرجل يصعد إلى الأرجوحة كان يخيّل أن السيرك سينهار تحت وطأة التصفيق. جنون. والقفزات التي كان يقفزها من أرجوحة إلى أرجوحة، والقفزة المميتة التي كان يقفزها في الهواء، وثلاث دورات حول نفسه من غير أن يتعلّق بشيء... كان ذلك يُحدث توقّفاً في القلوب. وكانت أمه راقصة على الحبال. كانت تظهر مرتدية اللون الأزرق، وكانت تشبه جنيّة. كانت تملك مظلّة يابانية صغيرة تقيم بها توازنها. وحين مات والده ورث كل شيء. أسوداً. خيولاً مدرّبة. وقد صرف ثروةً اجوراً للفنانين. أشهر فناني أوروبا...

ـ كان الدفع يتمّ كل سبت. لم يكن يحدث تأخّر قطّ...

ـ وذات يوم حضر الملك بلحمه وشحمه إلى السيرك. كان يوماً مشهوداً... كان في مكنة أنطونيو بالدوينو أن يرتاب لأنه يرى أمامه جوسيپا سكران رثّ المظهر. ولكن لا يمنع أن الملك كان قد صفّق لـ «جوسيپ». لا الملك وحده وإنما كل الأسرة الملكية التي كانت

قد استأجرت مقصورة فخمة. كان ذلك في روما، في فصل الربيع. يوم برز يسوعي اللطيف! لم يُرَ قطّ ما يماثله.

ـ ظننت أنهم لن يتوقّفوا عن التصفيق...

وهنا في الألبوم كانت تُرى صورة له في ذلك الزمان. باللباس الأسود، على الوجه الأكمل. كذلك كان يدخل المسرح. وبعد ذلك كان يخلع ثيابه شيئاً فشيئاً. الطيلسان فالبنطلون فالصديرية. وكان يبقى بتبّانٍ من الحرير كما في الصورة الأخرى من الألبوم. لم يكن به من بأس في ذلك الزمان. لا كما هو اليوم. في ذلك الزمان كان ذا حظوة عند النساء. حتى إنه كان بينهّن كونتيسة... شقراء. مغطّاة بالحلى. كانت قد واعدته.

قال بالدوينو وقد أثار الأمر اهتمامه:

ـ ومشى الحال؟

ـ الرجل الظريف لا يروي مثل هذه الأخبار...

كان الملك هناك، في مقصورة. والأسرة الملكية كلها. وبعد القفزة المميتة المزدوجة ـ يصعب تصديق ذلك ـ لم يتمالك الملك نفسه: نهض ليصفّق. يا لها من ليلة!... ينبغي القول أيضاً إن «ريزوليتا» كانت أجمل من أيّ وقت مضى. وعندما قفزت معه كان ذلك انتصاراً... وباعت الجمهور صورتهما معاً، هذه التي تُرى في منتصف الألبوم. هذه التي تُرى فيها امرأة وهي تشكر وتمدّ يدها إلى رجل بتبّان. وإذا دقّق المرء النظر استطاع التعرّف على «جوسيپ».

ولاحظ بالدوينو:

ـ فتاة ممشوقة القدّ...

باعت المشاهدين هذه الصورة واشتروها جميعاً. كان الفصل ربيعياً، أليس كذلك؟ وكانت حلوة كأزهار الربيع. كانت زهرة ربيعية وكان أهل روما جميعاً يرغبون في الاحتفاظ بذكرى عن هذا الفصل العابر... وعلى تلك الصورة الأخرى كانت تُرى فوق جواد رافع قائمة من قوائمه. كان اسم الجواد «جوپيتر» وكان يساوي مبلغاً من المال يفوق التصوّر. ولقد بقي عند أحد الدائنين في الدانمرك ذات مرة ذهب فيها السيرك إلى هناك. وتلك الصورة الأخرى لـ «ريزوليتا» بثياب فارسة كانت قد أُخذت قبل أيام قليلة من سقطتها. كانت جميلة جداً وشابّة جداً في ذلك الربيع، فلم يكن في وسع أحد أن يتوقّع ذلك الحدث السخيف. ومع ذلك فقد كان ما كان. كان في السيرك تلك الليلة جمع غفير من الناس، حتى لكان في الإمكان القول إنه البحر. كان ذلك أعجوبة الموسم. لم يكن من حديث إلا عن «الشياطين»، اسمائهم المستعارة. وعندما كانت «ريزوليتا» تمرّ في الشارع كانت النسوة يتوقّفن لرؤيتها. حتى إنهنّ كن يحاكين ثيابها وزينتها لأنها كانت تعرف كيف تكون أنيقة؛ لم تكن حلوة في السيرك فقط، على الأرجوحة. كان الرجال يُجنّون بها. كان ذلك نجاح الموسم الأكبر، نجاح ربيع روما المزهر. وفي هذه الصورة كانت تُرى في الثوب الذي تسير به في المدينة...

ها هوذا «جوسيپ» يلقي عليها نظرة. ثم ها هوذا يخطو نحو السرير بضع خطوات ويجلب منه زجاجة كونياك.

وضحك بالدوينو مازحاً:

ـ قطرة من «سانتو امارو»، هيه؟

لا شكّ ان «جوسيپ» يفرط في الشراب. دون أن يرفع عينيه

عن صورة المرأة هذه. بالدوينو نفسه يرى تماماً أن وجهها حزين كوجه سجينة. كان «جوسيپ» يعرف ذلك، يعرف أنها لم تكن تحب حياة السيرك هذه... ولكن من كان يفكر في أنها ستسقط تلك الليلة؟ لم يكسر أحد مرآة... وكانا قد دخلا المسرح تحت وابل من التصفيق. وسار كل شيء بادئ الأمر على ما يرام. ولكنْ في لحظة القفزة المميتة... لم تبتعد الأرجوحة بما فيه الكفاية: لم تبلغ ساقيْ «جوسيپ»... وعلى الأرض لم يكن هناك سوى لفافة من لحم. وعندما تمكّن الأسد «ريكس» من «جون» المروض الإنكليزي ما كان الأمر بهذه البشاعة. لقد أصبحت «ريزوليتا» لفافة من لحم، بلا وجه، بلا ذراعين، بلا أيّ شيء. كيف وجد القدرة على النزول، كيف لم يسقط هو الآخر، هذا ما كان يسائل نفسه عنه. لقد قال المهرّج فيما بعد إن «جوسيپ» قد فعل ذلك عمداً لعلمه بأنه كان لها عشيق. وأُجري تحقيق لم يُفضِ إلى شيء... ومنذ ذلك اليوم بدأ «السيرك الدولي الكبير» ينحطّ.

ـ أتظنّ ذلك أنت، أنه كان لها عشيق؟... لقد قالوا ذلك، وأروني رسالة كانت وسط أغراضها... ولكنها كانت أباطيل، أليس كذلك؟ في السيركات هناك أناس أردياء... عليك أن تحذر أناس السيرك. إنهم حسّاد. كانوا يحسدونها على نجاحها... والذي يسخطني هو التفكير في أنه كان من الممكن أن يكون لها مع ذلك عشيق. رأيت الرسائل. ولكنها كانت في غاية اللطف... أن تكون كانت تحب تلك العيشة، لا أقول بذلك. ولكنها لم تكن أمرأة خليقة بأن يكون لها عشيق. كان هناك في الحقّ رسائل. وكانت تلك الرسائل تحكي عن مواعيد... آه! كنت أودّ أن تكون على قيد الحياة لتقول

لي إنها كانت أباطيل، وأن ذلك كله كان حسداً. ألا تظنّ أن ذلك كله كان حسداً؟...

تراه سيبكي الآن؟

لقد وضع رأسه بين يديه مغمضاً عينيه. وعلى الأثر كان أنطونيو بالدوينو هو الذي يقبض على زجاجة الروم الأبيض، إنه يصبّ لنفسه جرعة كبيرة جداً. وفي الخارج مرة أخرى ليل ربيعي...

المهرّج «بوبول» راكب بالمقلوب على حمار. والسيرك مهيمن في قلب المدينة مزيناً بالأعلام، وعلى كل من جانبي الباب لافتة. هنا سيأتي الناس الليلة لسماع الموسيقى بينما تبيع الزنجيات مربّى جوز الهند. لا حديث في المدينة إلا عن السيرك، وعن الزنجيّة التي ترقص شبه عارية، ولا سيما عن الزنجي بالدو الذي أطلق تحدياً لجميع الرجال في «فوار سانت آن». والرجال في السوق الكبرى يعلّقون بشتى التعليقات. لقد تريّث «لويجي» للبدء هذا الاثنين لأنه بالتمام يوم سوق الماشية. وها هوذا المهرّج الآن يعبر ساحة «السوق».

ـ ستكون هناك حفلة اليوم؟

ـ أجل يا سيدي أجل...

والصِبْيَة الذين جاءوا من المزارع يحملون السكّر الأسمر واللبن الرائب ينظرون بحسد إلى سكان المدينة الذين يسيرون خلف المهرّج وسوف يدخلون مجاناً.

وكان آخرون ينزعون بعض الألواح ليدخلوا من تحت ستر القماش. ويكمل المهرّج جولته الظافرة بين الفلاحين. ومستخدمو المحلات التجارية واقفون على الأبواب للفرجة. وأوقف المهرج

ركوبته وسط السوق وطالب بالصمت:

ـ أيها الجمهور الكريم، إن بالدو بطل المصارعة الحرّة والملاكمة الانكليزية والمضاربة باليدين والرجلين الذي جاء خصيصاً (كان يضغط على: خصيصاً) من ريودي جانيرو للعمل في السيرك الدولي الكبير براتب قدره ثلاثة «كونتوات» في الشهر ما عدا المسكن والمأكل والغسيل...

وقال أحد الفلاحين مؤمناً:

ـ صحيح صحيح!

ـ ... يطلق تحدّياً لكل رجل في هذه المدينة الباسلة لصراع فوق مسرح السيرك هذه الليلة وفي جميع الحفلات التالية. وإذا وجد من يتمكن من الفوز على بالدو فإن إدارة السيرك تعطي هذا البطل مكافأة قدرها خمسة «كونتوات» رئيسية، خمسة «كونتوات» رئيسية، فليذع الخبر... ويضيف بالدو «كونتو» من جيبه الخاص. انتهزوا الفرصة! أعلن للجمهور الكريم أنه قد تقدّم إلى الآن رجلان إلى مكاتب السيرك لتحدّي البطل العظيم بالدو، وأنه قبل التحدّيين. ما على الذي يرغب في تجربة حظّه إلا أن يتقدم إلى «السيرك الدولي الكبير» هذه الليلة. لا تتوقّف المصارعات إلا بموت أحد المتصارعيّن...

وتابع بلا كلل جولته خلال المدينة راكباً بالمقلوب على الحمار الذي كان ينهق من حين إلى آخر؛ وعندها كان يتظاهر بالوقوع فيتشبّث بذنب الحيوان فتغرب المدينة بأسرها في الضحك.

كانت المدينة كلها تتحدث عن هذه المصارعة التي ستجري حتى

الموت... وكان قد علم سلفاً ان سائقاً ومستخدماً في محل تجاري وفلاحاً ضخماً كانوا على استعداد لقبول تحدي بالدو العملاق الأسود والتنازع على « الكنتوات » الخمسة. وألفى المساء المدينة متوتّرة الأعصاب.

عندما دخل الفلاح صاح أحد الخبثاء الجالسين في الرواق الأعلى من المسرح وهو يشير إلى الفلاح:

ـ هه يا جوزيهْ! هاك الفحل في زوجيْ الديوك المتصارعة اللذين تملكهما!

وضحك الناس، وفكر الفلاح لحظة في أن يغضب، ولكنه انتهى بأن ضحك هو الآخر. إنه عملاق، هذا الفلاح بحذائه المطّاطي وسوطه. كان يضحك وهو يفكر بـ « الكنتوات » الخمسة التي سيكسبها من صراعه مع المدعو بالدو. لقد كان في بلده يسقط الأشجار ببضع ضربات بالفأس ويجرّر جذوعاً ضخمة. وعندما جلس كان على شفتيه ابتسامة فائز على الرغم من تواضعه وحيائه.

كان بعض الزنوج يحضرون الكراسي للعائلات التي استأجرت مقاصير. لم يكن السيرك يملك كراسي، وكان المشاهدون يتدبّرون أمر إحضارها بأنفسهم.

ـ لهذا السبب أقصد دائماً الرواق الأعلى من المسرح. ذاك أرخص، ولا يُطلب هنا من المرء أن يحضر معه شيئاً. أيّ شيء غير جلده...

ـ انظر، هذا خادم القاضي...

دخل الزنجي مصفّف الكراسي في المقصورة ثم ذهب يتكوّم مع

الآخرين فوق المدرّجات. كان هناك شخص يطارده بصياح ساخر:
ـ ماذا؟ «شيكويشيرو» الذي سيتفاخر في إحدى المقصورات...

كان كل شيء في الخارج جميلاً حقاً، تلك الألوان، تلك الأنوار. زنجيّات بالتنانير متحلّيات بالعقود يبعن أنواع النقل والملبس والثمار. كان السيرك يضيء الساحة كلها. وكان هناك صِبْيَة يحاولون التسلّل تحت سُتُر القماش، ورجل يبيع عصير قصب السكر، وكان بائع المثلجات ينتظر أن يفرغ إناؤه ليذهب هو الآخر إلى الرواق الأعلى من المسرح. وكانت تنتابه نوبات قهقهة كبيرة وهو يفكر في المهرّج الذي كان في الحق مهرّجاً غير عادي. وكان الناس كما في يوم الحشر عند شبابيك التذاكر الشعبية؛ «لويجي» يفرك يديه جذلاً. ولقد عرا الفزع العجائز من جراء هذا القدر من الحركة في المدينة الصغيرة الوادعة التي كانت تنام عادة في الساعة التاسعة. كان ذلك بالفعل نوعاً من ثورة. السيرك، إنه الجدّة والطرافة والسفر وأسواق البلاد الاخرى المتنقلة والمغامرة. وكان الزنوج يبتكرون أكداساً من الحكايات عن الفنّانين.

ها قد صدحت الموسيقى. إنها قادمة من الشارع الأيمن ولا يلبث الناس أن يعرفوا فيها صوت النشيد الكرنفالي. وفي داخل السيرك هبّ جميع الناس هبّة رجل واحد. وها هم الذين يحتلون أعلى المدرّجات ينظرون من فوق القماش. ويندفع الأطفال الواقفون عند الباب لمواكبة «جوقة السابع من ايلول» التي وصلت بخطوة حربية ببزّات زرقاء وخضراء. الصيدلي السيد «رودريغ» لا يتهيّب شيئاً وهو يزمر بالمزمار. والبوق يرسل اصواتاً تتابع تذبذبها في الهواء وتقرع رأس أنطونيو بالدوينو. وغادر هذا خيمته وذهب يتفرج على

الموسيقى. يا للجوقة الجميلة! ثيابهم رائعة. ذاك الذي يسير القهقرى، إنه القائد. إن بالدوينو ليبادل بوظيفته وظيفة هذا الرجل الهزيل الذي يقود « جوقة السابع من ايلول »! ما أجمل سَمْته! ما أشد ما تحملق فيه النساء! إنه بطل من ابطال المدينة، مفخرة من مفاخر « فوار سانت آن » إنه كالزمّار، المدينة بأسرها تعرفهما وتحيّيهما. يرفع القاضي قبعته عندما يمرّان. ولكن ها هو ذا « جوسيپ » ينتزع بالدو من تأمّله. وعاد الزنجي إلى خيمته حاملاً في قلبه طموحاً بأن يقود ذات يوم « جوقة ». ها قد وصلت الجوقة إلى الساحة. إنها تسير بخيلاء واثقة من سحرها ومكانتها. وعند باب « السيرك الدولي الكبير » أعطى قائد الجوقة امراً فتوقف جميع الموسيقيين. الجميع في الرواق الأعلى وفوق المدرّجات وفي المقاصير وحتى تحت خيام الفنانين يصيخون السمع. والجميع يظنون انه أمر لَدُنيّ وأن في وسع « فوار سانت آن » أن تفخر بأنها تملك أفضل جوقة في الدولة بأسرها. وما إن انتهت قطعة « الباسو دوبل » حتى دخل الأفراد وذهبوا للجلوس فوق الباب على المنصة التي كانت محجوزة لهم. والآن ها هم المشاهدون يطالبون ببدء الحفل.

الأطفال يطلقون الصرخات، والرجال يتخذون أمكنتهم، والقاضي الذي سحب ساعته يقول لزوجته بلهجة صارمة:

ـ إنها التاسعة وخمس دقائق. الدقة فضيلة كبرى.

ولكن الزوجة لا تعلق أية أهمية على حِكَم شريكها. وفي المقصورة المجاورة يناقش بعض مستخدمي المحلات التجارية المصارعة التي ستجري قريباً وقد جمعوا مبلغاً من الرهان.

ـ أتعلم أنها مصارعة حتى الموت؟

ـ لا يمكن أن تسمح الشرطة بذلك...

ـ يقال إن بالدو هذا جبّار. لقد رآه «أغريپينو» يغالب ألمانياً في «باهيا». إنه ثور...

الناس على المدرّجات يقرعون بأقدامهم. ومستخدمو المحلات التجارية يفكرون أن هؤلاء الناس قليلو التربية. فمتى رؤي مشهد وقد بدأ في الساعة المحدّدة؟ ولكن مستخدمي المحلات التجارية لا يفقهون شيئاً، فهذا لا يمتّ إلى التربية بصلة. فالناس يقرعون بأقدامهم ويطلقون الصيحات ويرفعون العقائر بالمطالبة لأن ذلك يسليهم بشكل أفضل. إن سيركاً بلا دعابات في الرواق الأعلى، وبلا مطالبات ولا صيحات ليس سيركاً. أفضل ما في السيرك هو هذا: الصياح حتى اختفاء القدرة على الكلام. وقرع المدرّجات حتى الأحساس بالألم يسري في الأقدام. وتحتجّ زنجية:

ـ اذهب واقرص فخذيْ أمك العاهرة...

هناك نذير بعراك في الجهة اليسرى. وهذا ما يحدث عندما يحاول أحدهم التحرش بامرأة متزوجة. ها قد سقط رجل من الرواق الأعلى. ولكنه نهض على الفور وعاد إلى مكانه وسط صيحات التقريع. ودخل «لويجي» الباحة ببذلة «جوسيپ» الذي سكر سكرة مريعة. وأطبق الصمت على السيرك.

ـ أيها الجمهور الكريم. إن السيرك الدولي الكبير يشكركم لحضوركم حفلته الأولى ويأمل أن يستحق فنانوه الرائعون تصفيقكم السخيّ.

كان «لويجي» يغالب لكنته الإيطالية. وبدا ذلك أفضل. ودخل الخدم وفرشوا بساطاً قديماً مثقّباً غطّى قُطر الباحة الدائرية. وعندها

تمّ تقديم أعضاء الفرقة وسط حمّى عاصفة. دخل « لويجي » أولاً يقود بيده الجواد « اوراغان » الذي كان ينبعث من سرجه لمعان قوي. وجاءت بعده « فيفي » فتضاعف التصفيق. كانت ترتدي قميصاً من الحرير الأخضر وتكشف عن ساقيها. وحيّت وهي ترفع أيضاً حاشية من تنوّرتها الصغيرة. وعندها كادت المدّرجات تنهار تحت وابل التصفيق. ثم دخل « بوبول » وهو يدور دورات حول نفسه:

ـ مساء الخير للجميع...

وتعالت القهقهات. فالمهرّج يرتدي ثـوبـاً أزرق محلّـى بنجـوم صفراء وقمر أحمر فوق الإليتين. ما أشد ما يسلّي هذا المهرج! والرجل ـ الحية! إن في وسع المرء أن يقول إنه حية حقاً بهذا التبّان اللاصق بجسده والحافل باشياء تلمع. إن التبّان يرسم جسداً مخنّثاً؛ فالرجل ـ الحية يبدو وكأنه صبي أو صبيّة وقد أخذ الرجال يطلقون الدعابات. والرجل الذي يلتهم النار ذو شعر أحمر. و « روبير » البهلوان المتوازن يستثير بسترته الطويلة اللامعة نشوة النساء. إنه فرنسي كما يدل على ذلك اسمه، وشعره مرجّل لامع بالأدهان مع فرق في الوسط. إنه يرسل قبلات تستقبلها الأوانس بخشوع. وتتنهّد عانس: « شاب جميل ». وأما « جوجو » فقد مرّت دون ان تلفت تقريباً الأنظار التي كانت منصبّة كلها على القرد والدبّ. والأسد داخل قفص في آخر الحلبة يطلق زئيراً كئيباً. كئيباً وضـارياً. و« جوجو » أميل إلى الكهولة ووجهها مغضّن تغضيناً تخفية التطرية بشكل سيّء، وأما جسدها فما زال فيه رمق. والآن ها هي ذي « روزندا روزيدا » بالثياب الباهيانية.

ـ مساء الخير أيها الأصدقاء.

ودارت حول السيرك راكضة بتنورتها الملوّحة كالإعصار.
وعندها نسي الرجال «جوجو» و«فيفي» والبهلوان «روبير» والدب والأسد وحتى المهرّج فلم يعودوا يرون غير الراقصة السوداء «روزندا روزيدا» بثوبها الباهياني وهي تهزّ ردفيها. وامتلأت العيون بذخاً. واستند مستخدمو المحلات التجارية على حافة المقصورة من أجل رؤية أفضل. ووضع القاضي نظارتيه. وقالت زوجه إن الأمر لا أخلاقي. وبحّت اصوات الزنوج الجالسين على المدرّجات. لقد غزت «روزندا» جمهورها.

والوحيد الذي لم يره بعد أحدٌ هو بالدو العملاق الزنجي. إنه يعاني في الداخل كل مشاق الدنيا لمنع «جوسيپ» المخمور من الخروج لتحية الجمهور. وتعالت المطالبة بحضور الزنجي. وأفهم «لويجي» الناس أن بالدو العملاق الزنجي البطل العالمي في الملاكمة والمصارعة والعراك باليدين والرجلين يمارس التمريناتالأخيرة من تدرّبه، وأنه لن يظهر إلا عندما يحين وقت الصراع. ثم انسحبت الفرقة وبدأت الحفلة بـ «جوجو» وجوادها. الجواد «اوراغان» يركض فوق الرمل. وفي يد «جوجو» الآن سوط. إنها ترتدي بنطلوناً وقميصاً يشد ثدييها الكبيرين. وتقفز على صهوة الجواد ثم تقف على متن الدابة. إنها تبدو مرتاحة وكأنها في سيارة. وتقفز ويتعالى التصفيق. ثم إنها تقوم ببضع دورات أخرى وتنسحب وسط تهليلات الإطراء.

وقال رجل يحترمه الناس لأسفاره:
ـ رأيت خيراً من هذا.

وأخذ يقصّ أنه ذهب إلى «باهيا» و«ريو». وتردّد الذين

كانوا يرغبون في التصفيق، ثم استعادوا ثقتهم وانهالوا تصفيقاً لأن الجوقة راحت تعزف «سامبا» وقد جاء الآن دور المهرّج الذي وصل وهو يتشقلب. إنه ينازع «لويجي» ويلتقط حقيبة (ظهر منها طرف سروال داخلي) ويتناول عصاً ويتظاهر بالرحيل. وبعد بضع جولات من المراوغة يسأله «لويجي»:

ـ هل كنت يوماً في المدرسة يا «بوبول»؟

ـ أنا؟ لقد أمضيت عشر سنوات أتعلم (الكواعد) و(الحبساب)...

ويغمى على الجمهور من الضحك.

ـ قل لي إذن في كم يوماً خلق الله الدنيا؟

ـ أعرف.

ـ إذن قل...

ورفع عصاه:

ـ تظن أنني لا أعرف؟

ـ قله...

ـ اعرفه، لكني لا أقوله، هه، لأنني لا أريد قوله...

وهكذا حقق المهرّج بدعابات من هذا النوع سعادة الناس كلهم في تلك الليلة. كان مستخدمو المحلات التجارية يضحكون، والقاضي يضحك، وزنوج المدرّجات يشرقون بقهقهاتهم. الوحيد الذي لم يكن يضحك هو الرجل الذي كان قد سافر. كان يجد ذلك كلّه من أرخص التفاهات ويتحسّر على العشرين فلساً التي دفعها. والسبب أنه فقد براءته قديماً في المدن الكبرى التي كان فيها طالباً

قبل أن يرجع فيتابع العمل الذي أسسه والده في مؤسسات « عبد الله ».

ورقص القرد. وشرب الدب زجاجة من البيرة. وكان الرجل ـ الحية الخنثى يتلوّى في جميع الاتجاهات. وكانت رؤيته تثير الازعاج. فقد كان يتقن ما يفعل، ولكنه كان يُحفِظ الرجال الذين لم يكونوا يدرون بالضبط هل عليهم التفكير فيه بوصفه امرأة، أم التصفيق له كما يُصفَّق لرجلٍ رجلٍ. ومع ذلك فقد كانت عينا الرجل الذي سافر كثيراً تلتمعان بوميض مريب. لقد شكر الرجل ـ الحية بطريقة ملائكية، فأرسل قبلات كما فعل البهلوان المتوازن « روبير »، وحيّا كما فعلت بهلوانة الاراجيح « فيفي ». ونسبت النساء إلى أنفسهن القبلات والرجال إلى أنفسهم التحيات. وكان الرجل الذي سافر كثيراً الشخص الوحيد الذي غادر مكانه لأن الحفلة كانت قد انتهت في رأيه. وحمل شقوته في قلبه وعينيه ولم ينم تلك الليلة.

لم يظهر البهلوان المتوازن الكبير « روبير » هذه المرة أيضاً. والنساء أسفات. ولكن في المقابل هذه هي

(روزندا روزيدا التي لا تضاهى)

« ملكة الجماهير المحبّبة »

« في أوج احترافها المسرحي »

ها هي ذي تبدأ برقصة ذائعة. ألا يمكن الظن بأنها عارية تحت التنورة الباهيانية الفضفاضة؟ يا لله، إنه حتى منتصف الفخذين لا يُرى أي لباس داخلي! إنها تتقلّد فوق نهديها عقوداً من الدرّ الملّون، وترسم بساقيها حروف (×) كبيرة. وترى زوجة القاضي بما

لا يقبل الشك أن ذلك الأمر مناف للأخلاق، وأنه كان على الشرطة أن تمنعه. ولكن القاضي ليس من هذا الرأي، وراح يستشهد بالدستور والقوانين ويقول إن النساء لا يفهمن في هذه القضايا شيئاً وأن الأمر لا يستحق أن يناقش. إن ما يستحق ذلك هو ساقا التي (لا تضاهى). ولكن هناك الآن ما هو أفضل أن يشاهد. إنها تهز ردفيها. لقد اختفى كل شيء ولم يعد هناك سوى هذين الردفين وتَيْنِك الإليتين اللتين تملآن السيرك من الحلبة حتى السقف. إن «روزندا روزيدا» ترقص رقصة لطرد الأرواح الشريرة صوفية كرقصة دينية، متوحشة مثل غابة ملتفّة. إنها تعرض جسدها برمته، ومع ذلك يظلّ جسدها سرّاً لأنه ما إن يظهر حتى تكون التنورة قد أخفته. ويهيج الرجال ويحملقون، ولكن عبثاً. الرقصة سريعة والرقص يملك عليهم مشاعرهم. وبقي البيض لا يرون سوى فخذي «روزندا روزيدا» وإليتيها. وأما الزنوج فإنهم يتابعون الحركات وإيقاع رقصة طرد الأرواح الشريرة هذه ويظنون أن هذه المرأة يسكنها قدّيس. وتبلغ «قمة حرفتها» وهي تتلقى مقرفصة هتاف الجمهور الحماسي المحموم مطالباً إياها بالوقوف من غير أن يسمع نغم «البازودوبليه» الذي كانت الفرقة قد بدأت بعزفه. ثم إنها عادت ترقص «مأساتها المثيرة»، الرقصة الذائعة المهيجة، رقصة الزنوج الدينية، رقصة طرد الأرواح الشريرة. وها هي ذي تنورتها تلوّح كالإعصار، وعقودها ونهداها تثب تحت أنظار القاضي. وها هم الزنوج يرقصون بسيقانهم ومؤخّراتهم على المدرّجات المهدّدة بالانهيار. لقد بلغت حقاً «أوج حرفتها المسرحية». ونهض القاضي كي يصفّق وكأنه الملك مصفّقاً لـ «جوسيپ». وتسحب

« روزندا » من تحت تنورتها ازهاراً، وريقات ورد راحت تقذفها فوق رأس القاضي الأصلع. إنها فكرة من بنات أفكار « لويجي ». لحظة مليئة بالانفعال. لقد بلغت حقاً « أوج حرفتها المسرحية ». وعندما تنتهي الحفلة سوف يتقدم زنجي منتعلاً حذاء مطاطيّاً ويلّم إحدى هذه الوريقات التي تختزن عطر فرج « روزندا روزيدا » ويحملها فوق قلبه إلى مزارع التبغ.

ولكن ها هو ذا المهرّج من جديد: يضحك الرجال ويهدأون. ثم يظهر « لويجي » معلناً:

ـ أيها الجمهور الكريم. إن بالدو العملاق الأسود الذي تعرفونه جميعاً بالاسم يطلق تحدّياً لكل رجل في هذه المدينة لمصارعة حتى الموت. سوف تعطي الادارة جائزة مقدارها خمسة « كنتوات » للفائز ويضيف بالدو « كنتو » من جيبه.

وسرت قشعريرة في النظارة. وخرج « لويجي » ثم عاد بصحبة أنطونيو بالدوينو الذي كان يلبس فوق جسده العبل العضلات جلد نمر صغير جداً عليه كان يزعج حركاته. وشبك يديه فوق صدره وأجال في الجمهور نظرة متحدّية. إنه يعلم أن « روزندا » تشاهد ويتمنى أن يبرز أحد الرجال ليتمكن من المصارعة مصارعة حقيقية. كانت « روزندا » قد باعت بعض الصور ودخلت خيمتها لتحسب الفلوس. ولكنها قالت للزنجي إنها ستشهد المباراة. واأسفاه ليس هناك من يبدو مستعداً للمصارعة. وذكّر « لويجي » الجمهور الكريم أن رجلين سجّلا اسميهما لدى الادارة. وإذا لم يقرر أحد الصراع فسوف يصارع بالدو الدب. ولكن ما إن أنهى كلامه حتى نهض الفلاح الذي يشبه الثور ومشى بضيق إلى الحلبة:

ـ صحيحة قصة « الكنتوات » الخمسة هذه؟

وأجاب « لويجي » على مضض:

ـ إنها الحقيقة عينها.

عندها خلع الفلاح حذاءه وقميصه ولم يبق غير بنطلونه. ونظر « لويجي » نظرة مواربة إلى بالدوينو. وابتسم الزنجي ليعلن أن الأمور تسير على ما يرام. وأُحضِر فراش إلى وسط الحلبة. ورمى انطونيو بالدوينو جلد النمر ولم يكن يلبس سوى سروال داخلي قصير. كانت الندبة في وجهه تلمع تحت الأضواء. وصفق الرجال للفلاح. وتوجّه « لويجي » مرة أخرى إلى الجمهور وطلب رجلاً يعرف شيئاً عن المصارعة ليساعده في التحكيم.

وتقدم أحد مستخدمي المحلات التجارية. ها هوذا يناقش « لويجي » للحظة. وراح الإيطالي يشرح للجمهور:

ـ لن تتوقف المصارعة إلا بموت أحد المتقاتليْن أو باستسلامه.

ثم قام بالتعريف.

ـ بالدو العملاق الأسود البطل العالمي في الملاكمة والمصارعة الحرة والقتال باليدين والرجلين؛ وخصمه...

وسأل الفلاح بصوت خافت:

ـ « توتو دولا روزيت » الذي قبل التحدّي.

وتقدم أنطونيو بالدوينو فصافح خصمه. ولكن هذا الذي ظن أن المباراة بدأت هجم على الزنجي. وتدخل « لويجي » وقدم بعض الشروح وعاد كل شيء إلى نصابه. الاثنان الآن فوق الفراش يعجم كل منهما عود الآخر بالنظر.

كانت «روزندا روزيدا» واقفة في الخلف وعيناها مثبتتان على بالدوينو. لم يكن هناك خمسة «كونتوات»، ولا حتى أجر، ولكن كان هناك في نهاية القتال جسد «روزندا التي لا تضاهى» الدافىء وشعر بالدوينو بأنه سعيد. وإذا تمكن يوماً أن يصبح قائد «الجوقة» فإنه لن يحسد أحداً على شيء. وراح المستخدم التجاري يعدّ:

ـ واحد... اثنان... ثلاثة...

وهجم الفلاح على بالدوينو الذي ركض حول الفراش. وراح الجمهور يرسل صيحات الهزء بالزنجيّ. وقطّبت «روزندا» حاجبيها في وجه الناس. ولكن بالدو استدار فجأة وارسل بضربة من يده اليمنى إلى وجه «توتو». وبدا الفلاح غير متأثر وتابع ملاحقته فتلقّى ضربة جديدة. وقال بالدو في سرّه: «ليكن قتالاً باليدين والرجلين». وقلب الفلاح وراح يقرع وجهه. ولكن «توتو» أمسك بخصمه بين ساقيه وقلبه إلى أسفل، الغلبة الآن له. وعندها أدرك بالدوينو أيّ رجل يعارك. لم يكن «توتو» يحسن توجيه اللكمات، لم يكن يملك غير القوّة الضارية. وعندما نهضا أرسل الزنجيّ عدة ضربات محكمة لم يدر الفلاح كيف يتحاشاها. وبقيا يدوران على هذه الحال دورة الفراش إلى أن أمسك «توتو» الزنجيّ من حزامه ورفعه بين ذراعيه وقذفه بكل قواه إلى الأرض. ووقع أنطونيو بالدوينو ممدّداً. ثم عاد فنهض حانقاً. كان حتى هذه اللحظة يصارع بقصد الضحك، أما الآن فإنه حانق. وبطح الفلاح بضربة من رجله وتناول ذراعه وراح يلويها. وصفّق الجمهور. وأطلق الفلاح صيحة ألم وتخلّى عن المباراة وعن «الكنتوات» الخمسة. وخرج تحت وابل من الصفير وهو يمسك بذراعه التي بدا أنها كُسرت. وحيّا أنطونيو

بالدوينو وانسحب وسط عاصفة من التصفيق.

وفي الكواليس سأل «روزندا»:

ـ هل أعجبك ذلك؟

كانت عيناها نديّتين من الحماسة.

ووصل خادم يحمل لوحة كتب عليها:

«استراحة».

وخرج الرجال يشربون عصير القصب. وعزفت الجوقة فاصلاً موسيقياً.

كان «روبير» يرتدي بزة عريف، وكذلك كان أنطونيو بالدوينو ـ وكان البهلوان المتوازن الكبير آنق ما يكون بلباس العريف الفرنسي. وأما أنطونيو بالدوينو فكان مشدوداً في بزّته «المفصّلة حسب مقاس بالع السيوف الذي كان يشتغل قبلاً في السيرك. كان الزنجي منزعجاً في لباسه وعلى جنبه سيف صغير إلى درجة مضحكة. وحبّذا لو اقتصر الأمر على ذلك! كان أسوأ ما في الأمر أن «فيفي» كانت تريد المتأخّر من أجرها قبل بداية القسم الثاني الذي كان ينبغي أن تقدّم فيه المسرحية الإيمائية «العرفاء الثلاثة». ولم يكن «لويجي» قد أجرى الحسابات ولا كان يريد الدفع إلا في اليوم التالي. ولكن «فيفي» لم تكن ترى الأمر بهذا المنظار:

ـ ادفع الآن، وإلا فإنني لن أظهر على المسرح...

كانت تقوم بدور العريف الثالث؛ وكانت البزّة الرجالية تليق بها جداً على كل حال. كانت تسدّد إصبعاً مهدّدة وهي حمراء من الحنق، وكانت تصيح وتعوي إلى درجة انتهى معها «لويجي» إلى

القول مازحاً:

ـ لعمري إنك بهذا اللباس تظنّين أن الأمر قد حصل... تعتبرين نفسك عريفاً حقيقياً.

ـ ليس الوقت وقت مزاح، مفهوم؟

وعند هذا قدم «جوسيپ» متعتعاً وهو يتكلّم على الفنّ والتصفيق، وذرف دمعة. وتوسّل «لويجي» إلى «فيفي» مؤكداً لها أنه سيجري الحساب ويدفع لها هذه الليلة بالذات. ولكن كان ينبغي إكمال الحفلة. ولم يلبث الجمهور أن سُمع وهو يقرع بالأقدام. وأخذ «لويجي» ينتزع من اليأس الشعيرات النادرة التي كانت قد بقيت له. وتدخّلت «روزندا روزيدا»:

ـ يا أنتِ، لا تعكّري الصفو. لقد سار كل شيء على ما يرام اليوم...

حسناً، لقد وافقت «فيفي». لم تكن تشعر بأية رغبة في تعكير الصفو. أجل، لقد سار كل شيء على ما يرام، وكان هناك كثير من التصفيق وحشد غفير من الناس! وكان الجميع مسرورين، وهي أوّلهم. ولكن كان تحت ثوبها رسالة مديرة الثانوية. وكان على «فيفي» أن تكون قويّة، أن تلحّ، أن تصيح. لقد مرّ شهران ولم تدفع للثانوية التي تدرس فيها بنيّتها. وإن لم تدفع في مهلة أقصاها عشرة أيام فسوف تطردها المديرة. وهي لا تريد على أي حال أن ترى ابنتها في السيرك. كل شيء إلا هذا. وكان عليها أن تعرف كيف تكون قوّية. قالت هذا كلّه من غير أن تنظر إلى عيني «لويجي» الضارعتين. لقد طالما كان «لويجي» طيّباً معها، حتى أنه

ساعدها. ولكنها إن لم تلحّ فإن الأمر سيؤجّل بعد نهاية الحفلة إلى اليوم التالي، وفي اليوم التالي ستكون هناك النفقات القسرية وستأتي الصغيرة فترسو هنا. وعندها الوداع لكلّ خططها، الوداع لكل الاحلام التي هدهدتها خلال سنوات أربع طوال بذلت فيها دمها لتدفع لثانوية «القير»! لم يكن قد مرّ طويل وقت على قراءتها «القير، العذراء الشهيدة» عندما ولدت ابنتها. واليوم لم تعد تملك ما تشتري به بعض الروايات. لقد ارسلت كل ما تملك إلى مديرة الثانوية، وكان بالضبط على قدر المطلوب. ومن حسن طالعها أنه لم يبق عليها الكثير. ولكنها إن لم تعرف كيف تكون قوية، كيف تطالب بحقّها، فستكون نهاية آمالها...

...مدينة صغيرة، أصغر حتى من «فوار سانت آن». وظيفة معلّمة أطفال، ذلك صعب المنال. ولكن منزلاً في هذه النواحي لا يكلّف كثيراً. سيكون لها حديقة صغيرة أمام البيت تغرس فيها أزهاراً، قرنفلاً، وتضع فيها لنفسها مقعداً صغيراً تقرأ عليه رواياتها العزيزة ذات الأغلفة الصفراء. وسوف تعمل المدّرسة في البيت بالذات. ستقوم «القير» بتعليم الأولاد، وستساعد هي ابنتها في أعمال البيت فتطبخ وترتّب الغرف وتضع أزهاراً، قرنفلات حمراء، على طاولة المعلّمة. وستتعرّف على كل سكان المدينة. ولن يعرف أحد ما كانت ذات يوم، فنّانة سيرك، ومغنيّة في حانات، وأسوأ من ذلك في الأيام السود. ولسوف يضفي عليها الشعر الأبيض سمت سيدة عجوز طيبة محترمة. ولسوف تكون شيخوخة سعيدة. ولسوف تصنع قطعاً من الدانتيلا - هل ستظل تحسن ذلك يا ترى؟ - لجهاز الأحفاد. أخيراً سوف تحملها «القير» عندما تصبح هرمة جداً

وتمسد على شعرها، تماما كما كانت تفعل هي لصغيرتها ـ ولكن لأجل ذلك كلّه عليها أن تكون قوّية، وتبدو كأنها أمرأة شرّيرة، معكّرة صفو...

وأرت رسالة المديرة وقد تورّد خداها، وكشفت سرّها. ووضع «لويجي» يده على كتفها متأثّراً ووعد:

ـ أقسم لك يا «فيفي»«أنك ستقبضين بعد العرض. حتى ولو كان عليّ الاستغناء عن المال اللازم لطعام الأسد.

كان الجمهور يقرع بالأقدام. وأخيراً بدأت المسرحية الإيمائية. ها قد مضت ساعة وأنطونيو بالدوينو يترقّب اللحظة التي يقبّل فيها «روزندا روزيدا». لم يكن الزنجيّ يحسن دوره، فما كانت ذاكرته يوماً قويّة، وأما لحظة القبلة فقد كان يذكرها تماماً. راح يبتسم ويغمز بعينه «روزندا» التي كانت تتظاهر بأنها لا ترى شيئاً. ولكنه ما إن حانت اللحظة المشهورة حتى طبع قبلة عارمة على خدي الراقصة وهمس في أذنها:

ـ أنها لأشهى على الفم...

وحظيت المسرحية الايمائية بنجاح عظيم.

نهاية السيرك

لا بدّ أن يكون « جوسيپ » في خيمته مشغولاً بالنظر من جديد في ألبومه. وقد ذهب « روبير » إلى الحانة المحلّية ليمتّع ناظريه بامرأة معتمداً على تأثير ما استخدمه لزينته من أدهان. و « فيفي » تكتب إلى مديرة الثانوية معتذرة عن التأخّر وهي ترسل المال المطلوب عن شهرين. وعلى ضوء شمعة كانت تُرى متلألئة من بعيد في الخيمة كان « لويجي » يجري حساباته.

لماذا تستغرق « روزندا » كل هذا الوقت لخلع ملابسها ؟ إن أنطونيو بالدوينو ينتظرها مسنداً ظهره إلى باب السيرك تحت اللافتة التي كانت مصابيحها الآن مطفأة. والأسد يزأر. لا بدّ أن يكون ذلك من الجوع. هزيل هو الأسد، ليس فيه سوى العظام. والدبّ ما يزال مسروراً لأنه يشرب كل ليلة زجاجة البيرة المخصّصة له. لقد خطر لـ « لويجي » أن يستبدل البيرة بالماء. وقد ملأ به الزجاجة... ولم يلاحظ المشاهدون ذلك، ولكن الأمر لم يجز على الدبّ. فقد رفض أن يشرب وفشل المشهد. لقد ضحك بالدو طويلاً عندما روت له « روزندا » هذه القصة. ما أطول ما تنفق من الوقت في إبدال ثيابها. « روزندا روزيدا »، ما أغربه من اسم! اسمها الحقيقي لا شك « روزندا ». و « روزيدا » اختراع من « لويجي ».

إنها لمنعتقة من كل قيد وكفيلة بإدارة رأس أكثر الرجال انعتاقاً

من القيود. حسنة الكلام تروي أشياء عن «ريو»، وعن جبل «فاڤيلا»، وعن جبل «سالغويرو»، وتصف الحفلات الراقصة في «الحانات» التي هناك: «الياسمين المحبّب»، «المتغندرات في مشاقة الكتان»، «زنبقة الحب». وإن لها لطريقة أنيقة في هزّ ردفيها وهي تمشي. وعلى أنطونيو بالدوينو أن يصارح نفسه بأنه يحبّ هذه الزنجية. إنها كثيرة البهرج والغنج، وهي تتملّص دائماً في اللحظة التي يحسب المرء فيها أنه ممسك بها جيداً بين يديه، ولكنه بصراحة مغرم بها. أتراها انتهت من ارتداء ثيابها؟ ها قد أطفأت النور وسحبت باب الخيمة. وها هي ذي في ضوء القمر.

ـ كنت أنتظرك.

ـ أنا؟ حقاً، كم ينبغي على الإنسان أن يسمع...

وتنزّها. واخذ بالدوينو يروي مغامراته بينما كانت هي تصغي بانتباه. وزادت حماسته وهو يحكي حكاية هربه في الأدغال وكيف تمكّن من خرق الحصار. واستندت عليه فلامس نهداها ذراعه. قال:

ـ ليلة بديعة...

ـ ما أكثر ما في السماء من نجوم.!

ـ إن زنجياً شجاعاً عندما يموت يغدو نجماً في السماء...

ـ أريد أنا أن أرقص في مسرح كبير، حقيقيّ، مثل مسارح «ريو»...

ـ لِمَ هذا؟

ـ أحبّ الرقص. عندما كنت صغيرة كنت أجمع صور فنّاني المسرح. كان أبي برتغالياً، وكان يملك دكّان بقالة.

كان شعر « روزندا روزيدا » قد ملس بمكواة. مثل شعر امرأة بيضاء. وحتى أكثر من ذلك.

وفكّر انطونيو بالدوينو:

ـ رويدك أيتها الزنجية، إنك تروين لي ما تروين.

ولكنه إذ كان يحسّ بدائر نهديها فقد قال لها إنه لا بدّ أن يجثو المرء على ركبتيه وهو يراها ترقص.

ـ ما أشدّ ما أرغب في امتهان المسرح... كان بجوارنا رجل يعرف بواباً في « الفولي ». ولكن أبي لم يشأ. كان يريد أن يزوّجني أمين صندوق يعمل لديه، إنساناً مقرفاً.

ـ ولم تمتثلي لرغبته؟

ـ لست مجنونة، ألا تظنّ؟ لم يكن يروقني، فماذا إذن؟ برتغالي قذر... وعندها جاء « عمانوئيل ». وقال أبي إنه لا يصلح لشيء، إنه تنبل. وتلك كانت الحقيقة. لم يكن لديه حرفة. مثلك، تافه... فُتن بي ورقصنا معاً في « المحبّب »، وبعد هذا بدأت المتاعب. وعندما جاء العجوز يبحث عني كان الأوان قد فات. وثارت حفيظة العجوز بسبب البرتغالي الآخر الذي كان مغرماً بي حقاً. وقال إني ملعونة ورماني على قارعة الطريق.

ـ وماذا فعلت؟

ـ في البداية لبثنا في الجبل، أنا « وعمانوئيل ». ولكنه كان إذا تناول قدحاً رغب في ضرب النساء. ولم أتردد أنا فجمعت متاعي وهمت على وجهي. لقد عشت أياماً من الحرمان وشظف العيش. وعملت طبّاخة وخادمة في البيوت وحاضنة أطفال. ثم أدخلني مهرّج

من « ريو » المهنة. وكان يغازلني فعشنا معاً. وذات يوم تخلّفت إحدى الفنانات، فتاة إسبانية كانت ترقص وتقرع صناجات خشبية صغيرة بين أصابعها، فحللت محلّها. آه لو شاهدت ذاك النجاح... ولكنني قرفت من المهرج وبحثت عن سيرك آخر. وجئت إلى هذا السيرك. هذه هي الحكاية...

ولم يكن أنطونيو بالدوينو يدري ما يقول:

ـ كذا هي الحياة...

ـ ولكني سأنخرط ذات يوم في مسرح حقيقيّ.. زنجية؟ حسناً، وماذا بعد؟ في أوروبا زنجيّة يتهافت عليها كلّ البيض. إحدى ربّات عملي قالت لي ذلك.

وابتسم انطونيو:

ـ كأنك القمر.

ـ يا لله، لِمَ هذا؟

ـ تبدين قريبة جداً، ولكنك بعيدة جداً...

ـ ومع ذلك فأنا قريبة جداً منك...

ها هو ذا الزنجيّ يهصر قامة « روزندا ». ولكنّها تهرب إلى خيمتها.

إنه الآن في حانة المدينة. ليس المكان بهيجاً. هناك اليوم ناس بسبب السيرك. وفي الأيام العادية يذهب الناس للنوم حين تدقّ الساعة التاسعة في الكنيسة. « روبير » جالس إلى إحدى الموائد وهو في غاية الأناقة ويرنو إلى امرأة ترقص. ويجلس انطونيو بالدوينو إلى جانبه. ويسأله « روبير »:

ـ أنت أيضاً جئت للحصول على امرأة؟
ـ لا، جئت أشرب قليلاً.

هناك عدد قليل من النساء معظمهن شمطاوات. حتى التي يُتبعها «روبير» نظراته عجوز مليئة بالأصباغ. والأخريات مبثوثات في الصالة يبتسمن للرجال.

ـ لماذا لا تدعوها للجلوس؟
ـ إني مفلس.

ولكن هناك في الزاوية تجلس العذراء. لماذا، بحق الشيطان، جاءت هذه الفكرة تحشر نفسها في رأسه؟ لقد سبق لأنطونيو بالدوينو أن شرب هذه الليلة، ولكنه ليس على ما يذكر رجلاً يسكره قدحان من الروم الأبيض. ما الذي يجعله إذن يفكر أن هذه المرأة ذات الشعر السبط والوجه الشاحب عذراء؟ إنها تبدو من زاويته وكأنها لا ترى شيئاً، وأنها لا تنظر إلى أحد. لو كان «الضخم» هنا لطلب منه أنطونيو بالدوينو ان يخترع حكاية عن هذه المرأة، حكاية صبيّة تخلّى عنها ذووها فهي بلا ملاك حارس وليس لها أحد في الدنيا. ولو كان الذي هنا «جوبيابا» لطلب من «أبي القديس» أن يصنع حجاباً يؤذي به الرجل الذي يستغلّ هذه العذراء، الذي يجبرها على المجيء إلى الحانة وتناول هذه المشروبات. وينظر أنطونيو بالدوينو إلى «روبير» الذي يرنو إلى الشمطاء... من ذا يقول بعدُ إنها عذراء؟ ولكن من الواضح على الفور ان رجلاً يستغلّها. إنها في الحانة، محشورة في زاوية، ولها عينان لا تنظران إلى شيء. تفكر في إخوتها الصغار المهملين. مات الأب، والأم مريضة.

جاءت الليلة تبيع نفسها لشراء أدوية. والسبب أن أمها في حضرة الموت، بلا طبيب ولا زجاجة من دواء. كان في ودّ أنطونيو بالدوينو أن يكلّمها، أن يمنحها مالاً. صحيح أنه لا يملك فلساً، ولكنه سيسرق فلوس «لويجي». أحد مستخدمي المحلات التجارية يدعوها إلى الرقص. موسيقى تانغو. ستبيع نفسها إلى من يدفع أكثر. ولكن هل ستحسن العمل؟ لن تعرف، وستموت أمها، وسيموت إخوتها الصغار كذلك؛ الأمر جليّ على كل حال، إن لهم بطوناً ضخمة ووجوهاً شاحبة. سوف يأتي رجل فيستغلّها ويبيع جسدها الذي لم يمسسه بشر في «السوق». سيبيعها إلى الفلاحين، إلى السائقين، وسوف تموت بالسلّ مثل أمّه. ولن يكون لها حتى بنت تحترف البغاء لتؤمن لها الأدوية. ولكن أليس في الوسع القول إنها ستخرج مع المستخدم التجاري؟ إن هذا لن يسمح به أنطونيو بالدوينو. سيذهب فيسرق مال «لويجي»، المال الذي يحتفظون به لإطعام الأسد، ولكنه لن يتركها تبيع بكارتها. ها هوذا يلقي بنفسه أمام الثنائي ويوقف الشابّ من كتفه:

ـ دعها.

ـ فيم تتدخّل؟

لا تزال المرأة تنظر بعيداً.

ـ هي عذراء، ألست ترى ذلك؟ إنها تحاول الحصول على وسيلة لإنقاذ أمها التي ستموت...

ودفع الشابُّ الزنجيَّ بضربة من يده. وكان أنطونيو بالدوينو من السكر بحيث تداعى فوق إحدى الموائد. إنه يبكي مثل طفل. وقاد الشاب المرأة التي قالت وهي تخرج:

ـ ما أشدّ ما يتمسّك هذا بالاعتقاد بأنني عذراء...

وفي الحانة راح أنطونيو بالدوينو الذي ازداد ثملاً يغنّي وقد علا التصفيق وازداد، وأمسك بشمطاء «روبير» البهلوان المتوازن. وبدأ نذير العراك مع صاحب الحانة لأنه لم يكن مع أحدهما ولا مع الآخر ما يسدّدان به ثمن المشروب. ولدى عودته إلى السيرك انسلّ تحت خيمة «روزندا»، إنه لم يكن قد شرب ما شرب لأمر غير هذا.

لم يكن «لويجي» قد أنهى حساباته. وإذا كان الأسد يزأر فإن ذلك لم يكن بسبب ضراوته لأنه لم يكن أشدّ دموية من الجواد «أوراغان». إنه يزأر لأنه جائع، لأن السيرك لا يملك مالاً حتى لطعامه.

لم تكن حسابات «لويجي» لتجدي شيئاً. فها قد مرّ يومان لم يذق فيهما «جوسيپ» طعم الشراب لأنه لا يملك ثمن قطرة منه، ولأن أحداً لا يريد أن يسقيه «على الحساب». والله يعلم ما أبأس الحياة بلا شراب في نظر «جوسيپ»! لم يعرف السيرك قط الحشد الذي عرفه في اليوم الأول. وتلك الأيام الخمسة عشر في «فرار سانت آن» لم تثمر شيئاً. ففي حفلتين اثنتين استهلك السيرك جميع مشاهده، وقد رآها كل الناس. ولم يظهر الناس من جديد إلا يوم الاثنين التالي فقط: فلاّحون جاءوا لأجل السوق. ولم يكن عددهم كبيراً على كل حال، فما كان هناك مصارعة إذ لم يكن أنطونيو بالدوينو قد وجد خصماً. ولقد جهدت الإدارة في رفع الجائزة للفائز إلى عشرة «كونتوات»، و «أضاف» إليها بالدو اثنين من جيبه، فما أجدى ذلك شيئاً. إن صيت الزنجي كان قد طبقّ الآفاق في الجوار،

وما كان أحد ليخاطر بنفسه. وها هوذا الآن أنطونيو بالدوينو أمام الصالات التي خلا ثلاثة أرباعها يرقص فوق الحبل، ويصارع الدبّ الذي لا يبدي أدنى مقاومة، وينتهي بمرافقة «روزندا روزيدا» على قيثارته. لم يكن يهمّه قط إن كان هناك مال أو لم يكن.

كانت هناك «روزندا». وذلك وحده ما يهمّه. وكانت الليالي التي يقضيها معها تعوّض كل التعويض سكرات «جوسيپ» وصمت «روبير» وشكاوى «بوبول».

ولكي يتاح للسيرك السفر إلى «سانتو آمارو» بيع الجواد «اوراغان» وقسم من الألواح الخشبية. لم يكن أحد ليرغب في شراء الأسد، وكان الأسد باهظ النفقة. وذات ليلة اختفى «روبير» من غير أن يترك عنواناً. وظن «لويجي» أنه سرق القليل من المال المتبقي في الصندوق لنفقات اليوم التالي. ولكن «روبير» لم يكن قد سرق شيئاً. لا ريب أنه استقل باخرة كانت ذاهبة تلك الليلة إلى «باهيا». وتقدم رجل لمصارعة بالدوينو فكان أن سُحق من الجولة الأولى، وبفضل هذه المصارعة تمكن السيرك من الانتقال إلى «كشويرا» بواسطة شاحنتين. لقد كانوا يحتلون عندما انتقلوا إلى «سانت آن» سبع شاحنات، ثم إنهم فعلوا ذلك بفضل «لويجي» الذي رصّ كل شيء ليوّفر في السيارات. والآن فإن شاحنتين تكفيان وزيادة. وتذكّر «جوسيپ» الزمان الذي كان لهم فيه أسطول حقيقيّ للذهاب إلى فرنسا: باخرتان، وعلى الأرض: اربع وثلاثون شاحنة عملاقة. لقد شرب «جوسيپ» وكان طوال الطريق يستذكر ايام «السيرك الدولي الكبير» الحافلة. إن «لويجي» يلعب ورقته الأخيرة على «كشويرا» و«سان فيلكس». إن هاتين المدينتين متجاورتان

و « سان فيلكس » تملك مصنعي سيكار.

ها هوذا « بوبول » يقصّ على الرجل ـ الحيّة قصة حرفته للمرة المئة، والأخير لا يبالي ـ وفي الشاحنة التالية يرسل انطونيو بالدوينو و « روزندا روزيدا » قهقهات صاخبة؛ ويلتقط انطونيو بالدوينو قيثارته ويغني « سامبا » تبدأ كما يلي:

الحيـا....ة
ما كانت يوماً أجمل...

ولم تكن « فيفي » من هذا الرأي، ولا « بوبول »، وها هوذا « جوسيپ » يبكي. و « لويجي » يثور. الرجل ـ الحيّة وحده لا يبالي.

وأقيم السيرك في « سان فيلكس ». السيرك مسرح الفقير « وسان فيلكس » مدينة عمال. وتقدّم رجل لمصارعة بالدوينو. كان زنجياً، بحاراً سابقاً. وأعلنت المصارعة بواسطة الأبواق. وكان « لويجي » قد راح يفرك يديه ولم تكن تثيره أغنيات « السامبا » التي كان يردّدها أنطونيوا بالدوينـو. وطـاف المهـرّج بـالمدينـة، وتنـاقش الرجـال، وضحكت النساء. وليلة الافتتاح كان السيرك مشعشعاً في الوقت الذي أقبلت فيه الجوقة وسط الأطفـال. وكـانـت الزنجيـات يبعـن « المونغوزا » عند الباب. وجلب وجهاء القوم كراسي، وكان كثير من الناس قد حضروا من « كشويرا ». وإذا كانت الغرفة مختصرة جداً، من غير « روبير » ولا الجواد « اوراغان »، فقد أعفى « لويجي » نفسه من التقديم. وكان المشهد الأول مشهد « فيفي » التي سارت فوق حبل مشدود. ثم إن المهرج أشاع الفرح في الجمهور. وبعد ذلك رقصت « روزندا ». ولم يصحبها أنطونيو بالدوينو هذه المرة على

قيثارته لأنه عاد بالدو العملاق الأسود. وشغّلت « جوجو » القرد والدبّ. وهناك في أعلى السيرك تركت الأراجيح لأنه كان على « فيفي » أن تقدم مشهداً ثانياً لاغناء الحفلة. كانت الأراجيح تتأرجح في الهواء. وظهرت « فيفي » بتنورة خضراء فحيّت وتسلّقت. وما إن لمست الأرجوحة بقدمها حتى اخترق الحلبة بغتة طيف ببذلة مدعوكة وهو يترنّح. كان ذلك « جوسيپ ». وتبعه « لويجي »، ولكن لما كان الجمهور قد أخذ يصفّق لاعتقاده أن الرجل مهرّج: فقد تركه يفعل. وصرخ « جوسيپ »:

ـ سوف تسقط، سوف تسقط.

راح الجمهور يتلّوى من الضحك. وانتابه حمى عاصفة عندما أعلن:

ـ لسوف أنقذ الصغيرة المسكينة.

كان الأوان قد فات للإمساك به. وصعد إلى الحبل برشاقة ما كان أحد يصدق أنه جدير بها وحلّ الأرجوحة الثانية. وكانت « فيفي » تنظر من الجهة الأخرى وقد ثار جنونها ولا تدري ماذا تفعل. ولم يكن الجمهور يدرك شيئاً من الأمر. وصعد « لويجي » وخادمان بدورهم إلى الأرجوحة. وتركهم « جوسيپ » يقتربون، وحين شعر أنهم قريبون جداً منه حلّ الأرجوحة وقذف بنفسه في الفضاء وقام بأجمل قفزة مميتة حقّقها طوال حرفته في حين كانت يداه الهرمتان المسكينتان تحاولان الإمساك بالأرجوحة الأخرى. وإذ كان ممدّداً على أرض الحلبة كانت يداه المكتئبتان ما تزالان تبحثان عن الأرجوحة الأخرى وتبدوان وكأنهما ترسمان إشارة الوداع.

وأغمي على بعض النساء، وهرع بعض الناس إلى الباب، وبعضهم الآخر تحلّقوا حول الجثمان. وكانت اليدان الهرمتان تبدوان وكأنهما ترسمان إشارة الوداع.

شتاء

لقد غسل الشتاء كل شيء. غسل حتى بقع الدم التي كانت قد بقيت في المكان الذي خُصّص للحلبة. وباع «لويجي» ألواح المدرجات والستارة والقرد لألماني من أصحاب المصانع ووزّع المال على موظفيه وأعلن تصفية السيرك.

وبقسمة الأشياء التي لم ينجح «لويجي» في بيعها كان الدبّ من نصيب انطونيو بالدوينو و «روزندا». حتى أن هذه الأخيرة لم تتنبه إلى أنه كان هناك ترتيب مسبّق بين «لويجي» وبالدو. وقد قال لها الزنجي:

ـ ليس هناك إمكان لقسمته. وأما بيعه فليس هناك من يدفع فيه عشرين فلساً.

ـ ماذا نفعل إذن؟

ـ نأخذه إلى «باهيا». عندي شبه فكرة أن هناك وسيلة لكسب بعض المال به في سوق «اغوا دي مينينوس».

وأردفت «روزندا»:

ـ أو في المسرح.

ـ أيضاً؛ وافق الزنجي الذي لم يكن ينوي أن يناقش.

وعلما في المرفأ أن السفينة المساحلة التي يملكها «المعلّم مانويل» ستصل بعد يومين على الأكثر. وانتظرا «المسافر بلا مرفأ» ولكن

الشتاء كان مخيماً على النهر. وكانت أمطار غزيرة تسوّد صفحة المياه. وكان النهر الفائض يجرّ جذوع أشجار مقتلعة من المزارع، وجثث حيوانات. وقد رؤي حتى مرور باب انتزعه التيار من أحد البيوت. واختفت رؤوس الصخور ولم يعد الناس يخوضون المياه ليصطادوا السمكة المطلوبة لغدائهم. كان النهر خائناً يزمجر وكأنه وحش. وكانت جماعات من الناس تتلكأ لرؤيته من فوق الجسر، وكان يمرّ تحت وكأنه أفعى. ومن أعلى كانت تترامى رائحة التبغ العذبة. لقد سبق للنهر أن ابتلع سفينتين مساحلتين هذا الشتاء. وكان في أحد المصانع عاملة تلبس ثياب الحداد.

إن زخّات كبيرة من المطر تتساقط أثناء الليل. وعليه ما كان لـ «روزندا روزيدا» أدنى حق بالخروج هذه الليلة من نزل «دونا ريموندا» أو باختراع حكاية النزهة تلك. لا بدّ أنها ذهبت إلى «كشويرا». إن ما كانت تريده هو ابقاؤه هنا كالأبله بحجّة حراسة الدب الثائر الأعصاب بفعل المطر المتساقط على السطح وضجة النهر ورائحة التبغ. الحق أنه لا يمكن تركه وحده. ولكن ما سبب هذه النزهة الليلية؟ إن أنطونيو بالدوينو يقرع الطاولة بقبضته. إذا كانت تعتقد أنه مغفّل لا يفهم فإنها مخطئة. إنها تتصور أنه لم يلاحظ ذلك الألماني الذي يتبعها في كل مكان منذ المساء الذي مات فيه «جوسيپ». إنه لم يفارقها قط وهو يسعى طوال الوقت لفتح الحديث. كاد أنطونيو بالدوينو يستجوبه مرتين، يسأله ماذا يريد.

إن المرأة تعرف كيف تمنعك ان ترى بوضوح إذا ارادت. ولكنه ليس أعمى، إنه يدرك الآن المكيدة. لقد خرجت لتلقى ذلك الأبيض. ينبغي أن يكونا معاً في مكان ما، وهي الآن تفتح له

فخذيها. القذرة! هي مثيرة بالتأكيد، ولكنه ليس مخلوقاً يدع الناس يخدعونه بهذه السهولة. لقد طالما تبجحّ بأنه يتخلى عن عشيقاته، وها هي ذي « روزندا » تريد الاستهزاء به. أين يمكن أن يكونا يا تُرى؟ أيتّفق أن يكونا قد ذهبا إلى الفندق؟ ممكن لأن « الخواجة » يملك مالاً. سوف يلتقطها ويلقّنها درساً. المطر ينهمر على السطح. هل يستأهل الأمر الخروج للبحث عنها؟ ربما كان من الأفضل البقاء في الداخل وإقفال باب الغرفة. لتذهبْ وتنمْ في الشارع. ولكن ما كادت تخطر له هذه الفكرة حتى شعر بمدى اشتياقه إلى جسد « روزندا » الممشوق الدافىء. ثم إنها حين تضاجع يُخيّل أنها ترقص. إنها تُحسن ذلك بشكل عنيف! ويبتسم أنطونيو بالدوينو. الليل بارد والمطر ينهمر بعنف. وتكوّر هرّ كان يبحث عن الدفء عند ساقيه. السرير قديم ولكنه ناعم على كل حال. الفراش جيّد ولا يمكن العثور على مثله في كثير من البنسيونات التي هي أغلى من هذا. و « روزندا » في أيّ طراز من السرر هي مع صاحبها؟ ربما كان الفراش خشناً. إنها تستأهل الضرب، هذا كل شيء، وهو لن يقتل الآخر لأجل مومس مثل « روزندا ». لقد طعن « زيكينيا » بسكينه، ولكن « ارميندا » كانت صبية في الثانية عشرة لا تعرف من الحياة شيئاً. وذلك الزنجي الذي حكم عليه منذ أيام بالحبس مدة ثمانية عشر عاماً، لقد قتل « خواجة »، ولكنّ « مارييت » كانت خطيبته وكانت عذراء. ما يجب فعله هو ضرب الألماني وحبس « روزندا ». ولكن ما أشدّ البرد! ووضع الهرّ عند عنقه. الحيوان مسرور وهو يفرك رأسه بجسده. لن يخرج قط للبحث عنها. الدب ثائر. قد يكون خائفاً من المطر وقد يكون أسِفاً على أحدهم. ولكن أيمكن أن يأسف دبّ؟...

المسكين! منذ متى لم ير أنثى؟ إن أنطونيو بالدوينو لا يستطيع قضاء أسبوع من غير امرأة (انتابته ضحكة رضا). ربما كان مخصياً. يجب فحص ذلك. وتراجع الدبّ الهائج. ليس مخصياً ولا هو فحل... إنه أنثى، تلك هي القصة. ما الذي سيفعله به في «باهيا»؟ فكرة: يتركه على جبل «شاتر نيغر». سيظنه الناس إنساناً متوحشاً. المطر يتضاءل. ها هوذا ينهض. سيذهب للبحث عن «روزندا». ودفع الهر بعيداً. ولكن ها هي ذي «روزندا روزيدا» تدخل جذلى بضحكة كشفت عن اسنانها البيضاء.

ولاحظت على الفور غضبة أنطونيو بالدوينو، فاقتربت منه ضاحكة:

ـ غضبان يا حبيبي؟ إنه الدّب؟

ـ لا تتغابيْ. تظنين إذن أني لا أعرف أنك ذهبت للقاء «الخواجة»؟

ـ أي «خواجة»، يا إلّهي؟

أتكون الدهشة التي أبدتها على وجهها صادقة؟ بالدوينو يفكر أن المرأة حيوان غادر وكذاب. وفي كل مرة يفكر فيها على هذا الوجه يتذكر «آميلي» خادمة الكومندور. كانت «آميلي» تكذب بوقاحة وهي تبدو وكأنها بصدد قول اعظم حقيقة في العالم. وبهذه الهيئة البريئة. إن «روزندا» قادرة تماماً على أن تختلق له الأقاصيص.

ـ أين كنت إذن؟

ـ ألا يمكن حتى الذهاب للثرثرة مع جارة؟

ـ جارة...

ويزداد نفاد صبر الدبّ. ولم يعد (أنطونيو بالدوينو يشعر قط بالرغبة في المناقشة. إنه مستعدّ لقبول كلّ التفسيرات. كلّ ما يريده هو التمدّد على الفراش الوثير بجانب جسد «روزندا» الدافىء. عاد المطر يهطل بغزارة وينساب على القرميد. وفي وسط الغرفة ميزاب يحفر حفرة في الأرضية الترابية المطروقة. الدبّ يدور حول سلسلته. و «روزندا» تمسكه وتُمرّ يدها على وبره من غير أن توفّق إلى تهدئته. إن مداعباتها لا تجدي شيئاً. ويبحث أنطونيو بالدوينو الممدّد على السرير عن سبيل لإصلاح شأنه معها. إنه لا يستطيع إصلاح شأنه هكذا بغتة. إنها غضبى، وهي تقوم بمداعبة الدب. وهو يتساءل كيف يفعل. واغمض عينيه، ولكنها لم تقترب من السرير. مع أن المطر يتساقط في الخارج، والريح تمرّ في الشارع وهي تصفر، وتدخل من خصاص الباب. إنها لدعوة: كيف لا تشعر بها؟ إنها غاضبة تماماً... قد لا تكون مخطئة. فماذا لو كانت حقاً عند الجارة؟ وخلعت ثوبها. والثوب ليس مبتلاً. لو كانت قد ذهبت بعيداً، لو كانت قد ذهبت مع الرجل لكانت ابتلّت بالتأكيد. لقد بدأ يتضجرّ لطول بقائه وحيداً. وتكوّر الهرّ عند قدميه وأحدث دفئاً لذيذاً. ولكن سائر الجسد نهبٌ للبرد. المطر يهطل على السطح. إنه يتذكر ابياتاً من الشعر يعرفها «الضخم»، ابياتاً تتحدث عن موسيقى المطر على السطح وعن امرأة تصل في الفجر. هو لا يذكر بالضبط إن كانت قد وصلت راجلة أو راكبة حصاناً. ها هوذا قميص «روزندا روزيدا» يسقط الآن وثديا الزنجية يملآن الغرفة. لم تعد عينا أنطونيو بالدوينو تريان شيئاً آخر. ورمى سيكارته. وبذل جهداً ضخماً ليقول:

ـ أتعلمين أن الدبّ دبّة ؟
ـ ماذا ؟
ـ أجل، إنها أنثى.

وأقبل الثديان يتدحرجان فوق صدره. وفي إطار المطر والبرد والريح المزمجرة في الشارع كانت « روزندا »ترقص له وحده. ودفع بقدمه الهرّ الذي خرج وهو يموء.

دخل « المسافر بلا مرفأ » تحت الوابل. وها هي ذي « ماريا كلارا » تحضّر لها القهوة. سيذهبان عند هبوط الظلام بعد أن ينتهي تحميل متاعهما. الدبّ مربوط إلى الركيزة. و « المعلم مانويل » يروي أخبار « الضخم » الذي عاد إلى بيع الصحف والذي دفن جدّته. « جوبيابا » ما زال حياً يرزق ومستمراً في ممارسة الشعوذة وترؤس حفلات طرد الأرواح الشريرة. و « يواكيم » يُرى كل يوم في « مصباح الغرقى » بصحبة « ذي لاكروفيت ». ويتسقّط انطونيو بالدوينو أخبار جميع معارفه، كذلك أخبار المدينة والمرفأ والسفن القادمة والمغادرة. إنه يعود إلى سرّ البحر. كان قد نسي الضحك عند ما هرب بعد الضرب المريع الذي تلقّاه من رجل من « البيرو » اسمه « ميغيز ». كان رأسه محشواً بقصص « جوبيابا »، وبالخجل من أنه ضُرب، وبنهاية حرفته ملاكماً، وبخطبة « لندينلفا » والآن عاد فتعلم الضحك، ولسوف يستمتع ولا ريب بقصص « جوبيابا » المأسوية. والسبب أنه رأى كثيراً من البؤس طوال السنتين اللتين انقضتا على غيابه. إن في ضحكته الآن رنة عاتية، وفي وجهه ندبة، تلك التي احدثتها الاشواك في الليلة التي كان محاصراً فيها في الادغال. و« المعلم مانويل» يريد أن يعرف حكاية هذه الندبة.

و « ماريا كلارا » تراقبه من وراء الركيزة. وأنطونيو بالدوينو يقصّ وهو غارق في التفكير بالبحر والرافعات عند الأرصفة والسفن السوداء الذاهبة ليلاً.

لقد دخل « ڤيرياتو » البحر في ليلة عاصفة شبيهة تماماً بهذه الليلة. واجتاحت السرطانات الصغيرة جسده وكانت تضجّ فيه وكأنها جلاجل. و « سالوستيانو » العجوز كان قد بحث أيضاً في البحر عن طريق المنزل. والمرأة التي رمت بنفسها في الماء وفي عنقها حجر؟ إن السفينة المساحلة تترجّح على الماء. في الذهاب راودت أنطونيو بالدوينو رغبة عارمة بأن يقذف بها إلى الصخور. أما اليوم فإن أحداً لا يراها تبرز، تلك الصخور. لقد غمرت المياه كل شيء ولن يتخلّى « المعلم مانويل » عن الدفّة لأحد.

ما كان أسرع ما ينقضي الأمر. كانت السفينة تصطدم بصخرة وتتوقّف « ماريا كلارا » و « روزندا روزيدا » عن الثرثرة معاً. إن شعر « ماريا كلارا » المشعّث يتطاير مع الريح وتفوح منها رائحة كرائحة البحر. قد لا تكون قد سكنت بيتاً أبداً، وربما كانت بنت البحر. ولسوف ينطفيء غليون « مانويل ». ولسوف تبتلع مياه النهر كل شيء. إن للنهر أمواجاً كأمواج البحر. والريح تعصف بالأشجار على الضفّتين. وبعيداً جداً يلتمع قنديل سفينة مساحلة أخرى. والريح تجرّ الزورق الذي يطير فوق المياه. وهم في هذه اللحظة، في هذه العاصفة، قاب قوسين أو أدنى من الموت. ضربة سكّان غير سديدة ويرتمون على الصخور الكبيرة غير المرئيّة. هذا ما كان أنطونيو بالدوينو يفكر به وهو مستلقٍ على ظهره. لا نجم في السماء، لا شيء سوى غيوم داكنة ثقيلة تدفع بها الريح أمامه. و « ماريا

كلارا » تنشر رائحة كرائحة السمك الطازج. البحر قريب. وها قد بلغوا مدخل المصبّ. وتبتعد ضفّتا النهر شيئاً فشيئاً إلى الوراء، وتنـام القرى بلا أضواء. ويقول انطونيو بالدوينو لنفسه إن الحياة في آخر الأمر ليست عجيبة وأنها لا تستأهل أن تُحيا. لقد كان « ڤيرياتو القزم » يعرف ذلك حقاً. وطريق البحر واسعة. واليوم هي واسعة ومضطربة. ومتن البحر الأخضر مترجرج. إنها دعوة أخرى أيضاً. وهو الزنجيّ الشجاع الحازم، يحلم منذ صباه بأن تكون له أغنية تحكي للزنوج الآخرين حكايته الحافلة بالمآسي. ولكن لو ابتلعت المياه الآن جسده فلن يترك وراءه حكاية. فالزنجي الشجاع لا يقتل نفسه إلا للخلاص من قبضة رجال الشرطة. وما زال أمام رجل في العشرين شوط من الحياة طويل ومقدار من الكفاح كبير ليستحق أن تكون له حكاية. ولكن البحر دعوة لبقة: وها هي ذي الطريق إلى المنزل. إن « ماريا كلارا » تحكي عن البحر، وتخبر عـن مغـامـرات حـدثـت لأرباب سفن مساحلة، وتقصّ قصص غرق وموتى. إنها تتحدث عن أبيها الذي كان صيّاداً واختفى على ظهر فلوكة في يوم عاصف. إن رائحة البحر لتنبعث منها. ففيها البحر ماثل أبداً صديقاً وعدوّاً، وفيها تجسّد البحر. وأما هو، أنطونيو بالدوينو، فإنه لا يجسّد شيئاً. لقد عمل في كل شيء وليس شيئاً. هو يعرف أنه يكافح وأن عليه أن يكافح بعدُ أكثر. ولكنه يرى كل ذلك وكأنه يراه في ضباب. والمعركة التي يخوضها خاسرة سلفاً. إنه يشعر بأعصابه تخور وكأنما يضرب بقبضتيه في الفضاء. وفي هذا الوقت يدعوه البحر كما كانت تدعوه في الذهاب شفتا « ماريـا كلارا ». وقـام « المعلم مـانـويـل » بحركة. فمن بعيد ظهرت أضـواء « بـاهيـا ». والريـح تطير حـول

رؤوسهم. وتحمل كلّ عطر البحر الموجود في جسد «ماريا كلارا». ها هي ذي أضواء «باهيا» تتلألأ.

أقامت «روزندا روزيدا» في منزل «الضخم». وفي الليل حضر «جوبيابا» فقبّلوا يده. وقرفص الزنجيّ العجوز في زاوية. وسطع نور السراج على وجهه المتغضّن. الجميع يصغون إلى قصص أنطونيو بالدوينو. والدبّ نائم في زاوية. لقد قرّروا أن يذهبوا جميعهم غداً إلى سوق «أغوا دوس مينينوس» فيحاولوا كسب بعض المال بتشغيل الدبّ. ونزلوا إلى «مصباح الغرقى» حيث سكروا. وبعدها قاد أنطونيو بالدوينو «روزندا» على الرمل. إنها تشكو أن الرمل يخدش جلدها ويدخل في شعرها المملّس بالمكواة. ويضحك بالدو ملء قلبه. وعلى الرصيف كانت الرافعات تعكس ظلّها.

تبدأ سوق «أغوا دوس مينيـنوس» مساء السبت وتستمرّ حتى ظهر الأحد. ومساء السبت هو أفضل وقت. فالزوارق ترسو في «مرفأ الخشب»، والسفن المساحلة مربوطة في الميناء الصغير، ويأتي أناس يقودون حيوانات محمّلة، والزنجيّات يأتين لبيع «المنغو» والرزّ بالحليب. وكانت الحافلات الغاصّة بالركاب تمرّ قريباً جداً. وكل الناس ذاهبون بها إلى سوق «أغوادوس مينينوس»؛ بعضهم لشراء مؤن الأسبوع، وبعضهم للنزهة أو لأكل «السراپاتيل» أو للعزف على القيثارة أو لالتقاط إحدى بنات الهوى. إنه عيد زنج حقيقيّ، أي عيد فيه موسيقى وكهانات رخيصة وضحكات وعراك. وكانت أكواخ الصفيح مرصوفاً بعضها بجانب البعض، ولكن ليس في أكواخ الصفيح يتمّ العثور على أكثر الأشياء وإنما في الخارج في سلال كبيرة وعلى أفرشة من القشّ وفي صناديق. فهناك أناس من الريف جالسون

إلى جانبها يعتمرون قبّعات واسعة من القشّ ويديرون مع زبائنهم أحاديث عامرة بالحركة والنشاط. هناك من كل الأصناف في هذه السوق: جذور « ماكاشيرا » و « إينام »، وتلال من الأناناس والبرتقال والبطيخ، وجميع أنواع الموز. وكان هناك قارىء طالع تحفّ به ببغاء يتقاضى من الناس أربعة فلوس ليقرأ لهم البخت. وسحبت « روزندا روزيدا » ورقة كان مكتوباً فيها ما يلي:

مصير

لا تثقي بمن يتملّقونك إذ كل ذلك زيف. ما زلت على قدر من السذاجة للحكم على الآخرين بنفسك. قلبك طيّب ولا ترغبين في رؤية خبث الآخرين. وليس هذا كله خطراً لأنك ولدت تحت طالع ميمون. وسيكون شبابك سلسلة متصّلة من الغرام تسبّب لك كثيراً من المشكلات. وستكون النهاية زواجاً بشابّ لا تحفلين به كثيراً في أول الأمر ويكون بعد أن ينجح في غزو قلبك الإنسان الوحيد الذي تحبّينه مدى الحياة بعاطفة حقيقية. وسوف تنجبين ثلاثة أطفال جميلين تربيّنهم بعناية فائقة ويحملون إلى قلبك السلام الحقيقي.

سوف تعمرين ٨٠ سنة، وستربحين في اليناصيب الورقة التي تحمل الرقم ٤٥٥٤. (س. أ. و.).

كانت « روزندا » تضحك. ونبهها انطونيو بالدوينو: « سوف تلدين ثلاث مرات ».

- سبق أن أخبرتني غجريّة أنه سيكون لي ثمانية أولاد وأني سأقوم برحلة كبرى. في هذا لم تكن مخطئة: هذه الرحلة قمت بها لأنني جئت من « ريو » إلى « باهيا ».

أما انطونيو بالدوينو فقد كان يفكر في أثناء ذلك بـ « سلسلة الغرام المتصلة » و« المشكلات » التي ستسبّبها. إن حبّه لهذه المرأة عابر ولا شكّ. لكأنها تفاهمت مع الأب « جوبيابا » ليسحره. ولم يوفق

« جوبيابا » بعد، وما زال الأمر مبكراً جداً بشأنه. يوم السبت هو اليوم الذي يأتي فيه كثير من الناس لاستشارته. وفي صبيحة الأحد تعجّ الشوارع بالسائلين. فالأب « جوبيابا » يحمي أمور العشق ويضع حداً لقصص الحب ويقتلع امرأة من مخيلة رجل. إنه يعرف أسرار الأغنياء كما يعرف حياة الفقراء، فما الذي لا يسمعه في كوخه بجبل « شارتر نيغر »؟ سوف يعود فيما بعد متوكئاً على عصاه. لقد عالج كثيراً من الناس وسوّى كثيراً من الأمور! وأمّا « الضخم » فلا بد أنه وصل مع الدبّ. إن انطونيو بالدوينو أليق من أن يكدّر له حياته. لقد كان قرير العين، وكان يبيع صحفه؛ أجل، وها هوذا بالدوينو يصل ويقحمه في حكاية أخرى. وعندها يترك صحفه ويلحق بصديقه. ثم ينتهي الأمر بغتة ويعود « الضخم » إلى النداء على صحفه بصوته الحزين الجهوريّ. إنه الآن يصطحب الدبّ إلى كل حدب وصوب. كان في البداية خائفاً منه. ثم ألفه، والآن وقد ماتت جدّته فإنه نقل عطفه وحنانه جميعاً إلى الدبّ الذي يجد دائماً ما يأكله بوفرة حتى ولو وجب أن يشدّ « الضخم » حزامه. الدبّ مربوط من خطمه على أهبة الاستعداد لكسب قوته. ويتجمّع الريفيون حول « الضخم » الذي يلفّق حكاية عن الدبّ. ليس هناك سوى عقبة صغيرة: أيمكن أن يكون لدبّ ملاكٌ حارس؟ إنه لم يسمع بذلك قطّ. ولكن القصص التي تخلو من الملائكة لا سحر لها، و« الضخم » عازم على تزويد الدبّ بملاك. ولكن هاهوذا بالدوينو يصل ويأخذ في ترداد الكلام المنمّق الذي كان يقوله « لويجي » بشأن الأسد:

ـ أيها الجمهور الكريم، إن الوحش الذي ترونه أمامكم قد أُسر في غابات أفريقيا. إنه قاتل ثلاثاً، فقد سبق أن قتل ثلاثة مروّضين

مشاهير (انه يتذكر كلمة كلمة الكلام المنمّق الذي كان يردّده «لويجي» في كل مرة). إنه قاتل. ولكنه سوف يعمل رغم ذلك، وكل إنسان يستطيع التفرّج عليه شرط اتخاذ الاحتياطات. لا تنسوا أنه سبق أن قتل ثلاثة رجال.

وينظر «الضخم» إلى خطم الدب ويكتشف أنّ له عينين صافيتين كعيني غلام وأنه عاجز عن قتل أيّ كان. ليس من العدل أن ينعته بالدوينو بالقاتل. ولكن الدبّ يجول منكّس الرأس وتتّسع الحلقة حوله. و«روزندا» تقرأ في أكفّ الرجال. وهم يحبّون ذلك لأنها تدغدغهم دغدغة عجيبة تصيبهم برعدة خفيفة. إنها تحسن ذلك لكسب المال. وتقول لخلاسيّ متشوّف:

ـ هناك فتاة مجنونة بحبّك.

ويبتسم الخلاسي لـ «روزندا». قد تكون هي بعد كل حساب. وتضع جانباً قطع النقود التي راحت تتراكم. ويجمع «الضخم» تبرّعات المتفرّجين في قبعة القشّ التي كان يعتمرها. ويأخذ النشاط في الجوار يتزايد ويتصاعد.

حفلة راقصة زنجية

يقع نادي « حرّية باهيا » في شارع « كابيسا » في طبقة ثانية يُرتقى إليها بدرج ضيّق. إنه صالة واسعة صفّت حول جدرانها كراسي للسيدات مع منصّة مخصّصة للجوقة الموسيقية. وبجانبها فناء من الاسمنت مليء بالموائد ؛ هنا يقدّم الشراب لأنّ تناوله ممنوع منعاً باتاً في صالة الرقص. والغرفة التي ترتّب فيها السيدات شعورهنّ صغيرة ولكن فيها مرآة كبيرة ومقعداً للجلوس بالإضافة إلى مشط وحُقّ من الدهن الملمّع. وفي أيّام الحفلات الراقصة الكبرى عند اقتراب الكرنفال أو أعياد « بونفان » تُزيَّن الصالة بازهار وشرائط ورقيّة من جميع الألوان.

أما اليوم فإنه عشيّة عيد القدّيس حنّا ؛ وقد أضيف إلى الزخرفة بالونات وقرب منفوخة بالهواء ومدلاّة من السقف. لسوف يحتفل بعيد القدّيس حنا احتفالاً طنّاناً. إن لـ « حرية باهيا » تقاليد يتمسّك بها ، وستجتذب حفلته الراقصة في حزيران بالتأكيد جميع خدم البيوتات الثريّة ، وجميع الخلاسيّات اللواتي يبعن الحلوى في الشارع ، وجنود الشارع التاسع عشر ، وكلّ الزنوج المبعثرين في أنحاء المدينة. إنها أشهر الحفلات الراقصة الزنجيّة. وليس هناك كثير منها في « باهيا ». فالزنوج يفضّلون الذهاب إلى حفلات طرد الأرواح الشرّيرة ليرقصوا رقصة القدّيسين الدينيّة ولا يذهبون الى الحفلات الراقصة إلا أيّام الأعياد الكبرى. وقد نجح « حرية باهيا » في تأمين

دعم « جوبيابا » الذي يشغل فيه منصب رئيس الشرف، وهكذا لم يلبث أن ازدهر. وهو بالإضافة إلى ذلك يملك جوقة موسيقيّة شهيرة تألّفت محلّياً ولكنها تكسب الآن المال بالعزف في الحفلات. فليس من حفلات عند الأغنياء من غير « فرقة الكنارات السبعة لموسيقى الجاز ». حتى إن الموسيقيين يرتدون في هذه الأيام بدل السموكن. ولكن أكثر عملهم في « حرية باهيا ». ولن تذهب الفرقة للعـزف في مكان آخر لقاء الذهب ولا لقاء الفضّة في الأمسيات التي يقيم فيها « النادي » حفلة راقصة. فهنا يرقص أفرادها أنفسهم ويلبسون كيفما اتفق فهم بين أصدقاء، حتى أن هناك خطباً تلقى. وعلى « حرّية باهيا » أن يحضّر بجدّ لحفلة عيد القدّيس حنا الراقصة لأنه في أوج شهرته وله تقاليد ينبغي أن يحافظ عليها.

كان أنطونيو بالدوينو في كل مرة يرى فيها « فرقة الكنارات السبعة للجاز » يحلم بأن يقود هو أيضاً جوقة عادية أو فرقة جاز.

لقد مرّ وقت طويل دون أن يصنع أغنيات « سامبا ». فالحق أنه لم يكن قط يملك الوقت لذلك في مزارع التبغ. ولكنه ما إن وصل إلى « باهيا » حتى ألّف اثنتين غُنّيتا حتى في الإذاعة، وأحسن من ذلك أنه ألّف حكاية « زومبي دي بالمييه » التي قصّ فيها حياته كما تخيّلها. فحسب حكايته كان « زومبي » قد وُلد في افريقيا وقاتل الأسود وقتل بعض النمور. وذات يوم خدعه البيض فركب سفينة قادته عبداً إلى مزارع التبغ. ولكنه لما كان لا يحب أن يُضرب فقد هرب وقتل بعض الجنود بعد أن تحالف مع زنوج آخرين، وأخيراً رمى بنفسه من فوق جبل كيلا يؤسر:

يا أفريقيا التي رأيت فيها النور

إني اذكرك جيداً.
فقد عشت حراً أرتزق من صيدي
آكلاً الأثمار والكسكسي.
يا غابات النخيل التي حاربت فيها
لقد ناضلت العبوديّة
وجاء ألف شرطيّ
فلم يرجع واحد منهم.
بعد هذه الكلمات ألقى «زومبي دي پالمييه»
بنفسه من قمة الجبل وهو يقول:
«وداعاً يا شعبي، إني أموت
لأني لا أريد أن أكون عبداً....»

وسرعان ما حفظ «الضخم» الأغنية عن ظهر قلب وأخذ ينشدها في الأعياد بمصاحبة القيثارة.

وبحث انطونيو بالدوينو عن الشاعر الذي اشترى منه مقطوعات من «السامبا» ليرى ما إذا كان يريد الأغنية أيضاً. ولم يرغب الشاعر فيها قائلاً إنها لا تساوي شيئاً، وإن ابياتها سقيمة، وذكر كومة أمور أخرى لم يفهم منها بالدوينو شيئاً. وغضب الزنجي لأنه كان يرى أن أغنيته ناجحة جداً، وبعد أن قبض ثلاثين «ملريساً» ثمن مقطوعتي «السامبا» قال بعض الكلام الجارح للشاعر الذي أمسك عن الردّ. وإذ هدأت نفس انطونيو بالدوينو ذهب وغنّى أغنيته لـ «روزندا» و«جوبيابا» اللذين وجداها مدهشة. واتفق «جوبيابا» مع «جيروم» كتبيّ السوق لنشرها في «مكتبة الشعب» (مختارات من افضل قصائد «السارتاو»، ومقطّعات شعبية،

وقصص، وأغانٍ، ومحفوظات، وأدعية، ووصفات نافعة، ونوادر، الخ... السعر: عشرون دانقاً). ونشرت في العدد الذي نشرت فيه «قصة الثور العجيب» و«كابوكل والرضيع»، وسرعان ما حفظها حمّالو أرصفة الميناء عن ظهر قلب وأصحاب السفن المساحلة الذين علّموها لعميان مدن «ريكونكاڤو» وللصبية الأشرار في العاصمة، ولكلّ الزنوج في نهاية المطاف. ولم تكن تدور في خلد أنطونيو بالدوينو الآن سوى فكرة واحدة: الدخـول في «فـرقـة الكنـارات السبعة للجاز».

لقد كان عضواً في نادي «حرّية باهيا» ولكنه لم يكن يتردّد عليه كثيراً، فلم تكن تنقص الاحتفالات التي يمكن حضورها، ثم إنهم لا يقدّمون الطعام في النادي والشراب يدفع ثمنه. وكان ينبغي أن تكون هناك امرأة تجرّه إلى «النادي». وكان «جوڤنسيو» السكرتير لايني يقول له في كل مرة:

- يبدو أنك قرّرت أخيراً يا بالدوينو أن تضفي هذا الشرف على «النادي»! لكأنما تزدرينا.

لم يكن في الواقع يزدري أحداً. ولكن كان يحظّر في «حرية باهيا» أن يرقص المرء ملتصقاً بمراقصته، ويمنع أن يبقى للثرثرة معها في وسط الصالة، ولم يكن يقبل دخول الناس الذين أثملهم الشراب. كلّ ذلك لم يكن يلائمه. إنه يذكر جيّداً المرة الأولى التي دخل فيها «النادي»، وكان ذلك من زمن بعيد. فما كاد يصل حتى تشاجر مع «جوڤنسيو». فقد كانت موسيقى الجاز محمومة حماسة وكان النغم الذي يعزف، وياللصدفة، إحدى مقطوعات «السامبا» الاولى التي باعها للشاعر. ودعا «ايزولينا» للرقص، وهي زنجية كان يتودّد

إليها في ذلك الحين. وأخذا يرقصان وراح بالدو يشدّ المرأة إليه. وكان ذلك كافياً لجعل « جوفنسيو » يتدخّل لأنه كان دقيقاً جداً في تطبيق قواعد اللياقة.

ـ ليس هذا مسموحاً.

ـ ما ذاك الذي هو غير مسموح؟

وألصق بالدوينو يده بوجه السكرتير. ونشب عراك فاضطرّ « جوبيابا » للوقوف بين المتعاركين لفصلهما. وأوضح « جوفنسيو » أن من واجبه الدفاع عن أخلاقية النادي. ولو سمح بالشغب لاستنكفت العائلات عن المجيء، ثم ماذا يقول ذوو البنات المستقيمات اللواتي يُعهد بهنَ إليه؟ لأن يتسلّى الناس فالأمر لديه سواء. إنه لا يتدخل في حياة الآخرين. وأما داخل « النادي » فإنه يريد الحشمة. إن هذا ليس ماخوزاً وإنما هو مجتمع أناس يروّحون عن أنفسهم ويرقصون. بالضبط. ووجد انطونيو بالدوينو أنه على حق فصالحه واستمرّ في الرقص والشرب. وكان« الضخم »قد جاء هو الآخر مصادفة فمرحا بلا حساب. ولكن في حوالي الساعة الواحدة صباحاً أخذ صفّ ضابط في الجيش يقوم بحركات فاضحة مع امرأة بيضاء. وأرسل « جوفنسيو » احتجاجاً أول، ولكن الرجل لم يأبه له. وكرّر مرة أخرى، وفي المرة الثالثة أعلن لصفّ الضابط أنه لا يمكنه الاستمرار في الرقص. ودفع صف الضابط « جوفنسيو ». وتدخل انطونيو بالدوينو فشدّ أزر « جوفنسيو » وألقى أرضاً خصمه الذي خرج صاغراً وهو يكيل التهديدات. وبعد ذلك ذهب بالدو لشرب زجاجة بيرة مع السكرتير. وفي هذه اللحظة عاد صف الضابط وبصحبته زمرة من الجنود. وحدثت مشاجرة خبيثة وتبودلت

الضربات. وحدا الأمر ببعض الناس إلى الاختباء في دورات المياه، وذهب الجنود إلى حدّ إطلاق بعض العيارات النارية. وانتهت الحفلة ببعض الرؤوس المفضوخة والقبض على بعض الناس. ونجح انطونيو بالدوينو بالهرب. ومنذ ذلك الحين غدا مشهوراً في « حرّية باهيا »، وعندما كان « جوفنسيو » يراه قادماً كان يحتفي به ويطلب البيرة على شرفه. ولكن الحقيقة أن انطونيو بالدوينو كان يؤثر على حفلات « النادي » الراقصة احتفالات جبل « شاترنيغر » واحتفالات شارعي « ايتاپاجيب » و« النهر الأحمر ». وكان يستثني احتفالات الكرنفال لأنه كان يذهب إلى « النادي » متنكراً بزي « هندي » مع ريشات خضراء وحمراء وهـو يغني بعـض ألحان حفلات طـرد الأرواح الشريرة. ففي الكرنفال يستحقّ النادي أن يذهب إليه. وأما في عيد القديس حنا فإنه كان يفضّل الذهاب إلى الحفلة التي كان « جان فرنسوا » يقيمها في منزله بشارع « النهر الأحمر » حيث كانت تشعل نار عظيمة عند الباب، ويعلّق عدد كبير من البالونات، ويطلق عدد من المفرقعات، ويقدّم الـ « كانجيكا » ومشروب الـ « جينيپاپو » الخفيف بسخاء. وعلى الرغم من ذلك كله فقد كان مضطراً هذه السنة للذهاب إلى « حرية باهيا » لأن « روزندا روزيدا » صنعت لنفسها ثوباً للحفلات الراقصة وكانت تريد أن تستفتح به العيد. ما أشدّ زهوها، تلك الخلاسيّة! لقد كان من ناحيته يفضّل جداً الذهاب إلى حفلة « جان فرنسوا ».

كان انطونيو بالدوينو قد بدأ يحسّ أن « روزندا روزيدا » غدت لا تطاق. كانت تريد أن تتحكّم به. لسوف يكيل لها ذات يوم رفسة في مكان ما ويطردها. كانت دائماً تبدي رغبة في شيء ما، وقد

جعلته يبيع الدبّ لتشتري ثوباً للحفلات الراقصة كان بإمكانها جداً أن تشتريه بالتقسيط من تاجر سوريّ. وحتى اليوم جاءت تطلب منه عقداً رأته في دكان بشارع « الشيلي » وثمنه اثنا عشر « ملريساً ». وكان قد خرج لشرائه، ولكنه التقى « قنسان » وأعطاه عشرة « ملريسات » لدفن « كلاريمون » الذي كانت قد سحقته رافعة على الرصيف. لقد تكفّلت النقابة بمصاريف الدفن، ولكن الحمّالين أرادوا جمع قليل من المال للأرملة وكانوا يكتتبون لذلك. وكانوا يريدون كذلك تقديم إكليل. لقد هوت قلاّبة الرافعة على رأس المسكين (وإذ كان يحمل على ظهره فإنه لم يتمكّن من النظر إلى فوق) وترك امرأة وأربعة أولاد صغار. ولقد أعطى انطونيو بالدوينو « الملريسات » العشرة وتعهّد بأن يكلّم « جوبيابا » كي يبذل « أبو القديس » جهده لتقديم شيء إضافي إلى الأرملة. كان بالدوينو يعرف الزنجي « كلاريمون » حق المعرفة، وقد كان دائماً مرحاً مترنّماً، كما كان يعرف امرأته، وهي خلاسّية ذات بشرة صافية. كان رفيقاً صدوقاً يساعد أصدقاءه حين كان يملك المال. والآن وقد مات فان أرملته ستضطرّ إلى العيش على إحسان الآخرين. ما أنكد العمل وتحميل السفن والانحناء طوال العمر تحت ثقل الأحمال! إن انطونيو بالدوينو لا يحب أن يفكر بهذا. وما يحبّه هو أن يضحك ويعزف على القيثارة ويصغي إلى قصص « الضخم » الجميلة وقصص « زي لاكروفيت » البطولية. وأما اليوم فإنه معكّر المزاج لأن حفلة « جان فرنسوا » ستفوته، ولأنه ينبغي عليه الذهاب مع « روزندا روزيدا » إلى الحفلة الراقصة في « حرية باهيا ».سوف يمرّ قبل ذلك على بيت « كلاريمون »، إنه في منتصف طريقه. سيذهب ليرى هذا

الميت الذي كان صديقه. والأفضل ألاّ يذهب إلى أيّ حفلة وأن يبقى للسهر على الميت. سيكلّم على أي حال « جوببابا » كي يذهب لمباركة الجثمان. إن « جوببابا » كفيل دون شك بأن يكون في بيته في هذا الوقت غارقاً في الحديث مع « الضخم ». وبيت « الضخم » قريب من جبل « شاتر نيغر »، وبين آونة واخرى يهبط « جوببابا » للثرثرة معه. إن « جوببابا » لايشيخ. تُرى ما عمره؟ لا بد أنه تجاوز المئة. الحق أنه يعرف كثيراً من الأمور! إن « جوببابا » يزيد من القلق الذي يعتصر أنطونيو بالدوينو، فله أحاديث تستبدّ بمخيّلة الزنجيّ وتجعله يفكّر في البحر الذي ألقى فيه « فيرياتو » نفسه والذي ذهب العجوز « سالوستيانو » ينسى فيه أن أولاده جياع. وتنبّه انطونيو بالدوينو إلى أنه هو نفسه تغيّر، وأنه لم يعد مرحاً كما في السابق. لقد بدأت الآن تراوده أفكار حزينة. وبغتة انفجر ضاحكاً وسط الشارع ضحكاً عالياً جداً وبشكل فرح. ويلتفت المارّة مذعورين. واستمرّ في الضحك، ولكنه أدرك أنه إذ كان يضحك فإنما لإثارة غضب الآخرين أكثر من الرغبة في الضحك. وحثّ خطاه حتى ليخيّل أنه يركض. ومع هذا فإنه كان قد هدأ حينما وصل إلى بيته، ولم يعد يفكّر إلا في البذلة البيضاء التي سيرتديها لحفلة هذا المساء.

وارتمت عليه « روزندا روزيدا »:

ـ اين عقدي يا صغيري العزيز؟

ونظر إليها انطونيو بالدوينو بضيق: الحق أنه لم يفكر قطّ في عقد « روزندا »! لقد أعطى عشرة « ملريسات » إلى « قنسان » لأجل امرأة « كلاريمون »، وفي جيبه قطعة « الملريسين » الباقيين. وبدأت « روزندا » ترتاب:

ـ لم تحضر لي عقدي؟

ـ أتعرفين من مات؟

لم يكن ذلك يجدي شيئاً لأن « روزندا » لم تكن تعرف « كلاريمون ».

ـ كنت مع ذلك شديدة الرغبة فيه... وبعد هذا تقول إنك تحبني. حسناً، سوف ترى...

إنها عشيّة عيد القدّيس حنّا ،والشارع بأسره غارق في الفرح. وأنطونيو بالدوينو كان يريد هو الآخر أن يكون مسروراً. كان الرجال يمرّون بقربه وعلى وجوههم سيماء الجذل، وكانت حوانيت بائعي المفرقعات غاصّة بالزبائن. الناس كلّهم يتهيّأون لقضاء ليلة أنيسة. سوف تطلق مفرقعات وأسهم نارية. والزنوج لا حديث لهم إلا عن عيد القديس حنّا وعن الحفلة الراقصة في « حرية باهيا ». ومع ذلك لم يتمكن انطونيو بالدوينو أن يكون مرحاً هذا المساء. لقد مات « كلاريمون » وهو لا يفكّر إلا فيه. إن « روزندا » غاضبة عليه وتصطنع الحرد. وهو لا يجيب عن أسئلتها فتجهش بالبكاء .وتوجّه نحو الباب. الناس منهمكون عند « اسولد » بتحضير إبّالة ستكون نارها عارمة. وفي الطابق الأرضي المواجه تحاول الفتيات تبيّن رسم خطبائهن في طست مليء بالماء. جميع الناس فرِحون هذا المساء. ليس هناك حزين تساوره الأفكار السوداء سواه. امرأة « كلاريمون » أيضاً ينبغي أن تكون منخرطة في البكاء في هذه الساعة؛ ولكن هي لها أسبابها: لقد فقدت زوجها. أما هو فلا يملك سبباً سوى مزاج « روزندا » المعكّر، وهذا ليس بالأمر الخطر. ما عليه إلا أن يركلها بقدمه في مكان ما ويذهب إلى حفلة « جان فرنسوا ». لقد بدأت

تزعجه. وخرج انطونيو بالدوينو إلى عتبة الباب. ها هي ذي « روزندا » تبكي خلفه وتقول إنها لن تذهب إلى الحفلة الراقصة. وتناول الزنجيّ قبعته وذهب إلى « جوبيابا » لإعلامه بموت « كلاريمون ».

ولدى عودته بعد أن كلّم « جوبيابا » و« الضخم » الذي كان قد ذهب أيضاً للسهر على الميت، وجد « روزندا » لا تزال حردة وإن كانت مع ذلك تلبس لأجل الحفلة الراقصة.

ـ ايه « روزندا » ينبغي أن نمرّ لدقيقة على بيت « كلاريمون ».

وسألت متذمّرة:

ـ من يكون « كلاريمون » هذا؟

ـ حمّال في الميناء مات اليوم. من أجل جنازته وهبت فلوس العقد.

ـ وما الذي سنفعله هناك؟

ـ نرى المسكينة زوجته.

ـ هكذا وأنا لابسة ثياباً لحفلة راقصة؟

ـ وماذا في ذلك؟

« روزندا » حانقة من حكاية العقد وهي تتذمّر لأنه لا يجوز الذهاب لرؤية ميت بثوب لحفلة راقصة. وعلى الرغم من كل شيء استمرّت تهيّىء نفسها. انطونيو بالدوينو يتناول قهوته. وهو يسمع « روزندا » التي تردّد في الغرفة:

ـ نذهب لرؤية ميت... هل سُمع بهذا يوماً؟

إنها لتستحقّ الضرب. ما أشد غرورها! كانت تريد عقدها

للذهاب إلى الحفلة لكي تُري عنقها مزيّناً بحبيبات زرقاء. ولكن من أصل اثني عشر « ملريساً » ذهبت عشرة إلى أرملة « كلاريمون » والاثنان الأخيران في جيبه: ما يكفي لشراء زجاجة بيرة. إن عقداً حول عنق « روزندا » كان سيبدو جميلاً. ولكن الأحمر ينسجم أكثر من الازرق. اللون المفضّل عند انطونيو بالدوينو هو الأحمر.

ولبس انطونيو بالدوينو بذلته البيضاء، ولكنه لما كان عليه أن يمرّ على بيت « كلاريمون » فإنه لم يضع ربطة العنق الحمراء. وذهب الاثنان متجهّمين. إنهما يمشيان متباعدين وكأنهما غير متعارفين. وارتفعت بالونات في الفضاء. وقد أُضرمت نار القدّيس حنّا عند باب بيت « أُسولد ». وراحت المفرقعات والأسهم النارية تدوي.

إن « كلاريمون » لن يراها، بالونات عيد القدّيس حنّا! إنه ما تخلّف قطّ في مثل هذا اليوم عن إشعال نار عظيمة عند بابه وإطلاق الأسهم الناريّة. وكان الأصدقاء يحضرون إلى منزله لشرب نبيذ الـ « جنيپاپو » والروم الأبيض. لقد حضر أنطونيو بالدوينو عدة مرات. وكانوا يطلقون أسهماً تركض خلف المارّة. وذات مرة أطلقوا بالوناً ضخماً طوله ستة أمتار بشكل « زبلن » بثلاث فتحات: إحدى العجائب. وقد نشرت الجريدة صورته في اليوم التالي. كانت الصالة تغصّ بالناس في تلك الأيام. و« كلاريمون » ممدّد في نعشه مغمض العينين. إن البالونات تمرّ في الفضاء ولكن « كلاريمون » لا يراها، كما أنه لا يرى النار عند باب « أُسولد ». في السنوات الماضية كانا يتراهنان أيّهما سيشعل أعظم نار. وهذه السنة نار « أُسولد » هي العظمى لأنه فيما يخصّ النار لم يكن في بيت « كلاريمون » سوى الشمعة التي تحترق بجانب المرحوم. إن الوجه غير واضح القسمات.

فقد سحقت قلاّبة الرافعة رأس الحمّال وشظّت عظامه وجعلت الوجه كقدرٍ من الحساء. ها قد أطلق بالون بشكل « زبلن » كالسابق. والناس يهرعون إلى النوافذ لرؤيته. إنه يمرّ في زرقة السماء متلألئاً بالأنوار. و« كلاريمون » هو الوحيد الذي لا يراه لأن الرافعة قتلته وهو يعمل في الميناء. الحمّالون الآخرون موجودون هنا. النقابة هي التي ستقوم بالدفن. ومعظم الذين جاءوا سوف يذهبون بعد ذلك إلى حفلة « حرية باهيا » الراقصة. أما « جوبيابا » فلن يذهب: إنه منهمك في قراءة أدعية الموتى. هو يمسك بيده أوراقاً تهتزّ. « الضخم » لن يذهب هو أيضاً بالتأكيد. سيبقى « الضخم » للسهر على « كلاريمون » والقيام بدور القندلفت لـ « جوبيابا ». هناك بالونات تمرّ في حلك الليل. « كلاريمون »، يا صديقي « كلاريمون »، ليس من نار هذا المساء عند بابك. سوف يثمل انطونيو بالدوينو بسبب موتك، وسينظر من الآن فصاعداً إلى الرافعات نظرته إلى أعداء شخصيين.

كان صوت الأرملة مستسلماً وكأنّه هدأ روعها.

ـ كان لا بد أن يحدث ذلك. ففي كل مرة كان يذهب فيها إلى العمل كنت أفكّر أنهم سيعيدونه إليّ ميتاً ذات يوم وقد قتلته الروافع.

البنت الكبرى ذات السنوات العشر تبكي مستندة إلى المائدة. وأصغر الأولاد وعمره ثلاث سنوات يراقب البالونات التي تمرّ في الفضاء. و« جوبيابا » يصلّي لأجل الميت. سيسكر انطونيو بالدوينو هذه الليلة حتى ينطفىء. إن نغمة « سامبا » صادرة عن المنزل المجاور تجتاح المنزل المفجوع.

« حرية باهيا » غاصّ. والهواء يتذبذب بالقهقهات. الصالة كلها عابقة بالعرق ولكن احداً لا يلاحظ ذلك. وفرقة « الكنارات السبعة للجاز » جامحة ثائرة. وأزواج الراقصين تكاد تستطيع أن تتحرّك. لقد ترك « جوڤنسيو » مراقبة الصالة وأتى يقول لأنطونيو بالدوينو: « هيه، لقد قرّرت على كل حال أن تشرّف النادي... » « جوڤنسيو » يرتدي ثياباً زرقاء. ويقـدّم إليه بالدوينو « روزندا » التي لبست ثوباً أخضر للحفلة الراقصة. لقد بقيا في المدخل بانتظار نهاية الرقصة. ها هي ذي أزواج الراقصين تنفصل فيدخلان الصالة. لقد عاينت النسوة « روزندا روزيدا ». والثوب الأخضر يلقى استحساناً. وقالت لبالدوينو « لكأنهم لم يسبق لهم أن رأوا شيئاً ». ولكنها مزهوّة في أعماقها وهي تبتسم بملء فيها. لو جاءت وهي تلبس العقد لكان الأمر أفضل وأفضل. وانطونيو بالدوينو فخور بالأثر الذي أحدثته. إن كل الناس ينظرون إليهما ويتهامسون. « و« روزندا » ترجّح مؤخرتها وهي تمشي وكأنها ترقص.

وتوقّفا وسط الصالة في غمرة الأضواء. وذهبت « روزندا » إلى مغاسل السيدات لتسوية شعرها المملّس بالمكواة. وجاء بعض الناس يتحدّثون إلى انطونيو بالدوينو. إن « يواكيم » نصف سكران.

ـ على ما يرام، **تعرف،** يا أخي العزيز. لا بأس بما شربت حتى الآن.

ـ ظننت أنك ستذهب إلى حفلة جان فرنسوا »؟

ـ بالطبع. ولكني جئت إلى هنا أولاً لأرى كيف الأمور... صاحبتك، تعرف، كأحسن أحسن ما يرام...

ـ « روزندا؟ » أتريدها؟

ـ شكراً. لا أحب الفُتات.

الآخرون يضحكون. أحدهم يسأل انطونيو بالدوينو أين أُصيب بندبته. واختلق الزنجيّ حكاية عراك مع ستة رجال. و« زيفا » الواقفة هنا لا ترفع بصرها عنه. واقترب منها فاشتكت من أنه يُخيّل أنه يتنكّر لمعرفة الناس. وعادت « روزندا » من المغاسل وهي تبتسم بكل أسنانها البيضاء. ونظرت إليها « زيفا » بحسد:

ـ هاك امرأتك.

وجلست « روزندا » بجانبها مكان انطونيو بالدوينو الذي ذهب يشرب قدحاً في الصّالة الأخرى مع « يواكيم » و« جوڤنسيو ». وامتدّت الاستراحة لأن الموسيقيين مشغولون بشرب البيرة. وفجأة صدحت في الصالة موسيقى مارش للكرنفال. ها هوذا انطونيو بالدوينو ينظر وهو جالس إلى مائدته. هناك أزواج كثيرة من الراقصين ولا تستحقّ هذه الرقصة العناء. وألقى نظرة على حذائه الأحمر الجديد كلّ الجدّة. إنهم سيدوسون له عليه لو رقص الآن. « يواكيم » يجده جميلاً جداً.

وأعلن انطونيو بالدوينو أنه سيذهب لإحضار « روزندا » كي تشرب معهم زجاجة بيرة. ولكن في اللحظة التي نهض فيها رآها تراقص رجلاً أبيض. والتفت إلى يواكيم:

ـ من يكون ذلك الشخص؟

ـ أيّ شخص؟

ـ الذي يرقص مع « روزندا ».

ـ إنه « شارل »، سائق. داهية مشهور.

هل رأى أحد قطّ سيدة جاءت إلى حفلة راقصة مصحوبةً وهي ترقص مع مجهول دون أن تستأذن قبلاً فارسها؟ إن هذا لا يُفعل. «روزندا» تستهزىء به. إنها تغلي من جرّاء حكاية العقد، وتريد أن تثير غضبه. «زيفا» لم تقم للرقص. ها هي ذي تأتي إلى مائدتهم وتَقْبَل بزجاجة بيرة:

ـ جميلة جداً امرأتك يا بالدو. انظر ما اكثر ضحكها مع الرجل الأبيض. إنه لرجل، «شارل» هذا...

وراقص «يواكيم» «زيفا» التي لم تنفك عن الضحك، الضحك من أنطونيو بالدوينو. الجميع يعتقدونه أنه مولّه بـ «روزندا»، وأنها بيّتت له سحراً. وطلب بعض الكونياك من النادل ذي الساق الخشبية. وكان على المائدة المجاورة شخص يريد العراك مع كل الناس.

كانت فرقة الجاز في أوج حماستها. «روزندا» ترقص و «شارل» يكلّمها في أذنها. ذلك ممنوع، فلماذا لا يوجّه إليه «جوڤنسيو» ملاحظة؟ وانطونيو بالدوينو يتساءل عما إذا لم تكن تُنبت له الآن قرنين. ما ألطفها، هذه الخلاسيّة الصغيرة القاعدة بجانب عجوز بدينة ولا ترقص، ما أروع وجهها اللطيف ونهديها الصغيرين المبرعمين! ومرّت «روزندا» بقرب حافة الشباك وضحكت. لماذا لا يستطيع انطونيو بالدوينو التفكير في الخلاسيّة الصغيرة؟ وطلب مجدّداً بعض الكونياك. كلّ هذا بسبب ذلك العقد اللعين. ولكن أكان في وسعه ألاّ يدفع المال إلى «ڤنسان» من أجل امرأة «كلاريمون»؟ لقد سُحق «كلاريمون» بالرافعة. كان العقد أزرق. لو كان أحمر على

الأقل! ومرّت « روزندا » مرة أخرى وهي لا تنفكّ تضحك. وتمكّن بالدو من قراءة ملامح السائق. آه! يريدان الاستهزاء به! مستحيل، هما لا يعرفانه جيداً. إنه يتلّمس من تحت القماش سكينه المعلق بحزام بنطلونه. إنها تترك أثراً جميلاً في صفحة وجهٍ، هذه الاداةُ. على كل حال فإن العقد الازرق لا يتناسب مع الثوب الأخضر. قدح آخر من الكونياك. لو كان عقداً أحمر... غداً تنهمك امرأة « كلاريمون » في غسل الملابس؛ عمل قذر: نظراً لهزالها سينتهي بها الأمر إلى أن تصبح مسلولة. « روزندا » تستحقّ الضرب. لم يسبق أن عاملته امرأة بهذه الطريقة. الصالة غاصّة. الزنجيات بثياب سهرات الرقص يرقصن مثل نساء أنيقات. قليلات من يعرفن اللبس مثلما تلبس « حنّة ». أما اليوم فأجمل النساء هي « روزندا ». السائق مسحور، وهو يتشوّف مع فارسته. فلوس العقد، لقد أعطاها لـ « كلاريمون ». تتوقّف فرقة الجاز، ولكن التصفيق يجبرها على تكرار الرقصة. وعلى المائدة المجاورة شخص يبحث عن الشجار مع أحدهم، أياً كان. ويلتفت بالدوينو إليه:

ـ أنا أُماشيك يا رفيق...

ـ شكراً أيها الشريك... أرأيت، إن أحداً لا يريد أن يواجهني...

إنه يعترض على النادل، ويحتجّ إلى رفيقه في المائدة: « سينتهي بي الأمر إلى إحداث كارثة هنا اليوم ».

في وسع انطونيو بالدوينو بالطبع أن يطلب إلى « جوبيابا » أن يرمي « روزندا » بالسحر لكي يجعلها تتدلّه بهواه. وفي هذه الأثناء

أخذ أحد زنوج فرقة الجاز يغنّي: « لقد احتقرتني يا حلوتي ». ولكنه هو لا يحبّ أن يجعل امرأة تتعلّق به بمثل هذه الأساليب. إنه لا يهتمّ كثيراً أن تذهب « روزندا ». أما الذي لا يقبله فهو إجراء كهذا الإجراء. لقد عبقت رائحة عرق. ورجل يحاول إقناع خلاسيّة بالخروج معه. السائق يطرح بالطبع على روزندا السؤال نفسه، وهي تضحك. ينهض بالدوينو. ويقترب من السائق ويأخذ بذراع « روزندا ». « تعالي ارقصي معي ». جُرحت كرامة السائق:

ـ ولكنها معي!

ـ أجل، ولكن أنا الذي أحضرها. الثوب الذي على ظهرها أنا الذي قدّمته إليها. كانت تريد عقداً ولكني أعطيت الفلوس لامرأة « كلاريمون » الذي قتلته رافعة ».

وجرّ « روزندا » التي لا تدري ما تفعل والتي هي خائفة. إنها تعرف جيداً أن أنطونيو بالدوينو يحبّ أن يقاتل. والسائق من ناحيته ليس مستعداً لترك شريكته في الرقص. توقّفت الموسيقى وبقيا يتناقشان وسط القاعة. لقد جاء « جوڤنسيو » يقول له إن ذلك ممنوع. ودفعه السائق بعيداً. اقترب « يواكيم »:

ـ ماذا هناك؟

أمسكت « روزندا » بذراعه: إنه بالدو يريد العراك لا لشيء إلا لأنني كنت أرقص مع هذا الشابّ. امنعه بربّك يا « يواكيم ».

جميع الناس الآن ينظرون إليهم. والسكّير الذي كان يريد أن يقاتل قبل قليل يضع خدماته بتصرّف انطونيو بالدوينو.

ـ هل تحتاج إليّ أيّها الشريك؟

وقال «جوڤنيسو» إن الأمر غير ذي بال، وأشار إلى الجوقة أن تعزف. وبدأ الموسيقيّون رقصة «فوكس». واستولى انطونيو بالدوينو على «روزندا». وقال السائق: «فليكن. سوف نلتقي». وراحت «روزندا» تموء. فالآن وقد استعادها انطونيو بالدوينو تحاول أن تكون رقيقة وتلتصق به. والزنجيّ يفكر أنها لو كانت تلبس عقداً لكانت أجمل وأجمل. والشخص الذي كان يريد أن يعارك انتهى بأن خلق شجاراً في آخر الصالة. السائق عند الباب، وهو يترقّب. وفصلوا بين المتقاتليْن. الرقصة مستمرّة. «جوڤنيسو» يصفّق بيديه في الصالة. رقصة الفوكس هذه حزينة حتى ليقال إنها موسيقى جنائزية. لقد مات« كلاريمون» ولن يرى قطّ بالونات عيد القدّيس حنّا. وعندما انتهيا من الرقص اقترب انطونيو بالدوينو من السائق:

ـ اسمع، أردت أن أريك أن أحداً لا يخطف مني امرأتي هكذا. الآن تستطيع الاحتفاظ بها؛ لم اعد راغباً في هذا الجلد العتيق، فليذهب ليُرتدى في مكان آخر.

الرقص يلوّي أجساد جميع الحضور. وإذ كان رئيس الجوقة قد تعتعه السكر فإن بالدو هو الذي يقود فرقة «الكنارات السبعة للجاز» في ما تبقّى من الليل. لقد اختفى السائق مع «روزندا». الحفلة الراقصة عابقة بالعرق، والزنوج يضحكون ويتبارون في التلوّي على أنغام رقصة «المتشيش» الشهيرة.

« أغنية السفينة الشراعية كاترينت »[1]

جلست « لندينلقا » في الشرفة لقراءة قصائد الحب والروايات المغرقة في الخيال. كانت تحب قصة « السفينة الشراعية كاترينيت » :

« ها هي ذي السفينة الشراعية كاترينيت
ما أكثر ما يمكن أن تروي من أشياء ! »

ربما ـ من يدري ؟ ـ حملت إليها ذات يوم خطيباً. لقد قال لها شحّاذ صغير مرة إن خطيبها سيأتي على سفينة تمخر البحار. إنها ما زالت تنتظره، ولكي تبدّد الانتظار فإنها تقرأ روايات مغرقة في الخيال وقصائد حب.

إنه، بعد زواج فتاة البيت المقابل، فقد مرّ « زومبي دي بالمينه » القليل من الشِعْر الذي كان قد بقي له. لم يعد الرجل الكَلِفُ يجتاز الشارع أو يرمي أزهار القرنفل على الشرفة. لقد ذهب العروسان يسكنان في شارع أكثر حياة. وأغلقت الشبابيك نهائياً فحجبت عن الأنظار صورة الضابط الشابّ الذي قتل موته فرح الأسرة كله. لقد أحزن زواجها « لندينلقا ». كانت ترقب من حديقتها مواعيدهما، وكان يخيّل إليها ان لها نصيباً في القرنفلة التي كان يقذفها الشاب إلى خطيبته. كان ذلك الزخرف الرومنطيقي للشارع. وبعد زواجها

(١) عنوان إحدى اكثر القصائد شعبية في الفولكلور البرتغالي.

شعرت « لندينلڤا » ، التي لم تكن قد كلّمت الجارة يوماً ، أنها أكثر عزلة وأشدّ وحدة. لقد كانت « آميلي » تشيخ في المطبخ. وبعد سنة من هرب انطونيو بالدوينو بكت « لندينلڤا » لموت أمّها. وإذ أصبح الكومندور أرمل، فقد وزّع وقته بين الأعمال والغراميات الرخيصة. وراح يشرب ـ قال الجيران ليغرق الأحزان ـ وكانت « لندينلڤا » تعيش منطوية على نفسها في البيت الكبير الذي كانت فيه الأفراح قد ماتت، والأزهار قد ذبلت. كانت تقرأ قصّة « السفينة الشراعية كاترينيت » وتنثر وريقات الورود. لا بدّ أن يأتي خطيبها يوماً على ظهر سفينة. وكانت تحلم بذلك حتى أنها لم تفاجأ قطّ عندما علمت أن « غوستاڤ » (الدكتور « غوستاڤ برّيراس » المحامي، وهو من أسرة من أفضل أسر المدينة) كان قد وصل من « ريو » حائزاً دبلوماً ومزوّداً بإرادة حازمة بأن يثري. لقد كان محامي الكومندور في إحدى القضايا، وهكذا تعرّف إلى « لندينلڤا ». كانت البقع التي تنمش وجهها تمنعها من أن تكون جميلة، ولكنها كانت تضفي عليها سحنة فريدة، وكان جسدها الناحل ذو النهدين العاليين النافرين يستحوذ على ألحاظ المحامي. كانت أيام الخطبة سعيدة وعرف ممرّ « زومبي دي پالمييه » حياة جديدة. كانا يتنزّهان وقد تأبّط كل منهما ذراع الآخر، وكان هو يسوق إليها أحاديث رومنطيقية. وفي البيت الكبير المقابل كانت شقائق النعمان تنحني فوق الحائط لرؤية مرور العاشقين، شقائق حمراء مُلْحِمة كأنها شفاه.

كانت الريح ترجّح الشقائق. وكانت « لندينلڤا » سعيدة حتى أنها نسيت الزنجي انطونيو بالدوينو الذي كانت تحلم به أحياناً في ليالي الكوابيس. وهي الآن تحلم بخطيبها، ببيت صغير، بحديقة ذات

شقائق، كثير من الشقائق الحمراء مثل الخطايا...

وأفلس الكومندور؛ «النساء هنّ اللواتي ابتلعن كل شيء»، هذا ما كان يقوله التجّار. وكشف الخطيب عن إخلاص نادر. لقد جهد في العمل بلا انقطاع، ولكنه لم يتوصّل إلى أيه نتيجة. كان الكومندور يقضي أيامه عند أرخص البغايا وكان الخطيب يأتي كل مساء لرؤية «لندينلڤا». وذات يوم كان لزاماً مغادرة المنزل وتركه للدائنين. وذهبوا للسكن بعيداً جداً، وكان الخطيب هو الذي ينفق على الأسرة. وذات يوم عاصف بقي لقضاء الليل. وكان الكومندور يرتاد المواخير. ولم يكن باب غرفة «لندينلڤا» مغلقاً؛ كان مواربأ فقط. ودخل «غوستاڤ». واختبأت تحت الأغطية؛ ولكنها كانت تبتسم.

لم تكن تظنّ على كل حال أن مجرى الأمور سيتغيّر بهذه السرعة. كانا كثيراً ما ينامان معاً، وفي البداية كان كل شيء على ما يرام في اثناء ليالي الغرام تلك التي كانت فيها القبلات تنهك شفتيها ويدا حبيبها تدعكان نهديها وكأنهما شقيقتان. ولكنه أصبح شيئاً فشيئاً أشدّ ابتعاداً، وراح يشكو من أن الأعمال غدت صعبة؛ وتأجّل موعد الزواج ثلاث مرات. وفي أثناء ذلك مات الكومندور في أحد بيوت الدعارة. ونشرت الصحف النبأ. واعتبر «غوستاڤ» الأمر إهانة شخصيّة، وأعلن أن مهنته تعرّضت لفساد لا صلاح له ولم يظهر في الجنازة. وبعد بضعة أيام أرسل ورقتين نقديّتين من فئة مئة «ملريس». وارسلت إليه «لندينلڤا» أنها تريد رؤيته. وترك أسبوعاً يمرّ قبل أن يأتي. كان وجهه من التجهّم والإفصاح عن الرغبة في الإسراع بالذهاب، بحيث إنها لم تبكِ ولم تقل له إنها حبلى.

« آميلي » هي التي أخبرت انطونيو بالدوينو أن « لندينلڤا » قد استسلمت لحياة الملذّات. ومنذ أن حلّ الشقاء ببيت الكومندور و« آميلي » تحيط الشابّة بحنان الأم وتقوم بدور الأب والأم تجاهها. ومع ذلك فإن « لندينلڤا » منعتها يوم اضطرّوا إلى ترك منزلهم من اللحاق بها وأجبرتها على البحث عن عمل عند قوم آخرين. لقد كانت « آميلي » ستذهب عن طيب خاطر معها، ولكن « لندينلڤا » لم تتح لها الفرصة، بل غضبت فوق ذلك. ووجدت « آميلي » عملاً عند « مانويل داس ألمس »، وهو ثريّ برتغالي كان يملك دكاناً للحلوى في المدينة. كان هذا قد جرى في الوقت الذي كان فيه أنطونيو بالدوينو يعمل في مزارع التبغ. وساعة الولادة كانت « آميلي » هي التي حضرت أيضاً لمساعدة « لندينلڤا ». وتركت مكانها وجاءت تسكن مع « الصغيرة » كما كانت تدعوها. وقد قدّمت المال اللازم، وكانت ممرّضة من الطيبة والإخلاص بحيث لم تشعر « لندينلڤا » بأيّ إذلال. وارسل « غوستاف » الذي كان قد تزوّج بنت نائب مئة « ملريس » للطفل وناشد التزام الصمت. وأجابته « لندينلڤا » إن في وسعه الاطمئنان وأنها لن تشي قط بشيء. ثم إنها أرغمت « آميلي » مجدّداً على البحث عن عمل، وقبلت عروض « لولو » صاحبة « پنسيون مونت كارلو » أغلى « بيت » في المدينة. كان أنطونيو يصغي إلى هذه الحكاية منكّس الرأس وهو يداعب بيده ندبة وجهه. وفي الخارج كانت ليلة مطيرة.

وأخذت « آميلي » الطفل الذي كان صبياً قوياً مثل أبيه حزيناً مثل أمه. وفي ذلك المساء بدأت « لندينلڤا » العمل في پنسيون « مونت كارلو » مرتدية ثوب حفلات راقصة مكشوف الأعلى بشكل فاضح.

وكانت «لولو» قد زوّدتها بالتعليمات: طلب كثير من المشروب، المشروب الغالي الثمن، وإيثار التفتيش عن «الوجهاء» الضخام القادمين من مزارع التبغ والكاكاو وقصب السكر - كان قوامها قوام عذراء ممشوقة لا بدّ أن يعجب الكبار في السنّ - وأن تسحب منهم قدر ما تستطيع.

كانت الفرقة الموسيقيّة تعزف لحن ڤالس بطيء عندما دخلت الصالة. وكان في عبّها مفتاح الغرفة التي عليها أن تسلّمه إلى من يدعوها إلى مائدته. لم تكن «لندنلڤا» تشعر برغبة في البكاء، بل كانت الموسيقى حزينة. وكانت أزواج من الراقصين تجرّر الأقدام في الصالة. كان الوقت ما يزال مبكراً، ولم يكن هناك كثير من الناس. ومن بين النساء كانت هناك اثنتان فقط جالستان مع شبّان يشربون البيرة.

وانضمّت «لندنلڤا» إلى جماعة من النساء. وشرحت امرأة شقراء: «هذه هي الجديدة». ونظرت إليها الأخريات بلا مبالاة. الخلاسيّة التي تشرب قدحاً صغيراً من الكونياك هي وحدها التي سألتها: «ماذا جئت تفعلين هنا؟» الموسيقى متراخية وحزينة. وأجابت «لندينلڤا» بصوت مضطرب: «لم أجد عملاً». وقدّمت فرنسيّة السكاير: «حبّذا لو جاء الزعيم «بيدرو» اليوم... أنا محتاجة إلى مال».

تأمّلت الخلاسيّة قدحها وانفجرت بغتة ضاحكة. ولم تحفل الأخريات فهنّ قد ألفن شذوذ «أونيس»، وأما «لندنلڤا» فقد شعرت بالخوف. لماذا هي الموسيقى حزينة بهذا المقدار؟ كان في وسعهم أن يعزفوا شيئاً مرحاً، «وسامبا». وتعالت من الشارع ضجّة

ترامات وأصوات مختلطة: ضجة حياة. إن البنسيون يبدو وكأنه مقبرة تعزف فيها موسيقى. وهذا ما كانت تردّده «أونيس»: «لا أحد يشعر بحالنا، ولكنّنا ميتات، نحن أولاء. انتهت الحياة بالنسبة إلينا. لأن تحترف المرأة البغاء فكأنما أصبحت ميتة».

الفرنسيّة بانتظار الزعيم «بيدرو». إنها بحاجة إلى مال. لقد تلقّت رسالة من ذويها المقيمين في فرنسا، في مكان ما بالأقاليم. إن أخاها الصغير مشرف على الموت. ولما كان محلّ الخياطة الذي تملكه في البرازيل مزدهراً فإنه يطلب منها أن ترسل بعدُ قليلاً من المال. إنها تقرع المائدة بأصابعها: «محلّ خياطة... تصوّري». وكرعت «أونيس» قدحها: «كلنا ميتات، كلنا... مقبرة حقيقية».

واجابتها سمراء قصيرة القامة «تكلّمي على نفسك. أنا، أنا حيّة جداً. إن «أونيس» هذه لتملك أفكاراً...» ثم ابتسمت. ونظرت «لندنلڤا» إليها. تكاد تكون طفلة، طفلة سمراء مرحة. الشقراء عجوز في وجهها تجاعيد وسحنتها سحنة إنسان يعيش في مكان آخر بعيد جداً. وتوقّف الفالس. ودخل شخصان وطلبا أشربة خليطة معقّدة. وانضمّت إليهما السمراء الصغيرة. وامتدّت أيديهما إلى فخذيها وطلبا أشربة اخرى وراحا يهمسان في أذنها. «لندنلڤا» تكابد حزناً عريضاً ورغبة شديدة في مداعبة السمراء الصغيرة. وطلبت «أونيس» سيكارة. أتكون هي الأخرى مشفقة على السمراء الصغيرة؟ إنها تعتقد أن «لندنلڤا» تبتسم. قالت: «حينما تكون المرأة بغياً فإن جميع الناس يبصقون عليها».

الآن تعزف الفرقة لحن تانغو، تانغو يحكي عن الحب والهجر والانتحار. ودخل بعض الأثرياء المعروفين جداً. ها هوذا تاجر سبق

أن رأته « لندنلڤا ». لقد حضر ذات يوم للغداء عندهم حين كانت أعمال الكومندور مزدهرة.

حياة الكومندور انتهت في بيت مثل هذا، مات في غرفة امرأة. كم امرأة من هنا عرفت الكومندور يا تُرى؟ كم يا تُرى سُخر منه؟ كم مرة انتُظر ليطلب منه المال؟ الآن جاء دور « لندنلڤا » لانتظار كومندور يحمل إليها المال، يدفع ثمن الشراب، يطلب ويطلب حتى ترضى « لولو » فلا تطردها. التانغو يتحدّث عن الهجر. إن « لندنلڤا » لا تريد تذكّر ابنها ما دامت في البنسيون. لا بدّ أنه في هذه اللحظة يمدّ ذراعيه لـ « آميلي »، وعندما سيقول « ماما » فسوف يكون ذلك لـِ « آميلي »، وعندما سيبتسم لن تكون « لندنلڤا » هناك. ما يزال الشابّان يهمسان أشياء للسمراء الصغيرة. ماذا يمكن أن يعرضا عليها؟ إنها ترفض. ولكن لما كان اليوم رديئاً، ولما لم يكن هناك كثير من الناس، ولما كانا يلحّان فإنها قبلت آخر الأمر أن تصعد معهما. « أونيس » تبصق وقد استحوذ عليها الغضب؛ و« لندنيلڤا » تشعر برغبة في البكاء. و« لولو » تبتسم وتريها للتجّار وهي تتكلّم بصوت خافت. وأعلمت « أونيس » صاحبة العلاقة: « إنه دورك ».

إن « لندنلڤا » تعرفه، هذا الشخص. لقد أكل على مائدة واحدة مع أبيها وأمّها. لا تريد المسير معه، إنها تفضّل أيّ شخص آخر، تفضّل حتى لو كان الزنجيّ انطونيو بالدوينو. لكن الرجل يشير إليها بإصبعه الضخمة و « لولو » تدعوها بإشارة من يدها أن تستعجل. لقد صعدت السمراء الصغيرة مع شخصين حقاً. ونهضت « لندنلڤا ». ورفعت « أونيس » كأسها: « حظاً سعيداً من أجل بداياتك ».

وقامت الفرنسية بحركة من يدها. ما معنى ذلك؟ كلّهن ميتات، التانغو يكرّر ذلك بعد «أونيس». لم تعد «لندنلڤا»، «لندنلڤا» الشاحبة التي كانت تركض في حديقة «الناصرة» العامّة. لقد ماتت، وابنها موجود مع «آميلي». وعندما مرّت بحذاء «لولو» قالت لها المعلّمة أن توصي على شمبانيا. ورجعت السمراء الصغيرة مذعورة القسمات دامعة العينين. والشابّان يضحكان ويتبادلان انطباعاتهما. وأوصت «لندنلڤا» على شمبانيا. وإذ ضمّتها الغرفة مع التاجر الذي كان قد أكل عند ذويها سألها عما تُحسن من أمور خارجة عن المألوف. لا أهمية لذلك فهنّ جميعاً ميتات، ميتات من قبل. ما تزال «اونيس» تشرب الكونياك، والتانغو ينتحب. هكذا تمّ استقبال «لندنلڤا».

سرعان ما أصبحت عجوزاً جدّاً بالنسبة إلى الپنسيونات الغالية. الرجال الأغنياء لم يكونوا يُقبِلون عليها. الآن لم يعد يفارق فمها عفن الكحول. وكانت «أونيس» قد ذهبت منذ زمن إلى الشارع «الأسفل» حيث تضاجع النساء الرجال على عجل لقاء مئة فلس. واليوم جاء دور «لندنلڤا». لقد استأجرت غرفة في البيت الذي تقيم فيه «أونيس». وكانت قد ذهبت في النهار لرؤية ابنها في الغرفة الصغيرة التي تقيم فيها «آميلي». إن «غوستاف» الصغير طفل جميل ذو عينين واسعتين متّقدتين وفم مُلحِم كالزهرة الحمراء التي كان أبوه يتحدث عنها والتي لا تذكر «لندنلڤا» حتى اسمها (لقد تعلمت بالمقابل كلمات بذيئة بالفرنسية وقاموس البغايا السوقي). وعندما يقول الصغير: «ماما، ماما» تشعر أنها عادت نقيّة مثل عذراء. وتحكي له حكايات، حكايات كانت «آميلي» تحكيها لها قديماً، حينما

كانت « لندنلڤا ». لقد قالت لها صاحبة البيت الذي ستقيم فيه إن اسمها سيكون من الآن فصاعداً « ليندا ». وبانتظار ذلك تحكي لابنها قصة « سندريلا »، وهي سعيدة، سعيدة جداً. (ما الذّ أن ينتهي كل شيء الآن، وأن يموت العالم بغتة!)

النساء مقيمات في الصالة خلف الشبابيك المفتوحة. إنهن ينادين الرجال المارّين في الشارع. بعضهم يدخل، وبعضهم يردّون بدعاباتٍ، وآخرون يحثّون الخطى حاملين اللفائف. و « أونيس » السكرى تؤكد أنهن جميعاً ميتات، وأنهن جميعاً في جهنّم. والعجوز البولونية تشكو حظّها العاثر. لم تتمكّن أمس أن تصطنع رجلاً واحداً، ولا اليوم. ربما اضطرت إلى الذهاب إلى محلة « رامپ دو لاغروس پوتر » حيث تتقاضى النساء ثلاثين فلساً ويفعلن كل شيء ويمتن بعد ذلك. « لندنلڤا » بعيدة من هنا، إنها مع ابنها في غرفة « آميلي » البائسة. أدارت صاحبة البيت حاكياً في غرفة الطعام. ونهدا « أونيس » الرخوان يبدوان تحت القميص الشفاف. إنها تنادي الرجال من النافذة. عندما يصبح كبيراً فقد يمرّ أيضاً في هذه الشوارع، « غوستاڤ » الصغير. ولكن « لندنلڤا » ستكون عندها قد ماتت، ولن يتعرّض للعثور عليها خلف شباك وهي تدعو الرجال. سوف يذكرها بوصفها شابة بسيطة جميلة كانت تحكي له حكاية « سندريلا ».

« أونيس » ممعنة في ترداد أنهنّ جميعاً ميتات. البولونية تقترض أربعين فلساً. شابّ يضع شعراً مستعاراً يقع في قبضة « لندنلڤا ». « أونيس » تقول: « حظاً سعيداً يا ليندا » وتتظاهر بأنها ترفع كأساً. وفي الغرفة يسألها الشاب عن اسمها، إنه يريد أن يعرف حياتها كلها،

ويقصّ عليها أنه شاعر، وينشدها أبياتاً، ويحكي لها عن مرض أمه المقيمة في الداخل، ويقول لها إنها جميلة كزهرات الأكاسيا، ويشبه شعرها سنابل القمح المائجة، ويعدها بأن يؤلّف لها مقطوعة. الحاكي يبعث رقصة سامبا من غرفة الطعام، ولكن الشاب كان يؤثر عليها رقصة تانغو مغرقة في الرومنطيقية. ويسأل «ليندا» عن رأيها في السياسة. «ألا ترين أنها قرف بقرف؟»

هكذا تمّ استقبال «ليندا».

إن «لندنلڤا» تتدحرج أكثر فأكثر. وها هي ذي ترسو قريباً جداً من المدينة السفلى، في «رامپ دو لاغروس پوتر». ومن «رامپ دو لاغروس پوتر» لا تخرج النساء إلا للذهاب إلى المستشفى أو المشرحة. هنّ يذهبن على كل حال بالعربة: فإما عربة الاسعاف وإما عربة الموتى الحمراء.

وفي «رامپ دو لاغروس پوتر» تُرى مناشف في جميع الشبابيك، ووجوه زنوج عند الأبواب.

لقد ذهبت «لندنلڤا» لرؤية «غوستاڤ» الصغير الذي أصيب بالحصبة. إنها تمدّ له ذراعيها وتبتسم له، وهو سعيد جداً لرؤية امه: «ماما، ماما». ثم يتخّذ هيئة الجدّ ليسألها: «متى تأتين للعيش معنا يا ماما؟»

ـ في أحد الأيام يا صغيري.

ـ سيسعدني ذلك كثيراً لو تعرفين يا ماما.

مرّت «لندنلڤا» بمربض المصعد القديم الذي يربط المدينة العليا بالمدينة السفلى. إنها تردّ على ابتسامة سائق الترام بابتسامة مثلها

وتدخل في الرقم ٣٢ حيث استأجرت غرفة. («غوستاف» الصغير بحاجة إلى ان يسمن. لقد هزل كثيراً منذ إصابته بالحصبة). ها هي ذي تدفع الباب الثقيل المصنوع على طراز أبواب المستعمرين المزخرف بمقرعة ضخمة. وصرخ صوت من فوق: «من الطارق؟».

صعدت «لندنلڤا» السلّم القذر. عيناها مغمضتان تقريباً. وصدرها يلهث. لقد قضت الليل في التفكير. حاولت أولاً النوم، ولكن جاءت مع النعاس كوابيس بشعة أرتها نساء مصابات بالزهري ذوات أصابع ضخمة وقد تجمّعن عند باب مستشفى صغير جداً وهن يجررن إحدى عربات الإسعاف. ولكن لا، ليست عربة من عربات الإسعاف، وإنما هو جسد الكومندور الذي مات في غرفة بغيّ. ثم كان جسد الصغير «غوستاف» الذي مات بالحصبة. ثم اختفى كل شيء بغتة تاركاً المكان للزنجي انطونيو بالدوينو الذي يحمل بيده ورقة من فئة خمسة «ملريسات» وبعض النقود. وعندها استيقظت غارقة بالعرق ونهضت لتشرب الماء.

إنها أبشع ليالي حياتها... ولكنها الآن لا تفكر في شيء. هو البخت على كل حال. هكذا هو البخت: المسرّة لبعضهن والبؤس للأخريات. يولد بخت الإنسان معه وليست «السفينة الشراعية كاترينيت» هي التي تجلبه. بختها سيّء، فماذا في إمكانها أن تفعل به؟ ها هي ذي تصعد السلّم وكأنها محكوم عليها. بالامس كانت الخلاسية التي تؤجر الغرف صريحة معها. «ليس بعد هذا يا حلوتي إلا الإسعاف أو القبر الجماعيّ». ثم أضافت وهي تنظر إلى السماء من النافذة: «يا طالما شهدت...».

«لندنلڤا» تصعد السلّم شاردة البصر. أين ذهبت «لندنلڤا» التي

كانت تضحك وتلهو في حديقة « الناصرة » العامة؟ ها هي ذي تتقدم محنيّة الظهر والدموع تنزلق على وجهها الناحل. أجل، إن « لندنلڤا » تبكي. دموع تتساقط من عينيها وتغسل قذارة السلّم. إنها تمشي محنيّة الظهر ساترة بذراعها وجهها الشاحب المنمّش. إن لها لولداً، وتريد العيش لأجله. ولكن النساء لا يتركن « رامپ دو لاغروس پوتر » إلا إلى المقبرة.

وفي الطبقة الخامسة قالت إحدى النساء: « إنها الحمراء الشعر التي وصلت. لا تكلمنها فهي تبكي... » وكانت في هذا الصوت شفقة عارمة.

هكذا تمّ استقبال « حمراء الشعر ».

« رامپدولاغروس پوتر »

سوف يذهبون من ناحية « مصباح الغرقى » باتجاه الأرصفة حيث الليل جميل. تركوا شارع « باس دي ساڤوتييه » وانحدروا من « رامپ دولاغروس پوتر ». وتمكّن « الضخم » من اكتشاف نجم لم يسبق له قطّ أن رآه:

- انظر... نجم جديد... إنه لي.

« الضخم » مسرور، فقد ربح نجماً. ينبغي أن يكون قد مات اليوم بطل، بطل من أولئك الذين يستحقّون أغنية لأن « الضخم » اكتشف نجماً جديداً. وبحث « يواكيم » بلا جدوى عن نجم. وانطونيو بالدوينو يتساءل عمّن قد يكون مات هذه الليلة. هناك أبطال في كل مكان. هو أيضاً سوف يتلألأ في السماء عندما يموت. و« الضخم » هو الذي سيكتشفه إلا إذا كان المكتشف ولداً، غلاماً من الشارع يطلب الإحسان وخنجرٌ مخبأ في حزامه. إنهم يحبّون أن يتنزهوا هكذا في الشوارع المقفرة عندما يغمر البدر المدينة بضوئه الأصفر. ليس هناك مارّ واحد، والنوافذ مقفلة، وكل شيء نائم. لقد عادوا فأصبحوا أسياد المدينة كما في الأيام التي كانوا يتعاطون فيها الشحاذة. إنهم رجال المدينة الأحرار الوحيدون، الشبّان الأشرار: يعيشون على ابتسام الحظّ ويغنّون في الأعياد وينامون فوق حصباء الميناء ويعشقون الخادمات ولا يعرفون قاعدة للنوم أو للاستيقاظ. إن « زي

لاكروڤيت » لم يشتغل يوماً. ها قد بدأ يشيخ وكان على الدوام لصاً صغيراً ومشاغباً وملاكماً باليدين والرجلين وناقراً على القيثارة. وكان انطونيو بالدينو أفضل تلاميذه. بل لقد فاق أستاذه. لقد عمل في كل شيء: كان مستخدماً في مزارع التبغ وبطل ملاكمة وفناناً في السيرك. ولكن حياته الحقيقية هي أن يؤلف سامبا من حين إلى آخر وأن يذهب لغنائها في حفلات الزنوج الراقصة بالمدينة. وأما « يواكيم » فإنه يعمل ثلاثة أيام أو أربعة في الشهر عندما تكون به رغبة في العمل. فهو يحمّل طروداً لمساعدة الحمّالين عندما لا يكون عددهم كافياً للقيام بذلك. و« الضخم » يبيع الصحف عندما لا يكون بالدو في « باهيا ». وأما إذا عاد فالأمر ينتهي. إنه يصحب صديقه في تلك الحياة الطيّبة التي تنقضي في الكسل والتسكّع في المدينة النائمة. ويسأل انطونيو بالدوينو:

ـ هيه يا أولاد، هل نرسو في « الفانوس »؟

ـ ولم لا؟

إن « رامپ دولاغروس پوتر » ساكنة في هذه الساعة من الليل. لقد أنهى المصعد القديم خدماته والبرج مشرف على المدينة. أكثر النوافذ ارتفاعاً مضاءة. أولئك هن المومسات اللواتي صعدن من الشارع وفرغن من آخر زبائنهن.

« يواكيم » يصفر لحن سامبا. إنهم صامتون. انطونيوبالدوينو يفكر في ما روته له « آميلي » من حكاية « لندنلڤا ». لا بد أنها بلغت الآن من الانحدار مبلغاً جعل أياً كان يمتلك جسدها. لم تعد سيّدة نفسها، بنت الكومندور الغنيّة، بل فتاة رخيصة على قارعة « رامپ دولاغروس پوتر »؛ تبيع نفسها للرجال لأدنى شيء. ما أعجب ما

تتغير الأشياء! ما عليه إذا رغب إلاّ صعود الدرج حتى الطبقة التي تسكن فيها فيضمّها بين ذراعيه. ما عليه إلا أن يدسّ القطعة. واستذكر هربه من ممرّ «زومبي‌دي پالمييه». لو لم تختلق «آميلي» تلك الأكاذيب لبقي إلى الآن عند الكومندور، ولكان ظلّ ينظر إلى «لندنلڤا» نظرته إلى قدّيسة، ولبقي يعمل في المحلّ التجاري.من يدري؟ ربما كان حال دون إفلاس معلّمه. ولكنه كان سيكون عبداً. لقد أحسنت «آميلي» وهي تظنّ أنها تسيء. هو حرّ الآن، حتى أن في وسعه أن يمنح لنفسه «لندنلڤا» إذا عنّ له ذلك. لقد كانت منمّشة، وسحنتها سحنة قدّيسة ـ لم يسبق له قط أن نظر إليها بعين الشهوة. ولكنه منذ أن اختلقت «آميلي» أنه كان يختلس إليها النظر وهي تستحمّ لم يعد يهتمّ بامرأة اخرى. وأيّ امرأة ضاجعها كان دائماً يتصوّر أنها «لندنلڤا». حتى «روزندا روزيدا». لقد وهب «روزندا» للسائق. إنها ترقص في هذه الأيام في حانة يرتادها المفلسون، وهي أيضاً تتعاطى الهوى، وقد سبق لها أن حاولت اقتناصه.كانت «روزندا» خلاسية مغرورة: ها هي ذي الآن تدفع الثمن. لم تكن لندنلڤا مغرورة ولكنها أبغضته. وها هي ذي أيضاً تدفع الثمن. إنها تذرع الأرصفة في «رامپ دولاغروس پوتر» حيث تعيش أخسّ النساء وأكثرهن شيخوخة في «باهيا». وفي وسع انطونيو بالدوينو الحصول عليها متى رغب.

ولكن لِمَ ليس سعيداً إذن؟ لِمَ يشعر على العكس أنه حزين، ولِمَ لا يحفل بمنظر القمر بدراً؟ ما الذي ينتظره ليصعد إلى الطبقة الخامسة من الرقم ٣٢ ويقرع باب «لندنلڤا؟ ذاك هو بالضبط البيت. سوف يمرّون من أمامه. وهبّت ريح باردة فأرعشت انطونيو.

وفجأة خرجت من الرقم ٣٢ امرأة مشعّثة الشعر. وما إن ظهرت على عتبة الباب حتى عرف فيها بالدوينو «لندنلڤا». ولكنها ليست سوى خرقة بشريّة، شكل فقد اسمه في «رامپ». إن وجهها، وجه المرأة الحمراء الشعر، مليء بالأخاديد، وقد غدت يداها مرتجفتين وعيناها جاحظتين. الريح تعبث بشعرها، ها هي ذي تتوقف أمام الرجال وتومىء وتشير وتبسط ذراعين ضارعتين:

ـ «ملريسين» لشرب زجاجة بيرة... «ملريسين» بحق حبّك لأمك...

والرجال بُكْمٌ من الذعر. إنها تفكر أنهم لن يعطوا شيئاً:

ـ سيكارة إذن... سيكارة... لم أدخن منذ يومين.

مدّ «يواكيم» يده بسيكارة. شدّت عليها «لندنلڤا» بأصابعها النحيلة وضحكت. أجل، إنها «لندينلڤا» بعينها. ولهذا يرتجف انطونيو بالدوينو وكأنّ به حمّى. هبت من البحر ريح باردة ـ لقد ملأ وجود المرأة كيانه برعب عميق. إنّه يرتجف، هو خائف، يريد أن يركض، أن يهرب إلى أقصى الدنيا ولكنه ظلّ مسمّراً إلى الأرض ينظر إلى وجه«لندنيلڤا»المعروق ـ لم تعرفه، بل إنها لم تره. إنها تدّخن سيكارتها وتسأل بصوت عذب يذكّر بـ«لندنلڤا» الأخرى، «لندنيلڤا»التي كانت تجري في حديقة «الناصرة» العامة وتلعب مع الزنجي الصغير بالدو:

ـ وبيرتي؟ الا تدفعون لي ثمن زجاجة صغيرة من البيرة؟

ووفق انطونيو بالدوينو إلى إخراج «ملريسين» من جيبه ـ ودفعها إلى المرأة التي كانت تضحك وتنشج بالبكاء معاً. وإذ كان يرتجف من الفزع فقد راح يصعّد في الطريق راكضاً، ولم تهدأ نفسه إلا عند «جوبيابا»، وأخذ يبكي «وأبو القديس» يلاطفه كما في

اليوم الذي أصبحت فيه « لويزا » مجنونة.

وعندما أفرخ روعه (كان الخوف قد لازمه بضعة أيام) رجع إلى « لندنلڤا ». وفي الغرفة التي كان يشغل القسم الأكبر منها السرير الذي يتّسع لشخصين كانت « لندنيلڤا » تحتضر. إن « آميلي » تخنق عبراتها. ودخل على مهل كما أوصته فتاة كانت تنتحب عند الباب. لم تفاجأ « آميلي » بمرآه. وضعت إصبعاً على فمها لتأمره بالتزام الصمت. واقتربت منه فسأل:

ـ مريضة؟... أشار بإصبعه إلى « لندنلڤا ».

ـ إنها تحتضر...

على عتبة الموت يعثر من جديد على « لندينلڤا » القديمة، « لندنيلڤا » ممرّ « زومبي دي پالمييه ». وجهها حسن هادىء. وقد استعادت ملامح القديسة. ويداها، يعثر من جديد على يديها اللتين كانتا تعزفان على البيانو وتعيثان بالورود فساداً. لم يبق شيء من « لندينلڤا » ساكنة « پنسيون مونت كارلو » ولا من « ليندا » المقيمة في « الشارع الأسفل » ولا من ذات الشعر الأحمر القاطنة في « الشارع المصعّد ». عادت بنت الكومندور الساكنة في ممرّ « زومبي دي پالمييه » بانتظار الخطيب الذي يجب أن يأتي على « السفينة الشراعية كاترينيت ». ولكنها تحركت وبدت « لندنلڤا » أخرى. إن هذه لم يعرفها انطونيو بالدوينو. هذه هي الخطيبة، هذه هي عشيقة « غوستاڤ »، هذه هي أم « غوستاڤ » الصغير. إنه وجه امرأة شابّة يبتسم. إنها تهمس بكلمات غير واضحة. وتقترب منها « آميلي » وتمسك بيدها. تقول إنها تريد ابنها، فليؤت به قبل أن تكون قد ماتت. وتشيح « آميلي » وعيناها مغرورقتان بالدمع. ويسأل انطونيو بالدوينو:

ـ والطبيب؟...

ـ ليس في وسعه أن يفعل شيئاً... قال إنه لم يعد أمامنا الآن سوى الانتظار...

ولكن انطونيو بالدوينو لا يستسلم. لقد التمعت في ذهنه خاطرة:

ـ سوف أحضر الأب « جوبيابا »...

قالت « آميلي »:

ـ مرّ على منزلي وأحضر الولد.

وهو الذي كان قد جاء إلى هنا لينتقم، ليضاجعها ويرمي بعد ذلك قطعة بأربعين فلساً تحت السرير؛ جاء ليشتمها، ليقول لها، لهذه المرأة البيضاء ما يعتقده فيها وفي مثيلاتها، وأن زنجياً يفعل بهن ما يشاء؛ والآن ها هو ذا يطلب النجدة من « الأب جوبيابا ». إذا شفيت فإنه، هو بالدوينو، سيختفي. ولكن إذا ماتت فماذا يبقى له في الحياة؟ لا يبقى له إلا « طريق البحر »، الطريق الذي سلكه « فيرياتو القزم » الذي لم يكن له أحد في الدنيا. وعندها فقط أدرك انطونيوبالدوينو أنه سيبقى وحيداً بلا سبب للعيش إذا ماتت هذه المرأة.

وعاد ومعه الولد. لم يكن « جوبيابا » هناك ـ لم يعرف أحدٌ إلى أين ذهب، وعبثاً بحث عنه بالدوينو. لقد لعن الساحر العجوز. لقد قاد الولد ممسكاً بيده فانقاد له الصغير. أنفه أنف « لندنلقا » وفي وجهه بقع النمش نفسها. لقد طرح مئة سؤال، كان يريد أن يعرف كل شيء. وردّ انطونيوبالدوينو على أسئلته مستغرباً من أين جاءه طول الصبر.

وحمل الولد لصعود السلّم. إن « آميلي » تخنق بعض العبرات:

ـ ادخل... إنها النهاية...

وأنزل انطونيو بالدوينو الولد بالقرب من السرير. فتحت «لندنيلڤا» عينيها:

ـ يا صغيري...

أرادت أن تبتسم، ولكنها لم تفلح في أن تقدّم إلا تقطيبة، لقد خاف الصغير فراح يبكي. وأبعدته «آميلي». بعد أن قبّلت «لندنلڤا» جبينه. كانت تريد أيضاً أن تقبّل شفتيه، تينك الشفتين الْمُلحِمتين اللتين هما شفتا «غوستاف» الآخر ـ ولكنها لا تستطيع... ها هي ذي الآن تبكي، إنها لا تريد أن تموت. هي التي طلبت الموت مرات كثيرة! إنها تحسّ إحساساً غامضاً بان هناك قادماً جديداً في الغرفة. وسألت «آميلي»:

ـ من هنا؟

«آميلي» مرتبكة ولا تدري إذا كان عليها أن تجيب. ولكن انطونيو تقدّم غاضاً طرفه. لو أن أحد أصدقائه رآه الآن لما عرف لماذا هو يبكي. وعندما عرفته «لندنيلڤا» حاولت أن تبتسم:

ـ بالدو، لقد كنت خبيثة معك...

ـ لا يهمّ...

ـ سامحني...

ـ لا ينبغي أن تقولي هذا... لا ينبغي أن تبكي من أجلي...

ومرّت بيدها على رأس الزنجي الأجعد، وماتت وهي تقول:

ـ سوف تساعد «آميلي» في تربية ابني يا بالدو. احْمِه...

وارتمى انطونيو بالدوينو عند قائمة السرير مثل زنجيّ عبد.

يريد أن يكون النعش أبيض، مثل نعش عذراء. ولكن أحداً لا يفهم لماذا،حتى «جوبيابا» الذي يعرف كثيراً من الأمور. ووافق «الضخم» لأنه طيّب جداً، ولكنه كان في أعماقه مذعوراً لأنه لم يسبق له أن رأى نعشاً أبيض يضمّ جسد بنت من بنات الهوى. «آميلي» وحدها بدا أنها فهمت:

ـ كنت تحبّها كثيراً أليس كذلك؟ لقد سبّبت لك كثيراً من الشقاء... ذلك أني كنت غيري، فسادة البيت كانوا يحبّونك جداً... كان قد مضى عليّ في خدمتهم عشرون عاماً. كنت قد ربّيت الصغيرة. كانت تستأهل مصيراً أفضل... يا للحلوة المسكينة...

ولكن انطونيو بالدوينو لم يغيّر رأيه. بسط يديه وشرح بذلك الصوت الخفيض الذي يصدر عنه في بعض الأحيان:

ـ كانت عذراء، هل تسمعون؟ أقسم أنها كانت كذلك... لم تكن ملكاً لأحد... كانت تعتاش من ذلك، ولكنها لم تكن تبذل نفسها... كانت لي أنا، أنا وحدي... حين كنت أرافق أخرى لم يكن في مخيلتي سواها... أريد لها نعشاً أبيض...

أجل، لم يمتلك جسدها أحد لأنهم جميعاً اشتروها. وحده الزنجيّ انطونيو بالدوينو الذي لم يضاجعها قط امتلك جسدها بألف شكل، في جسد «دوس ريس» الذي لم يسبق أن مسّه أحد، وفي عجيزة «روزنداروزيدا» المتماوجة. هو وحده امتلك جسدها في أجساد جميع النساء اللواتي ضاجعهنّ. وفي المغامرة الرائعة، مغامرة بالدوينو الأسود و«لندنيلڤا» البيضاء، كانت هذه على التوالي بيضاء وسوداء وخلاسية.

حتى أنها كانت تلك الصينية الصغيرة في مفترق طرق « سيّدة السلام » ؛ كانت بدينة وهزيلة ؛ كان لها صوت رجولي ذات ليلة على الشاطىء ؛ كذبت أيضاً بلسان الزنجية « حنّة »... ولكن لا يمكن أن تدفن كما تدفن عذراء ، يا انطونيوا !.. وحاولت « آميلي » أن تشرح له أن « لندنيلڤا » أحبّت « غوستاڤ » وأن « غوستاڤ » امتلك جسدها كل الامتلاك من غير أن يشتريها . ولكن انطونيو بالدوينو أصمّ أذنيه : إنه يظنّ أن هذه أيضاً مكيدة من « آميلي » لإبعاده عن « لندنيلڤا » .

لكي يساعد الزنجي انطونيو بالدوينو ابن « لندنلڤا » سعى لأن يحصل على عمل على آلة رفع الاثقال بدلاً من « كلاريمون » الذي قتلته إحدى الرافعات. سوف تكون له مهنة ويصبح عبداً للساعة ولرؤساء العمال وللرافعات وللبواخر . لكنه إذا لم يستسلم لهذه الأمور فلن يكون أمامه سوى « طريق البحر » .

ظلال الرافعات العملاقة تنعكس على صفحة الماء . البحر الأخضر المزيّت يدعو الزنجي بالدوينو . الرافعات تصطنع عبيداً وتقتل الناس ، وهنّ عدوّات الزنوج وحليفات الأغنياء . البحر يصنع الناس الأحرار . لن يكون عليه إلا أن يغطس ، الزمن اللازم لقهقهة . ولكن « لندينلڤا » داعبت رأسه بيدها وطلبت منه أن يرعى ولدها .

يوم الإضراب الأول

قضى انطونيو بالدوينو الليل في إفراغ سفينة سويدية كانت قد جلبت الموادّ اللازمة لسكّة حديديّة، وكان ينبغي وسقها بالكاكاو في الليالي المقبلة. وكان ينقل حملاً ثقيلاً عندما التقى بـ« سيڤرينو » وهو خلاسيّ نحيل، فقال له:

ـ اليوم يُعلن إضراب التُرامات.

لقد مرّ زمن طويل بانتظار هذا الإضراب. فقد قام مستخدمو الشركة التي تؤمّن خدمات الإضاءة والتلفون والنقل المشترك في المدينة بعِدّة محاولات للمطالبة بزيادة أجورهم. وكانوا قد قاموا بإضراب أول، ولكنهم أنصاعوا لوعود لم يلتزم بها أحد. وها قد مرّ ثمانية أيام والمدينة تهيء نفسها للاستيقاظ محرومة من الترام والتلفون. والإضراب الذي كان يؤجّل يوماً بعد يوم ظل راكداً لا ينفجر. وهكذا فإن انطونيو بالدوينو لم يُعِرْ بلاغ « سيڤرينو » كبير اهتمام. ولكنه ما لبث أن سمع زنجياً طويل القامة يقول:

ـ علينا أن نقف إلى جانبهم...

كانت الرافعات تلقي بلفافات ضخمة من الحديد على الرصيف. كانت كأنها سلاحف ضخمة، وكان الزنوج ينقلونها على ظهورهم إلى المستودعات من غير أن يقطعوا محادثتهم. وكانت صفارة رئيس العمال توزّع الأوامر. أحد البيض كان يجفف وجهه بزنده ويقذف بعرقه بعيداً:

ـ أتظن أنهم سينالون شيئاً ؟

وكانوا يرجعون بخطى حثيثة إلى لفافات الحديد. وهمس « سيفرينو » وهو يرفع حمله :

ـ نقابتهم تملك من المال ما يكفي للصمود...

ثم ابتعد بحمله. وكان انطونيوبالدوينو يرفع قطعاً من قضبان السكة الحديدية.

ـ في كل شهر يرسل المال إلى النقابة على النقابة أن تتحمّل...

أعلنت صفارة رئيس العمال فترة التبديل. كان فريق النهار ينتظر، وسرعان ما حلّ محلّ الفريق الخارج ـ وظلت موادّ السكة الحديدية تنتقل إلى المستودعات. كانت الرافعات تئنّ وتئزّ.

إنهم يخرجون زمراً صغيرة، وها هو ذا انطونيو بالدوينو يتذكّر عند الباب أنه في هذا المكان بالذات كان رجل يلقي خطاباً فاقتيد إلى مركز الشرطة. لم يكن يومها إلا صبياً، ولكنه يذكر ذلك تماماً. لقد صرخ واحتجّ الفريق كلّه على التوقيف. صرخ للذّة الصراخ لأنه كان يحبّ التعرض بالنقد لرجال الشرطة. واليوم ينبغي أن يصرخ من جديد كما في الأيام التي كان يسرح فيها في الشارع من غير أن يرى الرافعات العدوّة المستعدّة دائماً لسحق الرؤوس.

انطونيو بالدوينو يمشي وحيداً. لقد تناول في الساحة قدحاً من عصير الـ« پوبا ». وكان بجانب الزنجيّة التي كانت تبيع العصير رجال يتناقشون في أمر الاضراب.

وسار انطونيو بالدوينو وهو يغنّي أغنيات لـ« لمپيون » :

تكرّمي بأني تعطيني يا أمي
لأشتري لنفسي حزاماً
مع جيوب لحفظ الرصاص
فأنا أريد أن أحارب من أجل « لمپيون ».

وناداه أحد الرفاق:

ـ هيه بالدو!

وأشار الزنجي بيده واستمر في الغناء:

يبدو أنّ زوجته
تعاني الآن آلاماً
ما عليها إلا أن تخيط ثوباً
من دخان قطار

ثم إنه أضاف بصوت خافت أخرجه من بين أسنانه:

إنه « لمپ »، « لمپ »، « لمپ ».
إنه « لمپ »، « لمپ »، إنه « لمپيون ».

لقد شلّ إضراب الترام العمل: يُخيّل أنه يوم الأحد ـ يسود نشاط غير مألوف. رجال تجمّعوا زمراً يتناقشون. صغار المستخدمين في المحلاّت ذاهبون سيراً على الأقدام وهم يضحكون متخيّلين هيئة ربّ العمل العاجز عن مؤاخذتهم لوصولهم متأخّرين ـ صبيّة تقطع الشارع على عجل وتبدو خائفة من شيء ما. المدينة حافلة بمستخدمي « الشركة » الذين يعلّقون بحماسة على الأحداث. انطونيو بالدوينو يحسدهم لأنهم يفعلون شيئاً من تلك الأشياء التي كان يحبّ أن يفعلها، بينما هو لا يدري ما يفعل في هذا الصباح الجميل المشمس. جماعات من الناس تتجاوزه. إنهم جميعاً ذاهبون إلى النقابة القائمة

هناك في شارع خلفي. واستمرّ بالدوينو يمشي وحده في الشارع المقفر. هو يسمع ضجّة أصوات في الشارع الآخر. يخيّل أن أحدهم يخطب في النقابة. انطونيو بالدوينو هو أيضاً من نقابة عمّال الأرصفة. بل لقد حكوا بشأنه لأجل الإدارة. يجب أن يعرفوا أنه شجاع حازم. ولكن ها إن رجلاً اشقر كان قد شرب قليلاً يناديه وهو يمضغ سيكارته:

ـ أنت أيضاً ستُضرب أيها الزنجيّ؟ الذنب في هذا كلّه ذنب الأميرة «إيزابيل»[1]. هل سبق لك أن رأيت أنت زنوجاً يُضرِبون ويَدّعون الترامات معطّلة؟ عليهم أن يسوسوا هذا كله بالسياط، فهي وحدها صالحة لخلق العبيد... هيا اذهب ونفّذ إضرابك أيها الزنجيّ القذر! ألم يكن من الحمق تحرير هذه الحثالة؟ اهرب، لا ترغمني على أن أبصق عليك يا ابن الكلب...

بصق الرجل على الأرض. إنه سكران، ولكن بالدوينو غير قادر على مقاومة الرغبة في إرساله للرقص فوق زفت الشارع. وبعدها مسح يديه وراح يتساءل عن سبب وجود أناس يشتمون الزنوج بهذه الطريقة الإضراب يشمل جميع سائقي التراموايات وعمال الجرّ والتنوير وموظّفي التلفون. وبينهم عدد كبير من الأسبان، عدد كبير من البيض أشدّ بياضاً من هذا الشخص. ولكن، كما يقول «جوبيابا» الآن أصبح كل ما هو فقير زنجياً.

صدرت عن الساحة أصوات جلبة. إنهم مستخدموا المخابز وقد

---

(١) كانت الأميرة ايزابيل بنت الأمبراطور «بيدرو» الثاني قد وقّعت عام ١٨٨٨ بوصفها ولية العهد وثيقة بتحرير السود.

انضمّوا إلى الإضراب. الصبية الذين يوصلون الخبز يقلبون سلاله في الشارع فيهجم عليه الأولاد، وحتى خادمات البيوتات الثريّة جئن يلممن الخبز مجاناً.

عندما جاءوا يبحثون عنه كان في غرفة «آميلي» يحبو على أربع ملاعباً «غوستاف» الصغير.

- انظر، أنا الغول...

نهض دفعة واحدة. «سيڤرينو» يضع يده على كتفه ويعلن:

- أنا بحاجة إليك يا بالدوينو.

- لأيّ شيء؟... سأل بالدوينو وقد راح يفكر في العراك.

- سوف تجتمع النقابة...

الزنجي «هنري» يجفّف وجهه من العرق:

- لم يكن من السهل العثور عليك...

نظروا إلى الصغير الأبيض الذي كان جالساً على الأرض. قال انطونيو بالدوينو بارتباك:

- هذا ابني...

- نريد الانضمام إلى الإضراب ونحتاج إلى صوتك في الاقتراع.

عندها ترك «غوستاڤ» الصغير في عهدة «الضخم» وخرج سعيداً جداً لمجرّد التفكر في أنه هو الآخر سوف يُضرِب. في النقابة اضطراب فظيع. الجميع يتحدّثون دفعة واحدة ولا يمكن سماع أحد. المكتب ينعقد ويطالب بالصمت. رجل نحيل يقول لبالدوينو:

- هناك بعض رجال الشرطة...

لكن بالدويـنو لا يرى بزّات. الرجل النحيل يوضّح:

- بثياب مدنية...

« سيڤرينو » يلقي خطاباً. ليس مستخدمو المواصلات هم وحدهم الذين يتضوّرون جوعاً. هناك أيضاً عمال الأرصفة في المرفأ. ومن جهة ثانية فإن دعم الرفاق العاملين في المواصلات واجب تضامني. جميعهم أخوة. الخطب تتوالى. أحد رؤساء العمال (رجل أحمر قصير كان يلعب معهم بالنرد في « مصباح الغرقى » أثناء ساعات الراحة) يلقي خطاباً يقول فيه إن كل ذلك غباء في غباء، وأن لا سبب يدعو إلى الإضراب، وإن كل شيء صائر إلى الأفضل. ولكنهم يهزأون به ويخرجونه.الزنجي « هنري » يقرع الطاولة بقبضته ويؤكد:

ـ أنا زنجيّ أبله ولا أحسن تنميق العبارات. ولكني أعرف أن هنا رجالاً عندهم نساء وأطفال جائعون. وهؤلاء الأشقياء الذين يقودون الترامات جائعون هم أيضاً. نحن سود وهم بيض ولكننا في هذه الساعة جميعاً أناس جائعون.

وفاز الانضمام إلى الإضراب بالاقتراع.وقد تمّ ذلك بفضل صوت انطونيو بالدوينو ـ واكتُشف فيما بعد فقط أن أشخاصاً غرباء عن النقابة قد صوّتوا « ضد » الإضراب، وأنهم لم يكونوا حتى من عمّال الأرصفة.

وحُرّر بيان، وأرسلت لجنة كلّفت دعوة عمال آخرين لمعاضدة عمّال الأرصفة. وكان انطونيو بالدوينو من ضمن هذه اللجنة، وكان سعيداً لمجرّد التفكير في أنه سيعارك ويصيح ويقاتل، وهي أمور يفضلّها على كل ما عداها.

(أيها الرفاق عمّال المواصلات)

« لقد قَرّر عمال الأرصفة المجتمعون في نقابتهم الانضمام إلى

حركة الإضراب التي قام بها رفاقهم عمّال المواصلات. وهم يقدّمون دعمهم غير المشروط للمضربين في كفاحهم من أجل مطالبهم العادلة. أيها الرفاق عمّال المواصلات، في وسعكم الاعتماد علينا. نطالب بزيادة الأجور! نطالب بيوم العمل المكوّن من ثماني ساعات! نطالب بإلغاء الغرامات!

التوقيع: الإدارة»

قرأ انطونيو بالدوينو البيان في جو من حماسة شاملة. وأخذ سائقو الترامات يتعانقون. لقد سبق أن انضم إليهم عمّال الأفران. وها هم أولاء عمال الأرصفة ينضمّون. ليس هناك من شكّ: سوف يكون النصر حليف الإضراب.

توقّفت جميع خدمات التلفون والمواصلات الكهربائية. ولن تكون هناك إنارة في المساء. وكان العمّال قد أرسلوا إلى إدارة الشركة مذكّرة يعرضون فيها مطالبهم. وأجابت الإدارة أنها ليست موافقة وأنها ستطلب عون الحكومة. وبغياب الطاقة الكهربائية لم تصدر الصحف. وكانت الشوارع مزدحمة بالناس، وزمرٌ من العمّال تتناقش عند كل مفترق. وأخذت دوريات من الخيّالة تذرع الطرقات. وسرت شائعة مفادها أن إدارة المواصلات توظّف عاطلين عن العمل بأجور باهظة لكسر الإضراب. وأجرى أحد المحامين، الدكتور «غوستاف بريراس» رئيس إحدى الجمعيات العمّالية، حديثاً مطوّلاً مع الحاكم في هذا الموضوع. وبعدها أعلن للنقابة أن الحكومة ترى أن مطالبهم محقّة وأنها ستجري محادثات مع الشركة. وصفّقوا له تصفيقاً حادّاً. ومدّ المحامي الشاب ذراعيه وكأنه يتلقّى مسبّقاً الاقتراعات اللازمة لانتخابه نائباً. وقال «سيڤرينو» بصوت مرتفع.:

ـ خدعة.

كان انطونيو بالدوينو مذهولاً بهذا القدر من الخطابات. ولكنه مسرور. كان الأمر جديداً عليه: الإضراب... لم يسبق له قط أن فكّر فيه. وشعر أنه وأصدقاءه كانوا في هذه اللحظة سادة المدينة. السادة الحقيقيّون. وكان حسبهم أن يشاؤوا فلا يكون هناك نور ولا ترامات ولا تلفون للعشّاق. انتهى أمر تفريغ الباخرة السويدية من قضبان السكة الحديدية. وأمر تحميل أكياس الكاكاو المكدّسة في المستودع رقم ٣. لقد شُلّتِ الرافعات، وغلبها أولئك الذين كانت تقتلهم بالذات. وجميع أولئك الذين يملكون هذا كله، ويتحكّمون بهذا كله، كانوا مختبئين، ولم تكن لهم الشجاعة على الظهور. لقد طالما تملّك انطونيو بالدوينو ازدراء طاغٍ للذين يعملون. إنه كان يفضّل أن يسلك « درب البحر »، أن يرمي بنفسه في الليل في حوض على أن يعمل،لولم تعهد إليه « لندنلڤا » بابنها. ولكنه يشعر الآن باحترام للعمّال. لن يكونوا عبيداً بعد اليوم لأن أحداً لا يستطيع شيئاً من غيرهم. إن هؤلاء الرجال الناحلين الآتين من اسبانيا ويقضون حياتهم فوق درجات الترامات لقبض أثمان الأماكن فيها، وهؤلاء الزنوج العمالقة الذين ينقلون الأحمال الثقيلة في المرفأ أو يحرّكون الأجهزة في مركز الطاقة الكهربائية، جميعهم أقوياء ومصمّمون والمدينة في قبضاتهم. إنهم يمرون في هذه اللحظة ضاحكين في ألبسة زريّة، وكثير منهم حفاة، وهم يسمعون بآذانهم شتائم أولئك الذين يعتبرون أن الاضراب ينال من كرامتهم، ولكنهم يضحكون لأنهم الآن يعرفون أنهم قوّة. لقد اكتشف انطونيو بالدوينو هو الآخر ذلك، وهو له بمثابة ولادة ثانية.

نهض الرجل ذو المعطف وسط البار. إنّه يتوجّه إلى أحد العمّال:

ـ لماذا تُضربون؟

ـ من أجل تحسين الأجور.

ـ ولكن ما الذي تحتاجون إليه؟

ـ هه، المال...

ـ تريدون أن تكونوا أغنياء أنتم أيضاً؟

العامل لا يدري ما يجيب. الحق أنه لم يسبق له أن فكر يوماً في أن يكون غنياً. كل ما يريده قليل من المال فوق ما يقبضه كيلا تظل امرأته تلحّ في مطالبته، ولكي يدفع أجر الطبيب ويشتري لنفسه بذلة غير التي يلبسها وهي قد رثّت حتى بانت خيوط نسيجها.

ـ تريدون أشياء كثيرة. أين يمكن رؤية عمّال لهم هذا القدر من الحاجات؟

ما يزال العامل خجلاً. وتقدّم انطونيو بالدوينو من المتحاورين. وأكمل الرجل ذو المعطف:

ـ نصيحة: تخلّوا عن هذا الإضراب. إن هؤلاء الناس مخلّون بالنظام. يريدون أن يجعلوكم تعتقدون... سوف تجهدون وتجهدون حتى تنتهوا بفقدان وظيفتكم. الذي يطلب كل شيء ينتهي بفقدان كل شيء.

طأطأ العامل رأسه. وتدخّل انطونيو بالدوينو:

ـ كم دفعوا لك لكي تقصّ هذا الهراء؟

ـ آه! إليكم واحداً من القادة، أليس صحيحاً؟

ـ إليك واحداً لن يتردّد في وضع يده على وجهك...

ـ أتعرف مَنْ تخاطب؟

ـ ليست بي رغبة في معرفته...

ما الفائدة من ذلك في الواقع ما داموا سادة المدينة؟ في وسع المرء اليوم أن يقول كل ما يدور في خلده.

ـ سأقول لك إذن من أنا، أنا الدكتور «مالاغويتا».

ـ آه! طبيب «شركة المواصلات»؟

هذه الكلمات الأخيرة لفظها «سيڤرينو». كان قد وصل برفقة زمرة من العمّال. كان الزنجي «هنري» ضخماً. وتسلّل الرجل ذو المعطف من غير أن يراه أحد. وانضمّ العامل الذي كان يتكلّم معه إلى الزمرة. وأوضح «سيڤرينو»:

ـ الإضراب ياصاحبي مثل هذه العقود التي تراها في الواجهات. إذا فقدت لؤلؤة منها هربت الباقيات. علينا أن نتماسك، هل فهمت؟

وأجاب المستخدم الذي كان اسمه «ماريانو» بهزّة من رأسه أن نعم.

وذهب انطونيو بالدوينو معهم إلى نقابة «المواصلات» لانتظار ما تسفر عنه المحادثات بين الحكومة وإدارة الشركة من حلول.

في مكتب النقابة كان أحد الزنوج ينهي خطاباً:

ـ كان أبي عبداً، وأنا أيضاً كنت عبداً، ولكني لا أريد أن يكون أولادي عبيداً.

وكثير من الرجال واقفون إذ لم يكن هناك كثير من المقاعد.

وفد من صبيان المخابز كان قد أتى حاملاً دعمه للمضربين في بيان يدعو البروليتاريا إلى الإضراب. وتعالى الصياح: « إضراب عام ». وكان قرب الباب أحد مخبري الشرطة يدخن. لم يكن وحيداً. ولكن أحداً لم يتنبه إلى ذلك. المتكلم الآن شابّ ذو نظارتين. إنه يقول إن العمال هم الكثرة الكاثرة في العالم، والأغنياء هم الأقلية الضئيلة. فلماذا يسمح لهم إذن أن يسمنوا بعرق الفقراء؟

انطونيو بالدوينو يصفّق. كلّ هذا جديد عليه، ومع ذلك فإنه طالما شعر به. الأغاني التي تحكي المآسي تقول الشيء نفسه تماماً، ولكن لا تقوله بمثل هذا الوضوح وإنما من غير إيضاحات. وها هوذا يتعلّم بالإصغاء كما كان يفعل من قبل في الليل على جبل « شاتر نيغر ». ونزل الشاب من فوق الكرسي الذي كان قد اعتلاه ليتكلّم. الزنجيّ الذي سبقه واقف قرب انطونيو بالدوينو؛ إن هذا الأخير يصافحه:

ـ أحسنت الكلام ياصاحبي. أنا أيضاً لا أريد أن يكون أولادي عبيداً.

الزنجيّ يبتسم. والآن جاء دور أحد ممثّلي الطلاّب للكلام. رابطة طلاّب الحقوق تعلن أنها مع المضربين. الخطيب يعلن أن جميع العمّال والطلاّب والمثقّفين الفقراء والفلاّحين والجنود ينبغي أن يتّحدوا في مكافحة « رأس المال ». لم يفهم انطونيو بالدوينو جيداً. ولكن جاره الزنجي شرح له أن « رأس المال » والأغنياء سيّان. وعندها وافق بقوّة. وبغتة أحسّ برغبة جامحة في أن يعتلي كرسياً ويلقي خطاباً هو الآخر. وتقدّم وهو يدافع بمرفقيه واعتلى كرسياً. وسأل أحد العمال:

ـ من هذا ؟

ـ أحد عمال الأرصفة... واحد مارس الملاكمة...

انطونيو بالدوينو يتكلم. هو لا يريد أن يلقي خطاباً أيّها الرفاق. إنه يقصّ فقط ما شاهده في حياته من مغامرات. يقصّ حياة الفلاّحين في مزارع التبغ، عمل الرجال المحرومين من النساء، عمل النساء في مصانع السيكار. هو يُشهد «الضخم» على أنّ ما يقوله صحيح. إنّه يقصّ ما شاهد. يقول إنه لم يكن قبل اليوم يحبّ الذين يعملون. ولكنه أخذ يعمل هو أيضاً لأجل ولده. وقد فهم الآن أن العمال لو أرادوا لبطل أن يكونوا عبيداً. لو أن الذين يزرعون التبغ عرفوا ذلك لأضربوا هم أيضاً...

النصر يكاد يحالفه. إنه لم يدرك بعد جيّداً نجاحه. لماذا هم يصفّقون له هكذا؟ مع أنه لم يقل شيئاً خارقاً للمألوف، ولا صرع أحداً، ولا قام بعمل يدلّ على شجاعة. لقد قصّ فقط ما كان قد شاهده. ومع ذلك فإنهم يصفّقون له، يمدّون أيديهم لمصافحته. أحد المخبرين يحدجه بعينيه واعداً نفسه وعداً قاطعاً بألاّ ينسى وجهه. وكان انطونيو بالدوينو أكثر فأكثر تحمّساً للإضراب.

انسحب الشابّ ذو النظارتين يتبعه أحد المخبرين. هناك اتّصال تلفوني من قصر الحكومة بالنقابة. إنه الدكتور «بريراس» يخبر أن الاجتماع سيمتدّ ليلاً إلى أن يتوصلوا إلى حلّ.

وسأله أمين سر النقابة:

ـ مناسب؟

ـ مشرّف ومرضٍ، أجاب الدكتور من الطرف الآخر من السلك.

دقّت الساعة السادسة في قبّة الجرس. ها هي ذي المدينة غارقة في الظلام.

ليلة الإضراب الأولى

الليل جميل والسماء الصافية زرقاء حافلة بالنجوم. لكأنها ليلة صيف. ومع ذلك فالناس في بيوتهم لا يذهبون للنزهة هذه الليلة. لأن المدينة غارقة في الظلام لا ينيرها مصباح واحد من مصابيح الشارع. كل شيء مطفأ حتى « مصباح الغرقى ».

لم يسبق أن كان المرفأ بمثل هذا السكون. الرافعات نائمة لأنّ عمّال الأرصفة لن يعملوا هـذه الليلـة. لقـد انتشر بحارة المركـب السويدي في حيّ المواخير. ولكن قلب المدينة نشط. الناس يخافون بلا نور. وفي المنازل يكبّر الضوء الأحمر المنبعث من قناديل البترول الظلال. وهذا يذكّر بالسهرات على جثث الموتى. انطونيو بالدوينو يتذكر مـزارع التبـغ وهـو يـذرع الشـوارع. هنـاك رجـل يلامس الجدران. إن يده على محفظته. يبدو وكأنه قابض على قلبه. تسمع أصوات أناشيد صادرة عن حلقة « جوبيابا ». هو اليوم نشيد حربيّ، نشيد تحرير. « زومبي دي پالمييه » يلمع في السماء الصافية. ذات يوم سخر طالبٌ من انطونيو بالدوينو وادّعى أن ذلك النجم هو كوكب الزُهرة. ولكنّه يسخر من الطالب لأنه يعلم أن هذا النجم هو « زومبي دي پالمييه » الزنجي الذي لم يكن يخاف، الذي مات كيلا يكون عبداً، الذي ينظـر الآن إلى بـالـدوينـو مكـافحـاً كيلا يكـــون « غوستاف » الصغير عبداً. إن يوم الإضراب هذا كان من أجمل أيام حياته. يماثل في جماله يوم الهرب في الغابات. يماثل في جماله اليوم

الذي فاز فيه ببطولة الملاكمة على « ڤنسان » بل أجل منه. لأنه الآن يعرف لماذا يكافح. ولسوف يحمل الآن النبأ إلى جميع الزنوج الذين يحضرون حلقة الأب « جوببيابا »: إلى « الضخم » و « يواكيم » و « زي لاكروڤيت » و « جوببيابا » نفسه. إنه عاجز عن معرفة السبب الذي جعل « جوببيابا » العليم بكل شيء لا يحدّثه عن الإضراب. « زومبي دي پالمييه » ـ الزُهرة كما يدّعون ـ يرمقه من السماء بعينه.

ألا يقال إن « ايشو »، « ايشو » الشيطان، يتصرّف على هواه؟ ألا يقال إنهم قد نسوا أن يطردوا منه الروح الشرّيرة ويرسلوه بعيداً إلى الناحية الأخرى من البحر على شاطىء افريقيا؟ في مزارع القطن بفرجينيا؟ إن « ايشو » مصرّ على تعكير العيد. « ايشو » يريد أن يغنّوا ويرقصوا على شرفه. « ايشو » يريد تكريماً، يريد أن ينحني « جوببيابا » أمامه ويقول له:

« ليباركك الإله ويسعدك! ».

وأن يردّ الحضور بصوت واحد:

« اللهم آمين ».

« ايشو » لا يريم. إنها المرة الأولى يحدث فيها مثل هذا الأمر في حلقة من حلقات « جوببيابا ». إن أصوات الأناشيد تنساب على طول المنحدر وتذهب لتموت تحت في مفترقات المدينة المضربة. ويستمرّ المبتدئون في الرقص. و « المريدون » ينظر بعضهم إلى بعض مشدوهين. وانسلّ انطونيو بالدوينو على مهل إلى الحفلة. إنه « مريد » وهو يتّخذ لنفسه مكاناً وسط المبتدئين الذين يرقصون. وما إن وصل حتى رحل « ايشو ». ها هوذا « الضخم » يعلن الآن عن حضور « اوشوسي ». ولكن قبل أن يأتي إله الصيد للرقص في جسد

إحدى المبتدئات طلب انطونيو بالدوينو الكلام وقال:

ـ أيّها الأصدقاء، أنتم لا تعرفون شيئاً... إن ما يدور في خلدي الآن هو أنكم لا تعرفون شيئاً. ينبغي أن تذهبوا إلى الإضراب. ماذا يفيدكم أن تصلّوا وأن تغنّوا لـ «اوشوسي»؟ إن الأغنياء يقفلون احتفال «اوشوسي». ألا تذكرون أن رجال الشرطة أقفلوا احتفال «اوشالا» حين كان القطب «اوشولوفان» العجوز؟. والأب «جوبيابا»، لقد ذهب معهم إلى السجن. ما الذي من حقه أن يفعله، الزنجي؟ ليس له الحق في أن يفعل شيئاً، الزنجي، حتى ولا أن يرقص للقدّيسين... هيه، إنكم لحمقى. يستطيع الزنجيّ كل شيء، يستطيع الزنجي أن يفعل ما يحلو له. الزنجي يُضرِب فلا رافعات ولا ترامات ولا نور. أين هو النور؟ النجوم، نقطة وانتهى الأمر. الزنجيّ يصنع النور والترامات. الزنجيّ والأبيض الفقير، إنهما سيّان، وفي يدهما كل شيء. ولكيلا يكون المرء عبداً ما عليه إلا أن يريد. يجب الذهاب إلى الإضراب أيّها الأصدقاء لأن مثل الإضراب مثل العِقد. حينما تكون اللآلىء مجتمعة فلا أحلى. ولكن إذا سقطت واحدة فرّت الأخريات. هيا أيها الرفاق، سنذهب إلى الإضراب كيلا نموت جوعاً. سوف ننضمّ إلى الآخرين.

وخرج انطونيو بالدوينو من غير أن ينظر مَنْ الذين رافقوه. «الضخم» معه، وكذلك «يواكيم» و«زي لاكروفيت». مدّ «جوبيابا» يديه وقال:

ـ لقد أخذهم «ايشو».

في النقابة لم يكونوا قد حصلوا بعد على أيّة نتيجة من الاجتماع

المنعقد في قصر الحكومة. وها هوذا «سيفرينو» يردّد لمن يرغب في سماعه:

ـ قلت لكم إنها خدعة. ألا ترى أن هذا الدكتور أخ مزيّف؟

الآخرون يحتجون. إنه محام، وهو متعلّم. وهو في هذه الساعة يناضل للدفاع عن حقوق العمال الْمُستَغَلّين. أحد مفتشي الترام يطري الدكتور «غوستاف». هناك حركات شتّى.

في صالة القصر الكبرى اجتماع. ولكن المجتمعين لم يتوصّلوا إلى أية نتيجة. «غوستاف» يلقي خطباً أنيقة يطالب فيها بالاستجابة للمطالب العمّالية:

ـ أنا لا أطلب بل أطالب...

إنه يتحدّث عن الإنسانية، عن الناس الذين يموتون جوعاً ويعملون ثماني عشرة ساعة في اليوم ويستأصلهم السلّ. ويُلمع إلى خطر الثورة الاجتماعية إذا بقيت الحال على هذا المنوال.

ويبدي ممثّلا الشركة ـ شابّ أميركي وسيد عجوز هو محامي الشركة وقد كان برلمانياً في وقت من الأوقات ـ مقاومة شديدة. إن أقصى ما يستطيعان فعله ـ كما قالا ـ هو الموافقة على ٥٠ ٪ من مطالب العمال. وهذا أيضاً حبّاً بالشعب ولكيلا تبقى المدينة محرومة من النقل والنور والتلفون. وأما التسليم لهم بكل شيء فلا. لِمَ لا يُعطَوْن المؤسّسة على الفور؟ والمساهمين؟ المستخدمون لا يفكرون إلا في أنفسهم؛ لا يهمّهم كثيراً أن يكون الأجانب قد وثقوا ببلدهم ووظّفوا أموالهم في الشركات البرازيلية. ما الذي سيقوله الأجانب؟ سيقولون إن البرازيليين سرقوهم وسيلحق الخزي بصيت البلد الحسن

(وافق الأميركي وقال: «يس»). ويأبى الخطيب أن يصدّق أن يكون الدكتور «غوستاڤ بريراس»، وهو رجل حسن الذكاء واسع الثقافة («غوستاڤ» ينحني)، ناقص الوطنية فيقبل أن يرى اسم بلده يمرّغه الأجانب. وأن لا يفكّر العمال في هذه النتائج فذاك أمر طبيعي. إنهم جهلة؛ لقد سبق أن حصلوا على أكثر مما يستحقون، وما كانوا ليفكّروا في الشكوى لو لم يحرّكهم محرّكون غرباء عن وسطهم. إنه طبعاً لا يستهدف أبداً بهذا الكلام ـ هو يشدّد على ذلك ـ الدكتور «غوستاڤ بريراس» الذي يعرف كل إنسان موهبته واستقامته (ينحني «غوستاڤ» من جديد ويتمتم: «طبعاً؛ إن نزاهتي فوق كل شبهة»). وخلاصة الأمر أن الشركة تودّ، كيلا تحرم الشعب من حاجات أساسيّة، الموافقة على ٥٠ ٪ من الزيادة التي يطالب بها العمّال. وهذه هي كلمتها الأخيرة.

أزفت ساعة العشاء من غير أن يتوصّلوا إلى حل. الحاكم ينسحب. الأميركي يعرض على «غوستاڤ» مكاناً في سيارته. محامي الشركة يقترح:

ـ لنذهب فنتناول العشاء: بمعدة ممتلئة نناقش بشكل أفضل.

مريحة هي هذه «الهدسن». هذا ما دار في خلد «غوستاڤ» وهو يحشر نفسه في السيارة بين المحامي والأميركي. وقدّم هذا الأخير بعض السيكار. سارت بهم السيارة بعض الوقت وهم صامتون. كانت السيارة تنساب في رخاء بقيادة سائق ببزّة رسميّة. العجلات تلتصق بقبضان الترام. وبغتة سأل المحامي الأميركي:

ـ وهذه الفكرة التي كانت قد خطرت لك يا مستر توماس؟

ـ آه، «يس»...

المحامي يوضّح لـ «**غوستاف**»:

ـ يا للصدف... تصوّر يا دكتور أننا كنا نتحدّث عنك في ذلك اليوم...

وأمّن الأميركي قائلاً من خلال نفثة من دخان السيكار:

ـ «يس»، «يس»...

ـ إني تعب، إني أشيخ...

احتجّ «**غوستاف**»:

ـ أنت تمزح.

ـ لا أريد أن أقول إني أستنكف عن المرافعة، لا، ولكن خدمة الشركة باتت عبئاً كبيراً عليّ. وقد فكرنا، المستر توماس وأنا، أن نعرض على أحدهم وظيفة المحامي الثاني في الشركة. هناك مكان لاثنين، أليس كذلك؟ وقد فكّرنا على الفور فيك... لا تشكرنا... (علّق «**غوستاف**» الحركة التي كان سيحتجّ بها على أن ضميره لا يسمح له بأية تسوية، وأكّد أنه لم يخامره لحظة أن الدكتور «غدس» يسعى لشرائه). لقد فكرت الشركة فيك، أو بالأحرى المستر توماس وأنا («**غوستاف**» يشكر) فكّرنا فيك بسبب صلاتك بنقابات عمّال الشركة. أنت محاميهم، وسوف تمثّل للشركة وجهة نظر العامّة. ستكون بمثابة صلة الوصل بين العمّال والشركة... إنك شابّ وبانتظارك حياة مهنيّة رغدة. والبرلمان ينتظرك. البلد بشكل خاصّ يعلّق آمالاً كبيرة على مواهبك. لاحظ أن دوافع الشركة في هذا الصدد أنبل دوافع ممكنة. كثيرون يظنّون أن الشركة لا تهتمّ بمصير العمّال. خطأ. وإليك البرهان: إننا ندعو فارسهم ليكون محامي

المؤسّسة. وبهذه الطريقة سيكون لهم بالتأكيد مدافع من أعضاء الإدارة. وأيّ مدافع!... إن هذا يريك بوضوح حسن نيّة الشركة...

السيارة تسير بيسر ورخاء. إن «زليخا» امرأة «**غوستاف**» لا تنفكّ تطالب بسيارة. الشركة مدخل إلى البرلمان. وها هوذا الأميركي العمليّ يعلن:

ـ الراتب: عشرة «كونتوات» في الشهر.

ولكن «**غوستاف**» يحتجّ بأن مسألة المال لا تهمّه. ما يهمّه هو الدفاع عن المطالب العمّالية. قد يكون مبالغاً فيها، هو لا يقول عكس ذلك، ولكن فيها بعض الحقيقة. وإذا قبل العرض فذلك لكي يكون فقط الحارس الطليعي لعمّال الشركة. وبديهي جداً انه لن يدافع عن التطرّفات...

وفي نهاية الوجبة قال الدكتور «غدس»:

ـ والآن في وسعك أن تزفّ النبأ السعيد إلى العمّال. قل لهؤلاء الأولاد (أجل، إنهم أولاد، هذا ما يؤكّده «**غوستاف**»، لا يلزم إلا الشيء القليل لإرضائهم) أن يعودوا غداً إلى العمل. سيحصلون على ٥٠ ٪ زيادةً، وهم يدينون بذلك للّطف الذي عرفتَ كيف توحي به...

ما إن خرج «بريراس» حتى بصق الأميركي على الأرض:

ـ سبق لي أن رأيت أوغاداً...

«غدس» العجوز يتلوّى من الضحك ويطلب شمبانيا للاحتفال بانتهاء الإضراب.

سيارة لـ « زليخا » والنيابة، وبيت في « كوپاكابانا »، وربما مزرعة كاكاو كبيرة. لا شك أن ٥٠ ٪ زيادة شيء جيد. ١٠٠ ٪ مطلب كبير كبير. وعلى كل حال، فإن المرء يطلب مئة ليحصل على عشرة. إنه لنصر، بالتمام والتأكيد. وقد منع بذلك أن يلطّخ الأجانب اسم الوطن.

في النقابة كان الزنجي انطونيو بالدوينو يلقي خطابه الثالث. ولماذا؟ لكي لا يكون ابن الدكتور « غوستاڤ بريراس » عبداً مثله، مثل جميع مفرّغي البضائع البيض والسود، مثل صبيان الأفران، مثل مستخدمي شركة الجرّ والتنوير والتلفون.

الزنجي « هنري » ينظف أسنانه بحسكة سمك. إنه يضع ابنه على ركبتيه ويقول:

ـ هل تحفظ درسك لغد يا بنيّ؟

الزنجيّ الصغير يضحك وقد أدخل اصبعه في أنفه المفلطح ويؤكد أنه يحفظه عن ظهر قلب. جاءت « ارسيديا » من المطبخ منذرة:
ـ غداً سيكون هناك أيضاً سمك اللياء...

ـ ما دام هناك سمك اللياء فكلّ شيء على ما يرام أيّتها الزنجيّة.

الزنجي يضاحك الزنجيّ الصغير. إنه يعرف دروسه، هذا الصبيّ الصغير، ويحسن الحساب.
ـ إنه لبطل، أليس صحيحاً يا « ارسيديا »؟

الزنجيّة تبتسم. الصغير يطلب من أبيه أن يحكي له حكاية. عندها قال الزنجيّ « هنري »:

ـ هناك زنجيّ مدهش ألقى خطاباً في النقابة. قال إن أبناءنا لن يكونوا عبيداً... يا بني، لن تكون عبداً أبداً.

ـ سائرة أحوال الإضراب؟

ـ سائرة وأي سائرة! ماذا يمكنهم أن يفعلوا من غيرنا. أما كيف يسير فسوف ترين. لقد نجح. هناك زنجي اسمه بالدوينو يقول عن الإضراب إنه رائع...

هو يقصّ على امرأته أحداث اليوم. عضلات العملاق التي يملكها تنتفخ تحت قميصه المقلّـم. ثم يأخذ ابنه من إبطيه ويوقفه أمامه:

ـ أيّها الصبيّ الصغير، لن تكون عبداً أبداً... ستكون حاكماً. إننا نحن الأكثر عدداً. نحن الذين ينبغي أن نحكمهم.

وينفجر ضاحكاً واعياً قوّته وحقّه. ويتلقّى الحاكم المقبل صفعات خفيفة عربوناً عن الصداقة. الزنجيّة «ارسيديا» تبتسم لزوجها في حنان:

ـ غداً سيكون هناك أيضاً سمك اللياء...

قفز «غوستاف بريراس» من التاكسي وراح يرتقي سلالم النقابة أربع أربع، وساد الصمت إذ دخل. جلس على الطاولة في المكان الذي أخلاه له الرئيس، وطلب الكلام:

ـ أيّها السادة، لقد اشتغل محاميكم طوال بعد الظهر مع مديري «شركة المواصلات». وخير ما في عملي وجهدي المخلص هو النبأ السارّ الذي أحمله إليكم. سوف أوجز. لقد سُوِّيت المسألة بحذافيرها...

المستمعون يمدّون رقابهم ليسمعوا بشكل أفضل.

- ... بفضل الجهود التي بذلها حاميكم. فبعد أن تناقشنا طوال بعد الظهر وصلنا إلى أن كل شيء يمكن تسويته بطريقة مشرّفة للطرفين إذا بذل كل منهما جهده.

همهمات.

- ... الشركة تعدل عن تصلّبها. وإذا عدلتم من جهتكم عن ٥٠ ٪ من مطاليبكم حصلتم على ما يرضيكم بالنسبة إلى الـ ٥٠ ٪ الأخرى، ووجب سريان مفعول الأجور الجديدة ابتداء من غد.

وصاح «سيڤرينو»:

- هذه سياسة المحامي أم سياسة العامل؟

وأجاب المحامي:

- إنها السياسة الفضلى. السياسة التي تتمثّل في أن تنالوا على مراحل ما لا يمكن نيله دفعة واحدة. وإذا أصغيتم إلى المحرّضين المحترفين فستخسرون المعركة؛ أكثر من هذا، إنها ستنقلب عليكم مثل سلاح ذي حدّين. سيقرع الجوع أبوابكم ويعشّش البؤس تحت سقوفكم.

- النقابة تملك ما يكفي لمساندة الإضراب.

- حتى لو امتدّ أجله إلى الأبد؟

- ينبغي طبعاً أن يتوقّف: لا يمكن أن تبقى المدينة بلا كهرباء وبلا ترامات. عليهم أن يعطونا ما نطلبه منهم. هيه، ماذا؟ لن نفقد شجاعتنا أيها الرفاق، أليس كذلك؟

وجه الدكتور «غوستاف» أحمر من الغضب:

ـ تهرفون بما لا تعرفون. أنا المحامي أعرف الأمور.

ـ ولكنا نحن نعرف كم يلزمنا كيلا نموت.

وأمّن بالدوينو قائلاً:

ـ أحسنت أيّها الزنجي.

طلب شابّ الكلام. صفّقوا له ما إن ظهر. وسأل انطونيو بالدوينو «هنري»:

ـ من يكون؟

ـ إنه «پيدرو كورومبا»[1] مناضل عتيق. مشارك قديم في الإضرابات. لقد شارك في الإضرابات في «سرجيپ» و«ريو» و«ساوپاولو». إني أعرفه وسأقدّمك إليه فيما بعد.

ـ أيّها الرفاق، إنهم يخونوننا. ليست المرّة الأولى أضرب فيها. إني أعرف ما الخيانة. لا يمكن أن يثق العامل إلا بالعامل. الآخرون لا يحفلون بنا جهاراً نهاراً. هذا (يشير إلى «غوستاڤ») أخ مزيّف. أراهن أنه قد حصل على وظيفة في الشركة. وقد يكون مرّ حتى على شبّاك الرواتب...

الدكتور «غوستاڤ» يقرع الطاولة قرعات شديدة، ويحتجّ على أنه يُشتم، ويهدّد ويتوعّد. ولكن عيون العمال كلّهم مسمّرة على «پيدرو كورومبا» الذي تابع قائلاً:

ـ أيها الرفاق، إنهم يخونوننا. علينا ألاّ نقبل بعرض الشركة.

---

(١) استعار المؤلف هذا الاسم من رواية اجتماعية اخرى من الشمال الشرقي بعنوان «الكورومبيّون» لمؤلفها «امندو فوانتس».

لأنهم سيظنّون أننا ضعفاء وسيستغلّون الأمر فيسحبون بيد ما يعطوننا إياه بالأخرى، ما دمنا بدأنا فعلينا أن نسير إلى النهاية. ولكننا سننتصر. البروليتاريا قوّة وإن أحسنت التصرّف، إن أحسنت الصمود، حصلت على كل ما تريد. كفى ذرّ رماد في العيون، كفى خيانات. ليسقط «غوستاف بريراس» و«شركة المواصلات». عاشت البروليتاريا! عاش الإضراب!

ـ أحسنت!

الجميع يحملقون. «ماريانو» يبتسم، والزنجي «هنري» يبدي أنيابه، وانطونيو بالدوينو يخطب: إنه يعلن باختصار أن عمّال الأرصفة متّفقون مع الرفيق «كورومبا». ومسألتهم الخاصّة ما تزال بلا حلّ. لقد ساندوا إضراب عمّال المواصلات وهم ينتظرون المبادلة. إنهم لا يريدون مخادعات، ويقترحون أن يطرد من المكتب الخائن «غوستاف بريراس» (لو عرف فيه بالدوينو عشيق «لندنلڤا» السابق لما خرج من القاعة حيّاً). وانسحب الخائن يحميه المخبرون. ورافقته في السلّم موجة من الصياح الساخر. ثم طالب «سيڤرينو» بالصمت وقال إن النضال سيكون الآن أصعب لأن الأعداء سوف يقولون إنهم هم (العمال) الذين لا يريدون التفاهم. واقترح تعميم بيان على الشعب، وراح يقرأ مشروعاً كتبه. وافق القوم. البيان يوضّح أن هناك من خانهم ولكنهم سيقودون المعركة حتى النهاية ولن يعودوا إلى العمل إلا حين تقبل الشركة بالشروط التي نادوا بها منذ بداية الإضراب.

طلب شابّ أسمر الكلام. هو يعلن أنه ضد استمرار الإضراب. من رأيه أن عليهم القبول بزيادة الـ ٥٠ ٪. ذلكم هو. الدكتور

« غوستاف » كان على حق. أي عون يملك العمّال؟ في وسع الشرطة وقف هذا كلّه ما إن يحلو لها...

ـ هه؟ يحلو لها ماذا؟

ـ وكيف...

عليهم أن يرضوا بالزيادة الممنوحة. واقترح كسر الإضراب وإجراء تصويت لردّ اعتبار الدكتور « غوستاف ».

إنهم يصيحون! « خائن! مشتَرَى!... ».

بعضهم طلبوا أن يسمح للخطيب بالكلام. كثيرون أوشكوا أن يعتبروه مصيباً. ٥٠ ٪، يا للشيطان، لا بأس بذلك. وعندما انسحب الشابّ الأسمر سُمع بعض التصفيق. ولكن انطونيو بالدوينو صاح من مكانه:

ـ أيها الأصدقاء، أيكون أن عين التقوى فيكم قد غمضت ولم يبق لكم سوى عين الخبث؟ والله لكأنكم لم تعودوا تذكرون أننا سرنا معكم. إذا أردتم أن تُخانوا فليكن، أنتم أحرار. ولكن إذا كنتم من الغباء بحيث تتخلّون عن كل شيء من أجل بعرة معزاة فإني أؤكد لكم أني سأكسر رأس أوّل من يتخطّى هذا الباب. سأبقى أنا مضرباً إلى أن ننتصر!

« سيڤرينو » يبتسم. ولكن الحضور ما يزالون متردّدين. هناك أحاديث مشبوهة ويبدو أن المعتدلين ينتصرون على المحبّذين.

الرئيس يتهيّأ لإجراء الاقتراع بالوقوف أو الجلوس لاستمرار الإضراب أو توقّفه. ولكن ما إن بدأوا حتى دخل القاعة عامل شابّ وكأنه إعصار وصاح:

ـ لقد قبض على الرفيق «آدمار» وهو خارج بعد الظهر من هنا. إن الشركة ترشو أشخاصاً لإفشال الإضراب.

وتوقّف ليلتقط أنفاسه:

ـ ... ويبدو أن الشرطة سترغم الخبّازين على توزيع الخبز غداً صباحاً.

عندها وقف المجتمعون وقفة رجل واحد وصوّتوا على الاستمرار في الإضراب مادّين أذرعتهم مكوّرين قبضاتهم.

يوم الاضراب الثاني

لِمَ النوم في ليلة بمثل هذا الجمال؟ لن ينام انطونيو بالدوينو. سيقضي بقية الليلة بصحبة «الضخم» و «يواكيم» ليوزّعوا في المدينة البيان الذي حررّه «سيڤرينو» وشرح فيه أسباب استمرار الإضراب. هناك نسخ منه على جميع الأعمدة. لقد توزّعوا العمل: فريق بإمرة الزنجيّ «هنري» تسلّم حيّ «النهر الاحمر»، وهم يتابعون التوزيع في «درب الحرية»، وآخرون في «الممرّ المرتفع»، وآخرون يذرعون المدينة المنخفضة. المدينة غارقة بالبيانات وجميع الناس الآن يعلمون لماذا يواصل العمّال الإضراب. الشركة ليست محبوبة بشكل عامّ وصغار التجار الذين يستقلّون عادة الـ «مارينيتي»[1] للذهاب إلى أعمالهم متعاطفون مع العمّال. وأشاعت الشركة أنه إذا فازت مطاليب العمال فإن أسعار الترامات والكهرباء والتلفون ستزيد. لم تنجح الضربة، وكان من شأنها أن زادت من العداء للشركة. وبقي الطقس مائلاً إلى الصحو فأسهم في الابقاء على بشاشة السكان، وهي ورقة رابحة في لعبة العمّال.

---

(١) هذا هو الاسم الذي يُطلق على الاوتوبيسات في «باهيا» لأنها بدأت بتقديم الخدمات ـ كما تقول الاسطورة ـ في اليوم الذي نزل فيه الشاعر الايطاليّ الشهير «مارينيتي» (صاحب النظريّة الفنّية المعروفة باسم «المستقبليّة») للمرّة الأولى في «باهيا».

إن أنطونيو بالدوينو (الله أعلم إذا كان قد تعلّم أشياء وأشياء في يـوم وليلـة!) يشرح الإضراب لـ «الضخـم» و «يـواكيم». هـو مندهش لملاحظة أن «جوبيابـا» لا يعـرف شيئـاً عـن الإضراب. «جوبيابا» خبير بالقدّيسين، بحكايات زمان العبوديّة، إنه رجل حرّ، ولكنه لم يعلّم قط شعب الجبل المستعبد معنى الإضراب. انطونيو بالدوينو لا يتمالك نفسه.

هناك تحرّك في ناحية «رمپ دو پيلوري». هناك أناس يمرّون وهم يركضون. يسمع من النقابة صوت طلق ناريّ. أحدهم يدخل قائلاً: «تريد الشرطة إرغام الخبّازين على توزيع الخبز». وذهب فريق إلى مكان الحادثة، ولكن النزاع كان قد انتهى. فسلال الخبز البائت الذي يريد أصحاب الافران إرغام صبيانهم على توزيعه ملقاة على الأرض.

أحد هؤلاء يشرح وعينه متورّمة من ضربة تلقّاها: «لجأوا حتى إلى سلاح الخيالة، ولم نسلّم الخبز على الرغم من ذلك كله». شاب آخر ينذر بأن «مخبز غاليس» يريد تسليم الخبز الذي خبز البارحة. إنه يخبر أن أرباب العمل وظّفوا عاطلين عن العمل وقدّموا لهم أجراً مضاعفاً واعدين إيّاهم بعمل لسائر أيام عملهم. وصاح عامل عجوز: «ينبغي عدم السماح لهم بأن يفعلوا». هناك كثير من الناس في النوافذ، ولا ينفكّ في كل لحظة يأتي قادمون جدد من نقابة عمّال شركةالمواصلات. أصوات تلحّ: «سنثبت لهم أنه ليس من الحسن كسر إضراب». انطونيو بـالـدوينـو يقترح «أن يـذهبـوا لكسر رؤوسهم». ويردّ «سيڤرينو» «أبداً، سوف نذهب ولكن لنشرح لهم أن عليهم ألاّ يكونوا أدواتٍ ضدّ عمّال مثلهم. لا داعي للقتال».

ـ ولكن ما الفائدة من مناقشة هؤلاء الصفر حين تكون هناك وسيلة لكسر رؤوسهم؟

ـ ليسوا صفراً. هم لا يعرفون شيئاً عن الموضوع، هذا كلّ ما في الأمر. سوف نشرح لهم.

إن « سيڤرينو » يعرف ما يقول. وسكت انطونيو بالدوينو. هو يتعلّم أن شخصاً وحده في الإضراب لا يصدر الأوامر، وأنهم جميعاً متضامنون. مثل الإضراب مثل عِقد...

وهو مع ذلك لا يشعر بأيّ أسف لأنه ليس قائد الإضراب. إنهم جميعهم قادة لأنهم متوافقون جميعاً على ما هو معقول. العراك الذي يشارك فيه الآن يختلف عن العراك الذي قاده طوال حياته. ولكن إلى أين قاده هذا العراك؟ جعل منه عبداً للرافعات يتطلّع إلى البحر على أنه طريق الخلاص. وعلى العكس فإنه في العراك للإضراب سيتحرّر هو والآخرون من جزء من العبوديّة ويحصلون على شيء من الحريّة. ولسوف يقومون ذات يوم بإضراب أكبر ويتخلّصون من العبودية. إن « جوبيابا » لا يعرف شيئاً هو أيضاً من هذا العراك، ولا حتى الناس الذين سيوزّعون الخبز. « سيڤرينو » على حقّ، إن الضرب لا يجدي شيئاً. إن ما يجدي شيئاً هو الإقناع. وتابع الزنجيّ الفريق المتوجّه إلى « مخبز غاليس » في « شارع الحذّائين الأسفل ».

موزّعو الخبز يخرج بعضهم تلو بعض. لكأنهم تماثيل كرنفال بالسلال التي فوق رؤوسهم. « سيڤرينو » يتسلّق أحد الأعمدة ويبدأ بالكلام وقد تعلّق بيد واحدة. إنه يوضّح للموزّعين أن عليهم التضامن مع إخوانهم المطالبين بزيادة لا أن يخدموا مصالح أرباب

العمل. إن توزيع هذا الخبز يعني أنهم يخونون الهيئة التي إليها ينتمون.

ولكن أحدهم يقاطع:

ـ ولكننا عاطلون عن العمل!

ـ وهل هذا سبب للحلول محلّ الآخرين؟ أمن العدل الاستيلاء على وظيفة رفيق يناضل لخير الجميع؟ لا، إنها لخيانة.

أحد الموزعين يقلب سلّته. آخرون يحذون حذوه. الحشد يطلق صيحات الحماسة. حتى أشدّهم مناهضة من أمثال الذي قاطع «سيڤرينو» ـ له أسرة عليه إطعامها ـ يتركون سلالهم. موزّعان كانا متشبّثين بالقيام بالتوزيع منعهما رفاقهما بالذات. وعلى صيحات «عاش الإضراب!» توجّهوا جميعاً توجّه رجل واحد إلى نقابة الخبّازين.

ولكن الأمور أخذت في المساء تسير سيراً رديئاً من ناحية الخبّازين. حمل النبأ «الضخم» الذي كان قد ذهب يتغدّى في المدينة وتأخّر كثيراً. لقد أرسل صاحب «المخابز المتّحدة» من يُحضر عمّالاً من «فوار سانت آن». ولقد أحضرهم بالسيّارات، وسيكون هناك خبز منذ الصباح لأنهم سيباشرون العمل هذا المساء بالذات.

حدث بين الخبّازين بداية ذعر. وأُرسل مندوبون إلى نقابتي عمال الترام والأرصفة. إنه إن تنجح «المخابز المتحدة» في صنع خبزها وبيعه فإنه يمكن اعتبار إضراب الخبازين بمثابة المنتهي ويكون لضربون قد خسروا لا الزيادة التي يطالبون بها وحسب، بل حتى وظائفهم. وسيكون انعكاس ذلك على إضراب مستخدمي الترام

والأرصفة خطيراً. إن هـزيمة الخبّـازيـن ستبتر ذراعـاً مـن أذرعـة الإضراب وسيكون من السهل إقناع الهيئات المهنيّة المعنيّة الأخرى. وبدأت الخُطب تنهمر في نقابة الخبّازين بينما كان ينعقد لقاء في ساحة « كاسترو القس » للمطالبة بالإفراج عن العامل الذي قبض عليه البارحة. ووسط اللقاء جاء أحدهم يعلن محاولة « المخابز المتحدة » لكسر الإضراب. وعلى الفور اتخذ اللقاء طابعاً أشدّ عنفاً وتوجّه الحضور زرافات إلى نقابة الخبّازيـن. وكـان عمّـال الأرصفـة قـد سبقوهم إلى ذلك. ومرّ « الضخم » على نقابة عمال الترام لتحذيرهم.

كانت قاعة نقابة الخبازين صغيرة جداً ولم يكن من الممكن أن تستوعب مثل هذا الحشد. وتعاقب على الكلام ممثلو عمال المخابز والأرصفة وسائقي الترامواياتِ والطلاّب. وقام ممثّل مصنع للأحذية يعلن أن رفاقه سينضمّون إلى المضربين إذا اقتضى الأمر ذلك. ولم ينفكّ الناس يتقاطـرون. وتكلم « سيفـريـنـو » بصـوت أجشّ شبـه مبحوح. وأطلق بيان يطالب بالإضراب العـام وتقـرّر شـلّ عمـل الخبازّين القادمين من « فوار سانت آن ».

كان أحد فروع « المخابـز المتحـدة » قـائماً في « شـارع الحذّائين الاسفل »، والثاني في « ممرّ النصر »، والثالث في أحد الشوارع بقلب المدينة. وانقسم المضـربون إلى ثلاثة فرقاء توجّه كلّ منهم إلى أحد الدكاكين. ولم يستبقِ « سيڤرينو » معه سوى بضعـة رجـال للتـوجّـه لمفاوضة عمّال بعض المصانع وسائقي الـ « مـارينيتي » والتـاكسيـات لأجـل التحضير لإضراب عـامّ. ورفضـت « شركــة المواصلات » والشركة التي تستثمر الأرصفة أن تفاوض المضربين أو تأخذ علماً

بمطاليبهم إن لم يعودوا إلى العمل. وأما أصحاب المخابز فقد كانوا يحاولون كسر الإضراب.

كان سهلاً صرف العمّال المتّفق معهم في مخبز « ممر النصر » عن العمل. كانوا قد اجتذبوهم بوعود مدهشة، ولكن « رويز » المالك راح يرفض أن يدفع لهم مقدّماً، كما كان الاتفاق، نصف أجورهم. فهو لن يدفع إلا في اليوم التالي بعد أن ينهوا العمل. ولقد أفلح استنهاض شعور التضامن العمّالي وما كانوا يطالعونه في وجوه المضربين من العزم على المقاومة النشطة في جعل القادمين الجدد يقرّرون العودة بالسيارات إلى « فوار سانت آن » وهم يهتفون « عاش الإضراب! ».

أما في « شارع الحذّائين الأسفل » فكانت حكاية أخرى. فحين وصل المضربون إلى المكان وجدوا رجال الشرطة قد احتلّوا المخبز. واختلط بالحشد مفتّشون من قوى الأمن وأيديهم على مسدّساتهم. وانتظر العمال وسط الشارع الشاحنة التي كان ينبغي أن تقلّ رفاقهم في الجوار. وما إن رأوها تطلّ حتى وقف أحدهم أمامها لإيقافها وبدأ خطاباً يشرح فيه الوضع للخبّازين القادمين من « فوار سانت آن » ويطلعهم على ما يريد أرباب العمل صنعه. كان الشارع غاصّاً بالناس. وتوقّف بعض المارّة الذين لم يكن الشأن يعنيهم ليروا كيف سينتهي الحادث. كان الناس يتبادلون انطباعاتهم:

ـ اراهن أنهم سيعودون أدراجهم...

ـ مئة فلس أنهم سيبقون.

بعض الأولاد الذين كانوا يلعبون في زقاق مجاور هرعوا

ليحصلوا على نصيبهم من المشهد. إنهم يجدونه مسلّياً جداً مثلما كان انطونيو بالدوينو قد وجد قبل سنوات طويلة مسلياً توقيف أحد المحرّضين على أحد أرصفة الميناء. وعندما كان العمّال يهتفون كانوا يهتفون معهم ويجدون ذلك عجيباً للغاية. استمرّ العامل الذي تسلّق أحد الأعمدة في خطابه. وكان الخبّازون الراكبون في الشاحنة يستمعون إليه وكان كثيرون منهم قد قرّروا العودة من حيث أتوا.

وفجأة انهمر الرصاص. كان المفتّشون يطلقون والخيّالة يتهيّأون للإطلاق. وبدأ التفرّق: كان هناك من ديسوا بالأرجل، وكان تماسك بالأيدي وقتال. واستمرّ الخطيب يتكلّم تحت وابل الرصاص. وكان أنطونيو بالدوينو قد انتهى من صرع أحد الخصوم حين شاهد «الضخم» راكضاً جاحظ العينين مهتزّ الحنكين. رآه رافعاً جثّة زنجية صغيرة قتلت برصاصة وهو يصيح:

ـ أين هو الله؟ أين هو؟

عاد خبّازو «فوار سانت آن» إلى بلدتهم بالشاحنة التي أحضرتهم. كان جسدا اثنين من المضربين ملقيين على قارعة الطريق. أحدهما كان قد مات، أما الآخر فكان لا يزال يملك القدرة على الابتسام.

من ذاك الزنجي الذي يذرع شوارع المدينة الهادئة أو تلك التي كان فيها بعض الناس وهو مادّ ذراعيه أمامه؟ لماذا يجدّف، لماذا يسأل أين الله؟ لماذا يمدّ ذراعيه وكأنه يحمل عبئاً، ولماذا يمرّ من غير أن يرى شيئاً، لا الرجال والنساء الذين ينظرون إليه، ولا حركة الحياة حواليه، ولا الشمس الساطعة؟ إلى اين يذهب هكذا غريباً عن

كل شيء؟ ما هو ذلك الشيء الذي لا تستطيع أية عين بشرية أن تراه والذي يشدّه إلى صدره بهذا القدر من العذوبة؟ أجل، ماذا يريد هذا الزنجيّ الضخم ذو العينين الحزينتين الذي يذرع شوارع المدينة في الساعات التي تبلغ فيها زحمة السير أشدها؟ إنه يطرح على جميع من يمرّون به السؤال المقلق نفسه: «أين هو الله؟ أين هو الله؟». إن في صوته أسفاً مأسوياً، ولا أحد يعلم ما شأن هذا الرجل الذي يثير شفقة المارّة.

بلى. العمّال الذين أضربوا يعلمون. إنهم يعلمون أنه «الضخم» الذي جنّ حين رأى رصاصة مفتّش تردي صبيّة زنجية أمام مخبز «شارع الحذّائين الأسفل» في يوم تداعى فيه العمال للقاء. يعلمون أنه حمل جثّة الصبيّة إلى بيت أبي القدّيس «جوبيابا» وهو يردّد طول الطريق هذا السؤال نفسه: «أين هو الله؟» لقد كان تقياً جداً وقد فقد صوابه. والآن هو يمشي وذراعاه ممدودتان وكأنه ما يزال يحمل جثة الزنجية الصغيرة. إنه لا يؤذي أحداً، مجنون غير مؤذٍ.

ولكن العمال أنفسهم لا يعرفون كل شيء. لا يعرفون أن «البدين» ما يزال يحمل جسد الصبيّة منذ يوم اللقاء لأنه على يقين من أن الله سيتذكّرها في النهاية، من أن الله سوف يُظهر لطفه ويعيدها واقفة على قدميها لتتمكّن من استئناف اللعب مع الأولاد الآخرين في «شارع الحذائين الأسفل». وفي ذلك اليوم سيتوقّف «الضخم» عن طرح سؤاله وتنزل يداه ويغيب الحزن عن عينيه. ولكنه لو علم أنها ماتت حقاً، وأن نعشها البائس مدفون منذ زمن طويل، لمات هو أيضاً، لأن ذلك سوف يكون دليلاً على أن عين الرحمة التي هي بمثل اتساع العالم قد انفقأت. وعندها كان يفقد إيمانه

ويموت من الأسى. ولهذا غدا ذلك المجنون غير المؤذي الذي يسير مادّاً ذراعيه أمامه حاملاً إلى صدره جسد الصبيّة السوداء الناحل. إن الناس لا يرونه، ذلك الجسد الصغير المخروق برصاصة، ولكن لا همّ. «الضخم» يشعر بثقله فوق ذراعيه، وبالدفء عندما يشدّه إلى قلبه.

ليلة الاضراب الثانية

لقد فقدت المدينة طابع العيد الذي كانت تكتسيه. فمنذ رشقات الرصاص الأولى أضحت عرضة للأنباء المزيّفة، ولم تلبث حركة السير أن خفّت في الشوارع. كانت الاوتوبيسات لا تزال تتجوّل، ولكنها لم تكن تقلّ إلا عدداً ضيئلاً من الركاب، وحتى هؤلاء كانوا يسرعون في العودة إلى منازلهم خوفاً من المشاجرات أو من تلقّي رصاصة طائشة. وكانوا يقولون « الرصاص لا يحمل عناوين ».

وفي المنازل كان الإرهاب، أو شبه الإرهاب، يخيّم على الأسر. وكان الصدام بين الخبّازين المضربين والشرطة في « شارع الحذّائين الأسفل » يتخّذ أحجاماً مرعبة. كان الناس يتحدّثون عن ثمانية عشر قتيلاً وعشرات الجرحى. وكانت الشائعات تدور حول مهاجمة النقابات عمّا قريب، وتفريق المضربين بطلقات البنادق. وكانت النسوة يرتجفن ويمترسن أبوابهن قبل إشعال الشموع والقناديل. كانت المدينة نهباً للقلق.

لم يكن في منزل « كلوڤيس » شيء للعشاء. كان قد وعد بشراء بعض الأشياء من المدينة. وانتظرته « ايلين » عبثاً طوال بعد الظهر: لم يظهر. وسرت أشدّ الشائعات تناقضاً. وعندما علمت برشقات الرصاص في « شارع الحذّائين الأسفل » خرجت على عجل. وأخبروها أن « كلوڤيس » لم يتمكّن من الحضور لأنه كان ضمن

الفريق الّذي ذهب لإقفال مخبز « ممرّ النصر ». وإذ ساورها بعض الاطمئنان فقد عادت إلى بيتها لتنتظر زوجها. كان أولادها الثلاثة يلعبون أمام الباب. ماذا ستقدّم لهم ليأكلوا؟ كان الموقد المطفأ ينتظر بلا فائدة في المطبخ. لم يكن هناك حتى طحين، فقد استهلكوه البارحة. لقد سبق لها أن ذهبت تستعير من الجارات أشياء للغداء واعدة بردّها حين يعود زوجها لأنهنّ كنّ بمثل حاجتها، المسكينات. كان جميع رجال الشارع، وهم إما خبّازون وإما من عمّال الأرصفة، مشتركين في الإضراب. وكانت « ايلين » خجلى من الذهاب للاقتراض من جاراتها. الوقت وقت إضراب بالطبع، وكان الناس يقولون إن عليهم أن يتعاونوا ـ ولم تكن « ايلين » معارضة للإضراب، لا. كانت ترى أنهم على حق، وأن الأجر ضئيل جداً لا يكفي. كان من حقهم أن يطالبوا بأكثر وأن يتوقّفوا عن العمل بانتظار زيادة أجورهم. ولكنها كانت خائفة من الأيام الآتية. لم يكن في بيتها شيء يؤكل، ولن يلبث أن يحدث الشيء نفسه في بيوت الجارات، وأين ستجد النقابة عندئذٍ المال لإعانة كل هؤلاء الناس؟ إذا امتدّ الإضراب بضعة أيام أخر فسينتصر الجوع عليهم.

وقفت « ايلين » في الشبّاك. إنها تلمح « ارسيديا » في المنزل المجاور:

ـ هيه « ايلين »، لم يصل « كلوفيس » بعد؟
ـ ليس بعد يا « ارسيديا ».

ـ من المحتمل جداً ألاّ يأتي... لقد قال لي « هنري » ألاّ أنتظره. حالة الإضراب سيّئة اليوم، لا بدّ أن يكون الرجال في الشارع.

ثم أضافت وهي تبتسم:
- أعتقد جيّداً أني سأتعشى من دونه.

إنها ما تزال تبتسم. ولكن لماذا لا تبتسم «ايلين» ردّاً على ابتسامتها؟ لكأنها تبكي. خرجت «ارسيديا» من بيتها ودخلت بيت الجارة:

- ماذا دهاك يا «ايلين»؟

لمحت الموقد المطفأ في المطبخ. عندها قالت وهي تداعب رأس «ايلين»:

- لا ينبغي أن تحزني لهذا يا صغيرتي. عندي سمك يكفي الجميع. لسوف ترين: سينجحون بعد هذا في الإضراب وسيكون لنا مال اكثر.

وابتسمت «ايلين» من خلال دموعها.

بقي «كلوفيس» في النقابة ليستمع إلى الخطب. فمنذ رشقات الرصاص اتّخذ الاضراب طابعاً جديداً. الرجال ثائرون يريدون أن يردّوا وليس في وسع الشيطان ان يمنعهم من ذلك. واقتُرع على توجيهات تطالب بالإفراج الفوريّ عن المضربين الموقوفين. أكثر الشائعات غرابة تسري. وفجأة دخل القاعة عامل وكأنه ريح عاتية، وأعلن أن الشرطة آتية لمهاجمة النقابة. إنهم يحضّرون لمقاومة شاملة، ولكن النبأ كان كاذباً. وعلى كلّ حال، فإنهم ينتظرون أن يُهاجموا في كلّ لحظة. وفي الساعة التاسعة مساء علم عمال الأرصفة بفوز قضيّتهم؛ ومع ذلك فقد قرّروا في اجتماع منعقد في مقرّ نقابتهم متابعة الإضراب حتى تسوّى قضية الخبّازين ومستخدمي الترامات ثم

توجّهوا أجمعين إلى نقابة هؤلاء لإبلاغهم القرار الذي اتّخذوه. ووسط الخطب دوّى نبأ مثل قنبلة: قبضت الشرطة على عدد من العمّال وتريد إكراههم على العمل بالقوة. وكانت النقابة في اضطراب شديد. وقد خرج الحضور زرافات وتشكّلت لجان للذهاب لمناقشة سائقي الاوتوبيسات والتكسيات. وأخرى ستذهب للاتصال بعمّال مصانع مختلفة. وقسم كبير توجّه صوب مكاتب «شركة المواصلات» لتنظيم مظاهرة معادية أمام مبانيها. العقول في أوج حماستها. إنها العاشرة مساء.

توقّفت سيارة أمام مكاتب الشركة. إنها الـ «هدسن» التي يملكها المدير، وهو أميركيّ دخله الشهريّ اثنا عشر «كونتو». ها هو يهبط السلّم بنفسه والسيكار في فمه. السائق يجهّز السيارة. وصاح انطونيو بالدوينو الذي كان يشارك في زمرة المضربين: «سوف نستولي عليه يا أولاد! وبهذا يكون لنا نحن أيضاً رهينة». رجال الشرطة الذين يراقبون المبنى يهرعون في كلّ الاتجاهات. المدير محاط. قبض انطونيو بالدوينو على إحدى ذراعيه ومزّق بذلته البيضاء. أصوات تصرخ: «اسحلوه! اسحلوه!» يرفع انطونيو بالدوينو ذراعه ليسدّد ضربة من قبضته ولكن صوتاً ارتفع عالياً. كان «سيڤرينو» قائلاً: «ممنوع ضربه. إننا عمّال لا قتلة. سنقوده إلى النقابة». انطونيو بالدوينو حانق لأن عليه إنزال ذراعه. ولكنه يدرك أن ذلك ضروريّ، وأن الإضراب عمل جماعيّ لا عمل رجل واحد. واقتيد الاميركيّ وسط الصخب إلى نقابة مستخدمي الترامات.

وانتشر النبأ في المدينة انتشار نثار البارود. الشرطة تريد أن يُخلَى سبيل المدير. قنصليّة الولايات المتحدة تتحرّك. المضربون يطالبون بالإفراج عن جميع المساجين السياسيين وبوضع حدّ للمناورات الرامية إلى إرغام العمال بالعنف على العمل. وفي الساعة الحادية عشرة حضر الذين كانوا قد أوقفوا إلى النقابة. إنهم يقولون إن القنصل الاميركي هو الذي تدّخل لدى الشرطة لإخلاء سبيلهم خوفاً من أن يقتل رفاقهم المدير انتقاماً. وذهب هذا الأخير من غير أن يتعرّض له أحد، ولكن بعد أن كان قد سمع كثيراً من الكلام القاسي. الحماسة البالغة تسود جوّ النقابة.

بعد نصف ساعة كان جدول أعمال يُتلى وسط التصفيق. لقد قرّر سائقو الاوتوبيسات والتكسيات وعمّال مصنعين للنسيج وعمّال معمل للسيكار أن يُضربوا في اليوم التالي إن لم تستجب مطالب مُستخدمي الترامات حتى ذلك الحين. بدأ «پيدرو كورومبا» خطاباً بالقول: «في وسع العمّال المتحدّين أن يهيمنوا على العالم». انطونيو بالدوينو يعانق شخصاً لم يسبق له أن رآه.

وعند منتصف الليل أبلغ ممثلو شركة المواصلات وأصحاب الأفران الموجودون في قصر الحكومة لجنة الإضراب قرارهم بقبول مطاليب عمّالهم. وسوف يسري مفعول التعرفات الجديدة ابتداء من اليوم التالي. الإضراب ينتهي بانتصار المضربين انتصاراً كاملاً.

ذهب انطونيو بالدوينو إلى بيت «جوبيابا». إنه الآن يعامل «ابا القدّيس» معاملة الندّ للندّ. وها هوذا يبلغه أنه اكتشف السرّ الذي تعلّمه الأغاني التي تحكي عن المآسي، وأنه وجد الدرب الصحيح. لقد

فقأ الأغنياء عين التقوى، وأما هم الفقراء ففي وسعهم متى ارادوا فقء عين الخبث. وعندها انحنى «جوبيابا» امامه وكأنه «اوشولوفان»، «اوشالا» العجوز، أعظم القدّيسين طرّاً.

« هانس » البحّار

انطونيوبالدوينو يشدّ في جيب بنطلونه على « المليرسات » المائة والعشرين التي ربحها بالمراهنة على التمساح في لعبة الـ « بيشو ». الليل يرخي سدوله شيئاً فشيئاً على المدينة. وقد مضت بضعة أيّام لم تشبّ فيها الأنوار. لقد شلّ الإضراب كل‌شيء. كل شيء، لا. فانطونيو بالدوينو يعتقد أن حياته هو هي التي كانت من قبل شبه مشلولة. لقد جعله الإضراب يكتشف درباً آخر، ومع ذلك فإنه ما يزال اليوم يدمدم « سامبا » بعنوان « انتصار الإضراب » كانت قد ظهرت في اليوم الذي تلا فوز العمّال. إن انطونيو بالدوينو يتذكّر وهو يغنّي أحداث ذينك اليومين:

نقابة عمّال أضربت
كي تُزاد أجورها
وقوّى الحركة انضمام جميع الطبقات
وشركة المواصلات لقيت معارضة شديدة.

النصّ لـ « برغامينيو ليرا » ويغنّى على لحن « إنها بالحريّ مُرّة ». لقد بيع منها أعداد كبيرة في المدينة ولم يكن يغنّى في الشوارع غداة الاضراب سواها بعد أن عادت الترامات إلى السير. كان الإضراب بالنسبة إلى انطونيو بالدوينو كشفاً نورانياً حقيقياً. ولقد أثار اهتمامه أول الأمر بوصفه فرصة للعراك، لإحداث الصخب والشجار، أي

كلّ الأمور التي كان يحبّها منذ صباه. ولكن الإضراب راح يتّخذ رويداً رويداً في نظر الملاكم السابق مظهراً جديداً جداً. كان أكثر جدّية من مجرّد شجار، نضالاً للوصول إلى نتيجة، نضالاً يعرف ما يريد، شيئاً جميلاً. ففي أثناء الإضراب كانوا جميعاً أصدقاء، متّفقين للدفاع عن أنفسهم والكفاح ضدّ القهر. يستحقّ الإضراب أغنية تحكي البطولة، والسامبا التي يغنّيها انطونيو بالدوينو وهو يفكّر ليست كافية:

لم يكن هناك إضاءة
ولا خبز كذلك
لم يكن هناك اتصالات؛
كان التلفون أخرس.
في الاضراب لم تظهر صحيفة
ولا كان هناك ترام
على أيّ خطّ.

كل ما تقوله السامبا كان صحيحاً. وهؤلاء الناس الذين طالما احتقرهم انطونيو بالدوينو لأنه كان يرى فيهم عبيداً عاجزين عن المواجهة قد شلّوا حياة المدينة بأسرها. كان انطونيو بالدوينو يظنّ فيما مضى أن الرجال الأحرار الأقوياء، أسياد مدينة «باهيا» المقدّسة، كانوا يتألفون منه هو نفسه ومن أصدقائه قطّاع الطرق، الصبية الأشرار الذين يعيشون والسكّين في أيديهم. كانت هذه الفكرة هي التي جعلته حزيناً جداً ودفعته تقريباً إلى التفكير في الانتحار حين كان عليه أن يشتغل على أرصفة الميناء. وهو الآن يعرف أنه كان مخطئاً. العمّال عبيد، ولكنهم يناضلون لكي

يتحرّروا. والسامبا مصيبة في القول:

توقّفت المصانع بعض الوقت
إلى أن يفوز العمال وينتصروا.
والآن فان الفرحة عامّة
عاش عمال مدينتنا «باهيا».

هبط الظلام والقمر الصاعد من البحر ذاهب للقاء النجوم. وفي هذه الساعة لا بدّ أن يكون «الضخم» هائماً في شارع «الشيلي» وذراعاه مشبكتان متسائلاً أين الله. إنه «زومبي دي پالمييه» هذا الذي يلمع في السماء. وهو في نظر البيض كوكب الزُهرة. وفي نظر الزنوج، في نظر انطونيو بالدوينو هو «زومبي» الزنجيّ الذي فضّل أن يموت على أن يكون عبداً. لقد كان «زومبي» يعرف الأشياء التي تعلّمها بالدوينو للتوّ. السفن المساحلة غارقة في النوم. وحده «المسافر بلا مرفأ» يجر، وقد أضاء قنديله، محمّلاً بالأناناس. و«ماريا كلارا» منتصبة تغني. إنها تعبق برائحة بحر قويّة. لقد ولدت فوق المحيط، والمحيط عدوّها وعشيقها. أنطونيو بالدوينو يحبّ البحر هو الآخر. لقد طالما كان البحر عنده «الطريق إلى البيت». وعندما ماتت «لندنلفا»، ولما كان يظن أن الاغنية التي ستتحدّث عنه قد ضاعت من الآن فصاعداً، وأنه لن يكون شيئاً مذكوراً، أراد أن يسلك طريق البحر ليكون سعيداً مثل ميت. وحدهم رجال أرصفة المرفأ، رجال البحر، علّموه الإضراب. وكشف له البحر عن طريق البيت. وهو ينظر إلى ناحية البحر الأخضر الذي صفّره القمر. ومن بعيد يصل صوت «ماريا كلارا»:

طريق البحر واسع يا «ماريا».

وعلى الرصيف المقفر يدير عجوزٌ أرغناً آلياً. الموسيقى تصل خافتة وتنتشر خلال السفن المساحلة، خلال بحر انطونيو بالدوينو الكبير الغامض. لولا «الإضراب» لكان البحر ابتلع جسده في ليلة ليس فيه ضوء قمر. لولا «الإضراب»لاستنكف أن تغنّى حكايته في أغنية من أغاني المآسي، وان يُرى «زومبي‌دي بالميه» يلمع مثل الزُهرة. مرّ طيف من بعيد. أيكون «روبير» البهلوان المتوازن الذي اختفى بطريقة غامضة من السيرك؟ ولكن ما همّ! موسيقى الأرغن تنتحب. وصوت «ماريا كلارا» خمد في عرض البحر. لا بد أن «المعلّم مانويل» هو الذي يدير الدفّة. إنه يعرف جميع أسرار البحر، هذا الإنسان. وسوف يضاجع «ماريا كلارا» في ضوء القمر. وستأتي الأمواج فتغسل جسديهما وتغدو المضاجعة أفضل. هوذا رمل الرصيف الأبيض الذي يفضّضه القمر. رمل الرصيف الأبيض الذي ضاجع فوقه انطونيو بالدوينو عدداً من النساء كنّ جميعاً «لندنلڤا»، «الحميراء». لولا «الإضراب» لكان جسده، جسد الغريق، مطروحاً على الرمل، ولكانت السرطانات الصغيرة تنهشه كما نهشت جسد «ڤيرياتو القزم». وأخذ ضوء سفينة مساحلة يتراءى من بعيد. ترى هل تحمل إليه الريح أنغام الأرغن الذي يديره الإيطالي العجوز؟ وفكّر انطونيو بالدوينو أن لا بُدّ أن أسافر ذات يوم، ينبغي أن أذهب إلى بلاد أخرى.

سوف يصعد ذات يوم على ظهر سفينة، سفينة مثل هذه الواقفة هناك مشعشعة بالأنوار، وسوف يذهب بطريق البحر الواسع. لقد أنقذه «الإضراب». إنه يعرف الآن كيف يناضل. كان «الإضراب» الأغنية التي تحكي بطولته. سوف ترفع السفينة

مرساتها. ولقد سمع البحارة بـ «الإضراب»، وسوف يقصّون في بلاد أخرى أن اولئك الزنوج قد ناضلوا. الذين يبقون يقولون وداعاً. والذين يرحلون يمسحون دموعاً. لِمَ يبكي الناس حين يرحلون؟ إن الرحيل مغامرة ميمونة، حتى حين يرحل المرء إلى قاع البحر كما رحل «ڤيرياتو القزم». ومع ذلك فمن الخير الرحيل من أجل «الإضراب»، من أجل النضال. سوف يرحل انطونيو بالدوينو ذات يوم على سفينة ويمضي لإعلان الإضراب في جميع المرافىء. سيقول في ذلك اليوم وداعاً، هو الآخر. وداعاً أيّها الناس الطيّبون، إني راحل. و«زومبي دي پالمييه» يلمع في السماء. هو يعلم أن انطونيو بالدوينو لن يدخل بعدُ البحر ليموت. لقد أنقذه «الإضراب». سوف يقول ذات يوم وداعاً، سيلوّح بمنديله من فوق السطح الأعلى في سفينة. إنّ موسيقى الأرغن تُعوِل بلحن وداع. ولكنّه لن يودّع على طريقة أولئك الرجال والنساء الذين يسافرون في الدرجة الأولى ويودّعون أصدقاءهم وأقرباءهم وإخوتهم وزوجاتهم الدامعات وخطيباتهم الحزينات. سيقول وداعاً على طريقة هذا البحّار الأشقر الذي يلوّح بقبعته من نافذة مقصورة للمدينة بأسرها، لبغايا «غروس پوتر»، للعمّال الذين أضربوا، للشبّاب الأشرار الموجودين في «مصباح الغرقى»، للنجوم حيث «زومبي دي پالمييه»، للسماء الصافية الأديم والقمر الأصفر، للإيطالي العجوز صاحب الأرغن، ولانطونيو بالدوينو أيضاً. سوف يودّع على طريقة البحّار. وداعاً للجميع لأنه اشترك في الإضراب وتعلّم أن يحبّ جميع الخلاسيين. وجميع الزنوج، وجميع البيض الذين هم، على الأرض وداخل أحشاء السفن فوق البحر، عبيد مشغولون بتحطيم أغلالهم. ويمدّ انطونيو بالدوينو يده العريضة الخشنة ويردّ على وداع «هانس»، البحّار.




في شمال شرق البرازيل، يجسّد المتشرّد انطونيو بالدوينو هموم الشعب الزنجي وأحلامه. وبصفة انطونيو صبياً متسكّعاً وسوقيّاً، وملاكماً محترفاً، ومتردّداً على الحانات والمباغي، وعاملاً في مزارع التبغ وفي أحواض السفن، ثم نجماً في السيرك، فهو يبحث دائماً عن «درب البيت». إنه يقيم غراميات «لا واقعيّة» مع البيضاء ليندينالڤا وعلاقة مع الفاتنة روزندا روزيدا. ولكن إضراباً يعيشه يتيح له أن يكتشف ما هو التضامن، ويمنح حياته معنى: النضال من أجل التحرّر.

تصميم الغلاف: غنى طيارة

